الألف كتاب (الثانى)



التراث الغامض
ماركس والماركسيون

تأليف

سدنى هوك

رئيس قسم الفلسفة - جامعة نيويورك

ترجمة ودراسة

سيد كامل زهران





الألف كتاب (الثانى) ٢٨

التراث الغامض

ماركس والماركسيون

التراث الغامض
ماركس والماركسيون

تأليف
سدني هوك
رئيس قسم الفلسفة - جامعة نيويورك

ترجمة ودراسة
سيد كامل زهران



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٦

تصميم الغلاف : محمد قطب

الاخراج الفنى : عفاف توفيق

سدنى هوك

(٢٠ ديسمبر ١٩٠٢ ٠٠٠٠)

أستاذ زائر بجامعة هارفارد ، كاليفورنيا وسان دايبجو ، ويعد من أبرز أســاتذة الفلسفة الأمريكية ، شارك فى تأسيس الجمعية الأمريكية للحريات الثقافية ــ مجلس الحريات الثقافية المركز الأمريكى للبدائل العقلية بجامعة نيويورك معهد الفلسفة ــ رئيس جمعية جون ديوى ٠

من مؤلفــاته :

تعليم الانسان الحديث ، نعم للهرطقة لا للتآمر ، السلطة السياسية والحريات الشخصية ــ وقع الدين فى المجتمع الحــر ، البرجماتيــة والمغزى المأساوى للحياة ، الثورة ، الاصلاح والعدل الاجتماعى ، الفلسفة والسياسة العامة ، الجبرية والحرية فى عصر العلم الحديث ، فكرة الجامعة الحديثة ، البطل فى التاريخ : دراسة فى الحدود والممكنات (الكتاب الوحيد المترجم له للغة العربية ، ترجمة عدنان الجابرى) ٠

مقدمة للمؤلف

هـذا الكتاب الجامع للشرح والنقـد والقراءات النصية الوثائقية ، يعد كمقدمة لدراسة النظرية والممارسة فى الماركسية · ومن الواضح انه لا يمكن فهمه فى اطار تحليلاته أو الاقتصار عليها فقط · فلم يوضع فى الاعتبار نظرا لضيق اطار الكتاب ، بعض التيارات الفكرية ، على سبيل المثال ،النقابية (السنديكالية) والاشتراكية النقابية والتى لها علاقات تماس مع التيارات الرئيسية للفكر الماركسى · فلقد اجتهدت فقط لأضع أمام القارىء الموضوعات الأساسية التى ميزت الماركسيين عن غيرهم ، وبينهم بعضهم البعض ·

أدى تطور الماركسية كحركة الى بعض التناقضات البارزة والتى جعلت من الصعب الاحتفاظ بالقوالب والمفاهيم التقليدية· فحيثما انتصرت الماركسية كحركة ، كما هو الحال فى الاتحاد السوفيتى ، فشلت مثلها الاشتراكية أو تمت خيانتها ، وحيثما فشلت كحركة حققت أفكارها تقدما ملحوظا · ويبدو كما لو أن التاريخ ذاته قد أذنب لكونه أقل ماركسية ·

أوضحت أحداث الخمسة والعشرين عاما الأخيرة (فترة ما بين الحربين العالميتين) كم هو هام معرفة الأفكار والحركات التى نوقشت فى هـذا الكتاب باعتبارها تناولا عقلانيا للشئون السياسية · انه لمن المريح افتراض لو كان روزفلت وتشرشل قد تعلما بطريقة أفضل لكانا قد أعدا اعدادا أفضل للاستراتيجية السوفيتية للحرب الباردة · لكن ثمن الجهل قد يكن فقدان الحرية على أحسن الفروض ·

أقصى ما يمكن لكتاب من هذا النوع القيــام به هو اثارته لاهتمــام القارىء نحو نقطــة يكون متطلعا لاكتشاف المزيد حــول الموضوع الذى تعالجه . سواء كان ذلك ناجحا بهذا الخصوص أم لا ، فسوف يحكم كل قارىء بنفسه .

سـدنى هـوك

نيـويورك

مقدمة

ترسخ فى الأذهان ان الترجمة عمل ثقافى من المرتبة الثانية حيث يخلو الجهد المبذول فيها من لحظة الخلق والابتكار أو الجدة والأصالة الملازمة لكل عمل ابداعى ، وكون عمل المترجم يقتصر على النقل من الوعاء اللغوى الأصلى للعمل الفكرى الى وعاء آخر لا يعنى ذلك افتقاده لقيمة الدور الحضارى بل هو تعبير عن احدى العمليات الأساسية المطلوبة لتشكل الحضارة واتصالها وتفاعلها · حدث ذلك ويحدث مع بدايات كل نهضة ، ففى بداية عصر النهضة العربية الاسلامية ازدهرت حركة الترجمة عن اليونانية والسيريانية الى العربية ، وتعرف المسلمون على الفلسفة اليونانية وآدابها ، وعندما أبدع العرب وأضافوا للحضارة الانسانية فى الفلسفة والمنطق والعلوم ، ازدهرت حركة الترجمة عن العربية فى أوروبا · وفى عالمنا المعاصر حيث ثورة المعلومات والاتصال وظهور أشكال وصيغ جديدة للاستعمار الثقافى الذى يحاول طمس هوية الشعب ، تطرح على المثقفين الوطنيين فى مجتمعنا العربى الاسلامى مهمة مقدسة بالتصدى النقدى الواعى للكثير من النظريات والايديولوجيات التى تدعى العلم وتتقنع بشعارات الدفاع عن الجماهير والشعوب وتحريرها من القهر الطبقى والاستغلال الاقتصادى والسلطة الدينية وتبشرهم بمجتمع لا طبقى تتلاشى فيه الدولة كأداة للقهر والقمع وتكريس مصالح الرأسماليين ، وفى الواقع الفعلى قدمت الكثير من تطبيقاتها دلائل زيفها بالتراجع عن شعاراتها الضخمة اذعانا لمقتضيات الواقع أو بالمراجعة أو التجديد ·

والفلسفة الماركسية بنسقها الشمولى المغلق وطابعها الكونى تعد من أهم الفلسفات المعاصرة وأكثرها اثارة لردود فعل ومواقف متباينة ، بل وحمل تاريخ تطورها مفارقات عديدة ، فعلى سبيل المثال من الزاوية الفلسفية طرحت ذاتها باعتبارها فلسفة علمية تسعى لتفسير الكون استنادا لقوانين علمية ومجموعة من المبادىء والقوانين وتعرف بالمادية

الجدلية ، وفى نهاية المطاف انتهت الى كونها عقيدة فلسفية تسعى جاهدة لاحتلال موقع الدين وأداء دوره ، فاصطدمت بكثير من النظريات العلمية والاكتشافات التى تعارضت مع كتبها المقدسة ، واعتبرتها من وجهة نظر اللاهوت الماركسى مجرد أطروحات برجوازية (مثال الموقف الماركسى من نظرية النسبية ٠٠) بل واحتلت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى مكانة مجالس الاكليروس فى العصور الوسطى ، ومن الزاوية السياسية طرحت الماركسية ذاتها باعتبارها السلاح الايديولوجى الفعال لخلاص الطبقة العاملة وتحررها وانعتاقها من ربقة العمل المأجور والاستغلال الرأسمالى سعيا لبناء مجتمع شيوعى تتلاشى فيه الملكية الخاصة وآثامها والدولة وجهازها القمعى ، وطرحت نفسها باعتبارها الاشتراكية العلمية التى تستند للعلم وقوانينه فى تحليل الواقع وتأكيدا على طابعها الكونى حاربت بضراوة النزعات الاقليمية والقومية التى تعد فى نظرها نزعات برجوازية ، واعتبرت الماركسية ذاتها كحركة أممية تتخطى كل الحواجز الاقليمية والقومية وفى نهاية المطاف استبدلت فى الواقع الفعلى خطايا الاستغلال الرأسمالى بمستنقع آثام الشمولية واحكام قبضة الحزب الشيوعى على رقاب الحركة العمالية وأصبح الارهاب الشيوعى أشد فتكا وضراوة ، والنظرية التى ادعت العلمية وتعبيرها عن روح التاريخ وتطوره الحتمى فرضت وانتشرت وكرست بقوة السلاح والمؤامرات السياسية من خلف ظهر الحركة السياسية والتاريخ معا وانقسم العالم الشيوعى نتيجة لعوامل كثيرة من أهمها العامل القومى الى شيوعية سوفيتية وشيوعية صينية وأضيفت الشيوعية الأوروبية ، بل ازدادت حدة التدخلات السوفيتية العسكرية (المجر ٠٠) فيما عرف باسم الهيمنة أو الامبريالية السوفيتية فى مواجهة الامبريالية الأمريكية ٠ وأخيرا وليس آخرا التدخل العسكرى السوفيتى فى أفغانستان ٠ وعندما يتعاظم دور وفعالية حركة وطنية فى أحد البلدان ذات الحكم الشيوعى ، محاولة توسيع رقعة الممارسة الديمقراطية والمشاركة فى صياغة السياسة الوطنية ، تواجه الحركة الوطنية والعمالية بالقمع والتشويه والاتهام بالعمالة حتى يستحيل التفرقة بين القاموس والمستخدم لدى الشيوعيين عما هو لدى الرأسماليين والرجعيين ٠٠ كما هو حادث فى بولندا (١) ٠

---

(١) من المفارقات الصارخة تعقيب أحد القيادات الماركسية المصرية فى معرض تناوله لأحداث بولندا بأن (الطبقة العاملة البولندية قد خرجت على حزبها وطليعتها وانحرفت عن المسيرة ٠ ضاربا بعرض الحائط كل المقولات الماركسية لصالح تبرير موقف سياسى راهن فكما هو معروف فى الأدبيات الماركسية يعد الحزب وحركته تعبيرا عن مصالح طبقية معينة وليس العكس ٠

وهذا الكتاب (ماركس والماركسيون) : (التراث الغامض) للبروفيسور «سدني هوك» رئيس قسم الفلسفة بجامعة نيويورك ، يعد من الكتب الجادة التى تتميز بالعرض الموضوعى والأمانة العلمية لأبعد الحدود ويعد خلوا من مسحة التعصب الايديولوجى أو الادانة المسبقة . فلقد اعتمد المؤلف على نقد نظريات ماركس وأتباعه من الرواد والأعلام الماركسيين باختلاف نحلهم وفصائلهم باظهار التضارب والتناقضات الداخلية فى بناء النظرية وروابطها . والاستناد لما آلت اليه الممارسة الفعلية . وفى رأيى الشخصى أن قيمة هذا العمل تتجاوز قيمة كتاب الفيلسوف الفرنسى جارودى « ماركسية القرن العشرين » الذى كان ايذانا بتراجعه عن الماركسية حيث انتهى باعتناق الدين الاسلامى منذ عامين ٠

لذا أقدم هذه الترجمة بغية سد نقص فى المكتبة العربية ، لاحتوائه على عرض شامل ومبوب ونقدى للقارىء العربى الذى أثقل ذهنه ذلك الكم الهائل من الكتب والأعمال الماركسية فى شتى المجالات حتى فى مجال التعامل مع التراث العربى الاسلامى وصبه فى القالب الماركسى الجاهز(١)٠ ولم يتوفر له سوى الأعمال التى تحمل ادانة مسبقة للماركسية دون تحليل علمى نقدى لها ، مما يفقدها الفاعلية والتأثير ٠

وكنت أرجو أن يكون ذلك عملا ابداعيا خالصا وذلك ما أحرص عليه وأعد القارىء به ٠

وان كان ثمة قصور فى هذه الترجمة فأرجو ألا يحجب عنى وعن القارىء الوصول للموقف النقدى الواعى الذى أرجوه ٠

سيد زهران

مارس ١٩٨٥

---

(١) أبرز مثال على محاولات تفسير التراث العربى الاسلامى وفقا للمنهج الماركسى ، محاولة طيب تيزينى « من التراث الى الثورة : حول نظرية مقترحة فى قضية التراث العربى حيث قدم صورة مشوهة للتراث بعد أن تقطعت أوصاله ليوائم المخطط الجاهز المرسوم مسبقا ، فضلا عن تضارب تحليلاته » ٠

الباب الأول

ماركس والماركسيون

الفصل الأول

اسهامات كارل ماركس

١ ـ نحو فهم ماركس :

يعتبر كارل ماركس Karl Marx واحـــدا من أهـــم الشخصيات الفعالة فى التاريخ الانسانى ، ولقد نظر اليه باعتباره الملهم لأكبر الحركات الجماهيرية عبن التاريخ الحديث، من وجهة نظـــر أولئك الذين يعتبرون أنفســهم أتباعه أو المنظمات التى أسسوها ٠

وقد تجاوزت هــذه الحــركات وتعــالت فوق الروابط القومية والعرقية والحدود القارية ، ولم يتضاءل حجم أتباع ماركس الا فى المجتمعات الانجلو سكسونية مقارنا ببــاقى بلدان العالم ، نظرا لامتداد تأثير تطبيق أفكاره فى المناطق الأخرى ، ويظهر ذلك فى انجلترا والولايات المتحدة بشكل خاص ، متمثلا فى ادانة وتجريم ماركس حتى قبل أن يقرأ، وفى الجانب الآخر قد انبعثت ديانة جــديدة تعتقد بالوهية التاريخ وبرسالة ماركس النبى الأساسى لها ٠

ولقد أدى التعقيد المتزايد وترابط الحضارة الحديثة الى جعل أفكار كارل ماركس أكثر عملية وبوجه خاص بالشكل الذى تم تأويلها به واكتسبت تأثيرا ملحــوظا على مســتقبل العــالم الانجلوسكسونى Anglo-Saxon وخصوصا الولايات المتحدة وهذا أحد الأسباب لحث أى انسان مفكر لكسب بعض

الألفة والتعود على هـذه النظريات ، وتطـورها ، وتأثيرها الحالى على الحياة السياسية المضطربة فى عصرنا ٠

فى العديد من المواقف ليس الماضى الفعلى هو الذى يحدد الحاضر الى حد بعيد الا بالقدر الذى يتصور به الناس كيف كان هذا الماضى ٠ وبالمثل مع ماقدمه المفكرون العظام من أفكار فى الماضى ٠ فان مايؤثر فى الحاضر ليس ماقاله أو كان يعنيه المفكر بالفعل بقدر ماهو الشكل الذى أول وفسر به لكى يقول أو يعنى ، يؤخذ ذلك كقـاعدة عامة باسـتثناء العلوم الطبيعية ٠ ومن بين عدد محدود من الشخصيات يصدق هـذا الرأى على ماركس أكثر من غيره فلقـد تأثرت هـذه التفاسير والتأويلات المتباينة بالحاجات والمصالح المعاصرة ، وهذا يفسر السبب فى صعوبة التأكد من المعتقدات الفعلية لشخص يدعى أنه ماركس أكثر من التـأكد من المعتقدات الفعلية لشخص يدعى أنه مسيحى ٠ ومع ذلك ، رغـم أنه صعب الا أنه ليس مستحيلا أن تحدد بمصداقية معينة ماكان ماركس يلقنـه ويعتقده بالفعل ٠ وينبغى أن تفحص أى فرضية حول المعنى الفعلى لنظرية ماركس باعتبارها فرضية حول مسألة الواقع التاريخى يتم تمحيصها بواسطة القواعد الأساسية للتحقق كما نفعل مع المشكلات والمسائل التاريخية الأخرى ٠

ويستخلص المذهب الفعلى فى حالة ماركس بصعوبة من خلال ظروف حياته ومناسبات كتاباته ٠ فهو لم يكن صاحب اهتمام أكاديمى بالأفكار لذاتها بل عنصرا ثوريا فعالا طور وقدم أفكاره فى محاولة للتأثير فى مجريات الأحداث ٠ وكان مجـادلا عنيفا ولاذعا فى هجـومه على من يتبنون مـواقف معارضة له ، يؤكد أحيانا على نقطة معينة وعنـدما تصبح هذه النقطة فى وقت لاحق غير ذى بال وتتجاوزها الأحـداث

أو تخطئها المناقشات فانه لايتورع عن تبنى نقيضها . ولايوجد أى تفسير مبوب ومرتب لكل أفكاره الأساسية وعلاقاتها ببعضها البعض . لقد كتب ماركس فى زمن لم يكن للدقة فيه قيمة كبيرة ، وعندما كانت مفاهيم الاحصاء والاحتمالات للقانون العلمى فى مرحلة المهد ، وعندما كان طموح العلوم الاجتماعية أن تصبغ ذاتها على شاكلة طبيعيات العصر . وغالبا ماتعكس مصطلحات ماركس تراثه الهيجلى . وتبدو معظم صيغه غامضة . ولقد اتهمه النقد الصادق بعدم الترابط الجلى والتناقض الداخلى لأساس نظريته، بينماتقبل المعجبون غير الناقدين له كل كلمة قالها حتى لو تناقضت معها نتائجه . ولقد تفاقمت كل هذه الصعوبات بعد أن أصبح ماركس رمزا سياسيا يثير ردود أفعال أكثر من كونه مفكرا متميزا .

٢ ـ حياته :

ولد ماركس عام ١٨١٨ فى مدينة صغيرة رينيش Rhenish بمقاطعة ترير Trir والتى تفتخر بأصولها كقاعدة رومانية مشهورة فى العصور القديمة . وينتمى بوالديه لسلسلة طويلة من حاخامات اليهود . ولأسباب اجتماعية تحول والد ماركس الى البروتستانتية Protestantism ونشأ ابنه بلا أى وعى بأنه يهودى . وبعد أن اجتاز ماركس فترة الدراسة الأولية بتفوق وتقدير ملحوظ ، التحق لفترة وجيزة بجامعة بون ثم جامعة برلين حيث أظهر تفوقا واضحا واهتماما قويا بدراسة القانون ، وفقه اللغة ، واللاهوت . وحتى اكماله لاطروحة الدكتوراه (١) كان يعمل محررا

(١) انجزها ماركس عام ١٨٤١ « الخلاف فى فلسفة الطبيعة بين ديمقرايطس وابيقور رغم استناده لمحاضرات فى تاريخ الفلسفة لهيجل الا أنه لم يتفق معه عداؤه لنزعة أبيقور=

Rhenishe Zeitung والتى سرعان ماصودرت بسبب ميولها الليبرالية الواضحة ثم تزوج ماركس عام ١٨٤٣ • وسافر الى باريس حيث انغمس فى دراسة الشـيوعية الفرنسـية والاقتصاد السياسى•• وقابل فريدريك انجلز ابان وجوده فى باريس وكونا صداقة دامت طيلة حياتهما• ولقد ساهم انجلز وهو ابن لأحد أصحاب المصانع فى صـنع أفـكار ماركس وساعده وطورها وأكسبها شعبية • وأزاح عن كاهله عبء البؤس الساحق وعن أسرته • وذهب ماركس الى بروكسل Rurssels منفيا من باريس حيث انضم الى الرابطة الشيوعية Communist League وكتب البيان الشيوعى Communist Manifesto عشـية انـدلاع ثـورة ١٨٤٨ (١) وقام بدور فعـال فى المسـاعدة على تنظيم ثورة ١٨٤٨ فى اوروبا الغربية ، ثم أبعد عن بروكسل واعتقل ، وأطلق سراحه فى ألمانيـا ، ثم أجبر على مغادرة فرنسا ثانية • وفى النهـاية وجـد ملجأه ومعتكفه السياسى فى لندن حيث قضى بقية حياته فى البحث والكتابة ، وفى تنظيم الاتحاد الدولى للعمال • وقام بنشر القليل من أعماله ابان تلك الفترة حيث نشر الجزء الأول من رأس المال Capital رغم أنه ترك النسخ الأصلية لأجـزاء عديدة منه قبيل وفاته •

ولم يحظ ماركس بالذيوع والشـهرة الا مؤخـرا ، فعنـدما مات فى ١٨٨٣ لم يهتم به وبدوره وعمله الا عدد محدود من خارج دائرة أتباعه وأنصاره السياسيين • ومما يثير الدهشة والاستغراب فشل أتباعه فى شرح تأثير حيـاة

= المادية بل أقر بفضله فى انقاذ امكانية الحرية الضرورية بالتعارض مع نزعة ديمقريطس الحتمية ووجه لوما لأبيقور لعدم ادراكه العلاقة الجدلية بين الضرورة والحرية (المترجم) •

(١) آخر الثورات الفرنسية الثلاث (١٧٨٩ ، ١٨٣٠ ، ١٨٤٨) وبالاستنادة الى أحداثها فى أعوام ٤٨ ـ ١٨٥٢ ، جسد ماركس مفهومه عن الدولة باعتبارها (الآلة الحربية القومية للرأسمال ضد العمل ـ (المترجم) •

ماركس الخاصة ونظريته على مسار المجتمع • فربما توجد حركات اشتراكية بدون كارل ماركس • ولكن تاريخها وتكوينها يحملان الطابع الذى لن يمنحه الا شخصية وأفكار ماركس •

٣ ـ تطور ماركس العقلى :

تطورت أفكار ماركس وآراؤه الذاتية عبر مسار دقيق من التطور ابان الفترة التى كانت ألمانيا فى مؤخرة دول أوروبا الغربية من الناحية الصناعية والسياسية ، وحيث كان مفكروها يتصفون بالجرأة والتطرف • ولقد وقع ماركس فى جامعة برلين تحت تأثير الفلسفة الهيجلية (١) والتى تفسر العالم باعتباره عملية ديناميكية وروحية تكشف عن ذاتها عبر تطورها كنظام عقلانى • وتعتبر أن مايحدث وما قد حدث مؤخرا فى الزمان هو الأفضل كيفا • وبالنسبة لعين الديالكتيك (الجدل) dialectic الفاحصة فان كل ماهو واقعى حقيقة قد وجد ليكون ضروريا وعقلانيا • وفى أى حقبة زمنية معينة ، ورغم المظهر الخارجى وان «الله فى سمائه ، وكل شىء فى العالم خير» • فان شرور الجزء جوهرية لاجل خير الكل المتطور • والحق يوجد فقط فى الكل المكتمل، واجتزاء منه ، فان لكل عصر حقيقته الجزئية •

يحتل الوعى الكونى أو الروح spirit لدى هيجل مكانة الله فى الدين التقليدى • ويتسم تاريخ العالم بمراحل تطوره نحو المرحلة التى تظهر فيهاالضرورات الكامنة للوجود

---

(١) تنسب الى جورج فلهلم فردريك هيجل (١٧٧٠ ـ ١٨٣١) الفيلسوف الألمانى وأحد أعظم الفلاسفة تأثيرا ، حيث خرجت معظم الفلسفات المعاصرة من تحت عباءته ، وكان لمنهجه الجدلى تأثير على فلسفة ماركس المادية الجدلية ، ويعد هيجل بحق من رواد فلسفة التاريخ (المترجم) •.

باعتبارها حرية جلية للوعى • وتشكل «روح العصر» مجمل الحضارة culture وتمنحها نمطا سائدا فى التفكير والشعور وتربط الأفكار والأحداث ، وبعـدئذ تمهد الطريق لنمط آخر تستمر خلاله وتتحول اليه • ولايمكن فهم آية ظاهرة حضارية الفهم الصحيح بدون وضعها داخل نسيجها فى اطار نمطها •

ولقد أكد «الجناح اليسارى» الهيجلى على جوهر وعامل التقدم فى فكر هيجل أكثر من منظومته ومذهبه • وبالنسبة لهم ليست الروح خالصة مطلقة أو عقلا بلا جسدا وتجريدا منطقيا ولكنها الحياة الكلية للحضارة ، والتعبير عن طاقاتها المنظمة • ولم يكونوا مقتنعين بأن لفكرة «روح العصر» ذلك التـاريخ الذاتى والمستقل وبتـأثيرها السيىء على انبثاق وازدهار وانهيار الحضارات • وبعيدا عن تفسير آية أحداث فان «روح العصر» spirit of time تبدو بذاتها وكأنهـا تتطلب مزيدا من التفسير ذلك لانها تختلف من مكان لآخـر ومن مرحلة لأخرى ، ولكونها قادرة فى قطر على القيام بعمل ما مثل الغاء العبودية ودون قدرتها على اتيان مثله فى قطر آخر •

ولقـد ساهمت ثـلاث شـخصيات بارزة من اليسـار الهيجلى (١) فى تحـرير ماركس من ربقـة المذهب الهيجلى Hegelian orthodoxy أولهم هـو ستراوس D. F. straus باعتباره الروح spirit القوة المشتركة الخلاقة للأساطير أو العقل الجمعى collective mind ، ذلك بالاشارة بشكل خاص

---

(١) حركة اليسار الهيجلى ركزت على المنهج الجدلى لاستكشاف الصيرورة وتناقضاتهـا كسلاح نقدى ضد النظام الحاضر ، ووجدت لدى هيجل الجيل تأليه الانسان ، وهى تتعارض مع « اليمين الهيجلى » الذى ركز على النظام الحاضر وتبريره • (المترجم)

الى الدين وظهور المسيحية (١) ثم برنوباور Brouno Bauer الذى خفض قيمة الروح وأرجعها الى الوعى الفردى وفسر العقيدة والاسطورة الدينية على آنهـا من ابداعات الرواة المهرة للقصص الهادفة وكان يعتقد بأنه فى أية لحظة محددة لاتزيد «روح العصر» عن كونهـا مـركب جمعى للمشاعر المتفاعلة ، ولرغبات ، وأفكار الأشخاص المفردة ، والذين يكون بعضهم أكثر موهبة ومقدرة على الاقناع من الآخرين •

واستكمل لودفيج فيورباخ (٢) Ludwig Feuerbach دائـرة هذا العمل الفكرى ، وأرجعمل «الروح» الى وجود الحاجات، الرغبات ، والنقص فى حياة الانسان • واعتبر كل الأديان العالمية والفلسفات مجـرد اسـقاط projection للحاجات الانسانية أو تعويض واشباع لها • فلايوجد خارج الطبيعة والمجتمع أى وعى أو روح • وتعتبر « الانثروبولوجيـا Anthropology (دراسة الانسان) سر اللاهـوت • فالنـاس يصنعون الآلهة فى تخيـلاتهم الأخـلاقية ، والتى تنبثق من جذور اجتماعية ونتيجة لعدد من الأسباب الفنية technical وبمثل ماهو بسبب التداعيـات الخـاطئة لمصطلح «المـادية materialism» والتى تفترض ذاتية مطلقة وعبادة اللذة، اعتبر فيورباخ نفسه ماديا وانسانيا •

---

(١) حيث كاان لكتاب ستراوس (حياة المسيح) المنشور عام ١٨٣٥ ، أثر بالغ على اليسار الهيجلى » وقادهم الى الالحاد بفصله الفلسفة عن الدين • (المترجم) •

(٢) لودفيج فيورباخ (١٨٠٤ ـ ١٨٧٢) فيلسوف ألمانى مادى خرج من تحت معطف هيجل وكان لفلسفته أثر ملحوظ على تكوين فلسفة ماركس بقلبه للنظام والنسق الهيجلى . وله تأثيرات على الفلسفة الوجودية ولا سيما (هيدجر ـ وكارس ياسبرز) وعلى النهضة المعاصرة للنزعة الهيجلية ، وعلى فلسفة الأديان ، وله اضاءات فلسفية حول مقولة الاغتراب والتى أسهمت بفاعلية فى صياغة موقف ماركس من الدين « ليس الله هو الذى خلق الانسان على صورته ، وانما الانسان هو الذى خلق الآلهة على صورته » ومن الواضـح أن نزعة التجسيد السائدة فى الفكر الغربى المسيحى أثرت على هذه النزعة المادية المضادة لها • من أعمال فيورباخ « اطروحات مؤقتة لاصلاح الفلسفة » « ماهية المسيحية » « مبادىء فلسفة المستقبل » (المترجم) •

ولقد تقبل ماركس فلسفة فيورباخ الأساسية مع بعض التعديلات الهامة ، وخاصة نقده للأديان باعتبارها اسقاطا لحاجات ومثل الانسان فى شكل محرف • ولكنه اختلف مع فيورباخ حول بعض النقاط الهامة ، مثل ان طبيعة الانسان ليست اجتماعية فقط بل تاريخية أيضا • لهذا لايمكن تفسير أية حضارة من خلال الطبيعة الانسانية فى حد ذاتها بل فقط من خلال الحاجات المحددة وغايات الانسان فى ظل الظروف التاريخية الخاصة وثانيا لم يتابع ماركس فيورباخ فى دعواه لديانة جديدة مبنية على مثال الحب ولكنه تحول مع أرنولد روج (١) Arnold Ruge وبعض الشخصيات الشابة من اليسار الهيجلى الى نقد المبادىء والمؤسسات السياسية •

ولقد اعتقد هذا اليسار الهيجلى أنه كما عبد الناس فى الماضى وقدسوا التجريدات الدينية التى تتبدى فى صورة محرفة كتعبير عن الدور الفعلى للأخلاق والمثل الاجتماعية فى خبراتهم ، بالمثل يفعل الناس الآن وخاصة فى ألمانيا فى فهمهم للتحديدات السياسية وجسدوا فكرة الدولة ، القانون ، الملكية monarchy باعتبارها مؤسسات يبرر وجودها أما اللاهوت والميتافيزيقيا أو القانون الطبيعى الأبدى • وفى الواقع ان هذه المؤسسات مجرد قوالب للقوى المنظمة فى الحياة السياسية وظهرت عند فترة تاريخية معينة لتواجه حاجات ومصالح مجموعات خاصة • وذهب ماركس أبعد من ذلك وبتحليله لسياسات عصره وصل لنتيجة مؤداها أنها ذات جذور فى صراع المصالح والتى بدورها ثمرة ونتاج

---

(١) أرنولد روج : الشخصية المحورية فى حركة الهيجليين الشبان ، تزامل مع ماركس حتى حدثت القطيعة بينهما بسبب موقف روج من دور الدولة وطبيعتها فى المجتمع الحديث ، بحث فى صياغة آراء الهيجليين الشبان فى القضايا السياسية على أساس أوسع لفلسفة الثقافة • وأعتقد أنه يمكن من تحقيق آراء ماركس الاجتماعية بالعمل السياسى العادى •
(المترجم)

للظروف المادية والاجتماعية للمجتمع وتكمن الأهمية القصوى لهذه النتيجة فى الظروف التى يعمل فى ظلها الانسان ليكسب قوته أى نمط الانتاج الاقتصادى ـ والذى يحدد الشكل الذى تخلق فيه الثروة وتوزع وهذه النظم والمبادىء الاقتصادية ليست أبدية أو طبيعية بل ذات سمة تاريخية • ولكنها كانت تسيطر على الانسان فى الماضى وكأنها قوى طبيعية قاهرة • وينبغى على الانسانية أن تحتال لحياتها الاجتماعية ومستقبلها التاريخى فى اطار وحدود الضرورة الطبيعية بدلا من الاذعان للقدرة الاقتصادية والتاريخية والتى ليست فى الواقع آكثر من نتائج لا شعورية ، وبسبب نشاطهم الجمعى غير المخطط • وبهذه الطريقة سيدرك البشر أنهم أحرار وأشخاص متطورون بشكل متناسق • ويكمن الشرط الضرورى والكافى لوجود مجتمع من الأفراد الأحرار والمتساويين فى الملكية الجماعية والادارة الديمقراطية لأدوات ووسائل الانتاج الرئيسية •

وتبعا لما يراه ماركس يمكن تحقيق الاعتاق الدينى للانسان وتحريره من المخاطر عبر التحرير السياسى له ، وهذا يستلزم بناء ثقافيا علمانيا (١) secularization مكتملا يصبح الدين فيه مجرد حالة خاصة ، ويتطلب التحرير

---

(١) علمانى : يرتبط مصطلح « العلمانية » بتاريخ الحضارة الغربية ارتباطا وثيقا نشأة ومفهوما حيث أدت طبيعة المسيحية كديانة وما تخوله لرجال الدين من سلطات الى ظهور « الاكليروس » وتحالف الكنيسة مع الاقطاع وفرض قيودهم على العلماء والمفكرين فى شتى المجالات ، وكان لمحاكم التفتيش ودورها أثر كبير فى ظهور حركة عنيفة مضادة لاقتلاع سلطاتهم مع تباشير عصر التنوير وكان ذلك بالطلاق البائن بين العلم والفلسفة والكنيسة ، ثم الفصل بين الدين والدولة وجعل أمور المجتمع وما يتعلق به من تنظيم اجتماعى وسياسى واقتصادى يرتكز على قيم وأسس دنيوية تماما غير مشتقة من الدين أو مرتبطة بالأخرويات ، وفى عالمنا العربى شاع مصلح « العلمانية » والدعوة اليه بأقلام دعاة التغريب وبشكل خاص الماركسيين دون اعتبار لخصوصية ألحضارة العربية الاسلامية وما تطرحه من ضرورة الارتكاز لثوابت التراث والمواءمة بينها وبين متغيرات العصر فضلا عن عقلانية وشمول الاسلام لقضايا المجتمع دينية ودنيوية (المترجم) •

السياسى بدوره تحريره اقتصاديا ، واخضاع مجمل القوى الاقتصادية لأجل الرفاهية العامة • والمغزى التاريخى لهذا الرأى أن حـرية الوعى التى اكتسبت ابان عصر الاصـلاح Reformation يمكن ادماجها فقط مع الحرية السياسية التى أحرزتها الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية • وستبلغ هذه الحريات درجـة قصـوى من تأكيـدها وحمايتها ، ولن يتم الغاؤها ، عندما يكون للجماعية الديمقراطية democratic collectivety قوة متزايدة لتوجيه الحياة الاقتصادية وبالمثل حياتها السياسية •

رغم أن ماركس قد أضاف لفلسفته بعض المبادىء التى تهدد شموليتها ، الا أنه لم يتخل عنها مطلقا ، على الأقل فى عقله هـو ، كوجهـة نظره حول الانسـانية الديمقراطية والطبيعية • فلقد كان لديه اعتقاد جـارف بسـمو مكانة الانسان • ويتمثل ذلك فى نضال المرء لقهر قدره وعـدم خضوعه لمعتقدات الكنيسة وطغيان الدولة ، والعمل الغشوم للمؤسسات والقوانين الاقتصادية ، أو قرارات الأحـزاب السياسية •

ولقد كان ماركس بروميثوس المزاج (١) promethean وكانت تقاليده العقلية اغريقية وعلمية أكثر منها وسيطة medieval وأدبية ، ومثاله الأخلاقى هو مجتمعا يكون فيـه «التطور الحـر لكل فـرد شرطا لتطـور الكل وفى النهاية فالمحرك لكل القوانين والمؤسسات هو مـدى ماتوفـره من امكانيات لكل الأشخاص لتنمية ذاتيتهم انماء كاملا حرا ».

---

(١) بروميثوس : أحد الآلهة الاسطورية عند الاغريق وينسب له سرقة النار وتعليم البشر استعمالها وفى تاريخ الأدب والفكر يستخدم كرمز للابداع والابتكار والجرأة على تحطيم المألوف من العادات والتقاليد والوضع القائم (المترجم) •

ويميز هذا الاعتقاد فى الحرية ، المساواة ، والشخصية الفـــردية ويفترق به ماركس جـذريا عن كل الشـمـوليين totalitarians الذين استشهدوا باسمه واستظلوا بمظلته . (راجع الاقتباس رقم ١) .

٤ ـ الاشتراكية :

تحول ماركس للاعتقاد وتقبل الاشتراكية قبل أن ينجز ويخرج النظريات التى ارتبط بها اسمه . ولقــد اتخــذت نظرياته صـيغتها ابان تفكيره فى الشروط التى فى ظلها ، والوسائل التى يمكن نجاح الثورة الاشتراكية ويمكن اقامة الاشتراكية . فمصطلح الاشتراكية كان يســتخدم فى أيام ماركس استخدامات متنوعة . أكثرها شيوعا مايعنى به نظام اجتماعى تكون فيه أدوات ووســائل الانتــاج الرئيســية والتوزيع ، والتبادل exchange ملكية عامة common property مع بقاء أدوات الاســتعمال الشخصى والاســتهلاك والملكية الشخصية ، ملكية خاصة . فمتى تكون الملكية عامة ؟ ومتى تكون ملكية دولة ؟ فى هذه الحالة ينبغى أن يطلق على الطغاة المصريين القدماء والدول الاستبدادية الشرقية فى العصور الماضية والتى كانت الدولة تمتلك أو تتحكم بشكل مطلق فى وسائل الانتاج القائمة ، ينبغى أن يطلق عليهــا مجتمعات اشتراكية . وهل تصــبح الملكية عامة عنــدما يتم تأميمها nationalized عــلى أيدى أية حكومة ؟ فى هــذه الحــالة ســيصبح فى الامكان اســتغلال أولئــك الذين يعملون فى المؤسسات الصــناعية المؤممــة كغــيرهم الذين يعمــلون فى المؤسسات الصناعية الأخرى ، فعلى سبيل المثال يمكن انتقال ملكية السكك الحديدية من ملكية خاصة الى ملكية عامة بدون احــداث أى تغيير فى عدد ســاعات عمل العمال وظــروف

العمل ، وحوافز العمل حتى انه قد يصبح فى ظل ظروف معينة أسوأ حالا فقد يتم حرمانهم من حق الاضراب عن العمل بموجب قرارات الحكومة فى الواقع يذعنون للعمل الاجبارى .

ولهذا فان أكثر التعريفات وضوحا وشمولا للاشتراكية هو المجتمع الذى توجد فيه ملكية عامة وديمقراطية لوسائل الانتاج . وفعالية وقوة «الديمقراطية» هنا أخلاقية . فهى تشير الى العملية التى يتم بها صنع القرارات ، والغايات التى تتوجه اليها هذه العملية ، اختيار واعداد المهام الاجتماعية وتكامل الأعمال النافعة للمجتمع فى التعليم وتأثير التعليم على العمل والانتاج ، وفوق كل هذا الشعور والمسئولية القصوى لأولئك الذين يشرعون ويسنون القوانين للمجتمع سواء فى الشئون السياسية أو الاقتصادية ، ويستلزم الاعتقاد فى الاشتراكية كما تصورها ماركس وبعض الاشتراكيين الطوباويين utopian socialists الاعتقاد فى مايعتبر اليوم ديمقراطية اخائية Fraternal democracy اهتمام متساو من جانب المجتمع تجاه كل مواطنيه ، بالاضافة لحقوق متساوية وصلاحيات أساسية لتحديد من قد يحكم أو يدير أمر المجتمع . وبدون مثل هذا الاعتقاد المعبر عنه فى الممارسات الأساسية ، فلم يكن بالامكان التمييز والتفرقة بين مجتمع جماعى حر collective free Society ومجتمع جماعى عبودى collective slave

لقد اعتقد ماركس أن ماهو مقبول وممكن تاريخيا يمكن تحديده بشكل مميز فقط عندما يكون مرتبطا بالواقع الفعلى . وان بزوغ عصر الاشتراكية يعتمد على النشوء التدريجى للشروط الموضوعية لقيامها . وهذه الشروط ترتبط ارتباطا وثيقا بتطور النظام الاقتصادى . فالانسان

ذو سلطة مطلقة فقط فى أحــلامه • ولايمكنه التحكم فى الطبيعة. الا عن طريق اخضاع أدواتها واعادة صياغة المجتمع باستخدام المواد التى يزوده ويمده بها المجتمع •

ولقد أطلق ماركس على نفسه «اشتراكيا علميا» (١) scientific socialist كتمييز عن «الاشتراكيين الطوبائيين» ولقــد اتصف هــو ذاته بالاشــتراكية الطوباوية ومن خلال بعض الأوجــه كان كذلك ولكنه من خــلال « اشــتراكيته العلمية» كان لايعنى فقط أنه قادر على اعطاء أسباب معقولة وكافية لدفاعه وتأييده للاشتراكية بل أيضا كان يعنى أنه يعــرف كيف ومتى وفى ظــــل آية شروط يمــكن ادراك الاشتراكية وخصوصا كيف يمكن آن تساعد به فى العــالم عندما تعلن حضورها ووجودها كامكانية تاريخية .

وأدى هــذا الاهتمام بالنظــرية والممــارسة للثــورة الاشــتراكية ، وبالوســائل وشروطها ، وقــاد ماركس الى افتراض والتسليم بالغايات الديمقراطية للاشتراكية لدرجة فشله أن يضع فى الاعتبار ملاءمة هذه الوسائل والشروط لما قد افترض أن يلزم عنها • ولقد تم تصــور الاشتراكية باعتبارها نظاما اقتصاديا عقلانيا مخططا يتم فى ظله حل جميع المشاكل الاجتماعية والأخلاقية تلقائيا • أما ماركس فقد هزأ وسخر بتلك الكتابات الهامشية السابقة له والمليئة

---

(١) من المفارقات التاريخية فى تاريخ الماركسية تحول مصطلح الاشتراكية العلمية الذى استخدمه ماركس ليضفى به على أطروحات الاشتراكية صفة المنهج العلمى واكسابهـا مسحة واقعية تمييزا لها عن المحاولات الخيالية التى تدور فى فلك المدن الفاضلة ، تحوله الى تعويذة وقناع يستخدمه الشيوعيون وخصوصا فى عالمنا العربى وأداة لاحتكار صفـة « العلمية » حتى عندما يكون البرنامج الشيوعى « أكثر بعدا عن قضايا الواقع وما يطرحه من حلول سواء من ناحية الدراسة العلمية والتكوين الطبقى أو الاطار الحضارى والمعرفى ، وذلك اخفاء للعجز وتبريرا لاسقاط القوالب النظرية الجاهزة على واقع يرفضها ، وتلج أدبيات الحركة الماركسية العربية بهذا اللون من الخداع والتمويه النظرى حتى أصبح مصطلح الاشتراكية العلمية وكأنه يشير فقط للشيوعية • (المترجم)

بتخيلات وتفاصيل مملة وفجة تتعلق باشتراكية المستقبل ، وافترض ويروح واثقة مفعمة بتفاؤل جارف من القرن التاسع عشر مشوب بمسحة حزن هيجلي ان المستقبل سيتولى أمر ذاته ، وان المجتمع والأحداث ستصنع وتعيد صياغة رجال أفضل • ورغم اعجاب وتقدير ماركس للانسان باعتباره مخلوقا فعالا ، لم يدخل في اعتباره أبعاد العمق والتعقيد الانساني • وافتقد ماركس هنا رؤية الحدس والكشف الهيجلي بأن هناك عنصرا تراجيديا في كل تجربة انسانية في عالم متطور • وبرغم ذلك ، حتى لو ثار الملائكة في مدينة الله فمن هو الذى بامكانه التأكد من السلوك الانساني في مدينة الانسان ؟

٥ ـ المادية التاريخية :

لقد تعلم ماركس من هيجل والدراسات النقدية لفلسفة القانون الهيجلية ، ان ثقافة مرحلة ما تكون ذات علاقة متبادلة وتختلف وتتميز عن ثقافة مرحلة أخرى عبر الطابع أو الأسلوب السائد والمهيمن عليها أو مجموعة القيم التى تتخلل قسماتها وتصطبغ بها وتعبيراتها الأساسية • وانشغل بالبحث عن المدخل والمفتاح لمنظومة بنائها وتطورها والذى سيفسر ، مثلا ، لماذا تختلف حضارة العصور الوسطى عن حضارة القرن التاسع عشر ، وكيف نشأت وازدهرت ثم زالت واختفت • وكانت نظرية المادية التاريخية هى اجابة ماركس لهذا التساؤل (اقرأ النص رقم ٢) •

كان ماركس يعنى بالمفهوم المادى ، materialistic للتاريخ ، النظرية التى تسعى لتفسير التاريخ بالقوانين التجريدية والتى يمكن التحقق من موضوعاتها ومحمولاتها predictons and descriptions من حيث المبدأ بملاحظة

سلوك البشر ، الأشياء والقوانين التى تربط بينهم • ومنكرا ملاءمة النظريات الفيزيائية والعــرقية والسيكولوجية أكد بوضوح أن البناء الاقتصادى للمجتمع وتغيراته هو المتغير المستقل independent variable والذى يعتبر كل التغيرات الحضارية الأخرى دالة له function أو بمزيد من التبسيط ، فان البناء الاقتصادى للمجتمع هو الذى يحدد ويقرر حيــاة أى مجتمع عبر التاريخ فهو «الاســاس» أو «القاعدة» كلما تغير ، يحمل معه مجمل حضارة المجتمع معــه ان آجــلا او عاجلا • وربما يتأثر مجراه بشــكل ما بالملامح الحضــاريه الأخرى ولكن لاينحرف أبدا عنه بشكل حاد • ويكون تغيره تدريجيا فى معظم الأحوال ، ولكن فى أوقات معينة يكون فجائيا • ويشار الى نظرية المادية التاريخية أحيانا باعتبارها تفسيرا اقتصاديا للتاريخ • ولكن هناك تفسيرات اقتصادية متعددة ولايمكن عزوها أو نســبها كلهــا الى ماركس رغم التباس وغموض لغته •

ولمزيد من الفهم ، ينبغى ايضاح فكرتين •

١ ــ ما الذى يعنيه ماركس بالمصطلح «اقتصادى» economic

٢ ــ مامعنى تأكيده بأن العامل الاقتصادى أو أى عامل ، يحدد حضارة مجتمع معين ، أو أنه الأكثر أهمية أو السبب «الجوهرى» أو «الأســاس» أو تحليل وتشريح مجتمع معين ؟

فقط عندما تكتسب هذه الأفكار معنى مترابطا يمكننا القول ما اذا كانت القضايا الأساسية التى تحتويها صــادقة أم كاذبة ، والى أى درجة • ومن وجهة نظر بعض النقاد أن نظرية ماركس غير ذى معنى ومجرد هراء ــ ليست نظرية بأية حال ، وبالنسبة لآخرين ، تبدو زائفة تماما وبوضوح ،

وتظل بالنسبة للبعض من بينهم الكاتب نفسه ، فرضية واضحة ومفهومة hypothesis تفسر بعض الأشياء تفسيرا معقولا ولكنها تفشل فى تفسير البعض الآخر وبالنسبة لمعظم أتباعه ومريديه الأصفياء ، تبدو النظرية من ناحية أخرى صادقة بصرف النظر عما تعنيه ٠

١ ـ يستخدم المصطلح «اقتصادى» بأربعة معان متميزة على الأقل :

(أ) يستخدم أحيانا لوصف وتمييز دوافع مثل الرغبة فى الثروة أو المال ، أو المكانة الاجتماعية أو السلطة التى تتيحها الثروة أو المال «فالمصالح الاقتصادية» تفترض مسبقا وجود مثل هذه الدوافع حتى لو لم تكن واضحة ٠

(ب) ويشير أحيانا الى وجود أو عدم وجود الأرض والمواد الخام مثل الحديد ، الفحم ، البترول ، والضرورية للانتاج ٠

(جـ) وفى الغالب الأعم يشير الى التقنيات ، القوى ، وطاقات الانتاج ، متضمنا ليس فقط الأدوات والوسائل بل المعرفة والمهارات أيضا ٠

(د) ويعنى فى النهاية ما أسماه ماركس نمط الانتاج الاقتصادى أو العلاقات الاجتماعية للانتاج ٠ وهذه هى القواعد الاساسية أو العمليات التى تتحكم فى انتاج وتوزيع الثروة مثل النظام العبودى slavery ، الاقطاعى feudalism الرأسمالى capitalism والاشتراكى socialism

وهناك قدر كبير من التشويش يتعلق بمعانى المصطلح «اقتصادى» خصوصا معنى نمط الانتاج أو العلاقات الاجتماعية للانتاج · ولقد اعتبره بعض النقاد كقدر من الميتافيزيقا الملغزة صيغت لتحجب وتخفى افتقاد التفكير الواضح من جانب ماركس · فنمط الانتاج ليس شيئا سيكولوجيا مثل الدافع الاقتصادى أو فيزيائيا مثل ظروف وقوى الانتاج · فما هو اذن ؟ يوجد مفتاح الحل فيما كان يسميه ماركس أحيانا «علاقات الملكية» property relations باعتبارها «تعبير قانونى» legal expression عن علاقات الانتاج · ويشير هذا على أنها ليست مجتزأة من العلاقات السيكولوجية ولا الفيزيائية ، رغم أنه بدون وجود العلاقات الفيزيائية لايمكن وجود علاقات الانتاج ·

فلماذا لم يتحدث ماركس اذن عن العلاقات القانونية للانتاج أو ببساطة عن علاقات الملكية كعامل أساسى محدد للحضارة ؟ لأنه كان مهتما بتفسير طابع وتطور مجمل المركب الثقافى باعتباره محصلة لعلاقات الانتاج · ويتضمن هذا المركب الثقافى الرموز القانونية legal codes والتشريع اليومى ، وقرارات المحاكم والتى نصنفها عادة مثل قوانين ثقافة وحضارة · ولكن لايمكن تقرير تحديد وجود نظام كالعبودى أو الاقطاعى أو الرأسمالى من خلال المعنى العادى للمصطلح فهناك تنظيمات أساسية تتحكم فى أنشطة البشر فى انتاج وتوزيع الثروة دون الاعتماد على قانون صريح بل على العادات والأعراف الأساسية والتى قد تطورت للدرجة التى تبدو عندها اجتماعية بشكل طبيعى · وعلى سبيل المثال فالقانون الفرنسى والانجليزى مختلفان تماما ، رغم أن كليهما رأسمالى ويعنى ماركس بوصفهما بالرأسمالية أن النظام السائد للانتاج هو انتاج السلع للسوق بتوظيف عمال

هم شكليا أحرار فى أن يعملوا أولا ، ولكنهم لايملكون وسائل الانتاج التى يستخدمونها • وتنتج هذه السلع بغرض «الربح» لأولئك الذين يملكون وسائل الانتاج وليس لاستعمال أولئك الذين ينتجونها • وحالما يصبح الانتاج غير مربح يتوقف على الفور • ولهذا فان السعى وراء الربح والبحث الأبدى المتجدد عنه هو الذى يقود ، تبعا لرأى ماركس ، الى التوسع فى انتاج السلعة •

ويختلف هذا النمط الرأسمالى للانتاج بوضوح عن العبودى ، الاقطاعى ، والاشتراكي وقد يطلق المرء على هذه الأنماط للانتاج علاقات قانونية •.وعندئذ ينبغى تمييزها عن مجموعات القوانين ، والتى تتحدد وتقرر هى وملامح المركب الثقافى الأخرى عن طريق العلاقات القانونية الأساسية •

لو سمح لكل نمط انتاج اقتصادى أن يتطور مستقلا فانه سينمو وفقا لقوانين معينة مشابهة لتطور أى كائن عضوى من بذرة • وبلغة ومنطق تنظيمها وتطورها فان التغيرات الرئيسية للثقافة والحضارة فى حاجة للتفسير • فعلى سبيل المثال ووفقا لهذا الرأى ، فان فى قوى وتقنيات الانتاج وبنفس المنوال التغيرات فى المعدل الاحصائى للطاقة لايتطور بشكل مستقل وينبغى أن يعزا وينسب التأثير المنسوب غالبا للتكنولوجيا technology الى عمل نمط الانتاج الاقتصادى• وهكذا فانماركس سينكر ان التقنية الاقتصادية هى التى أنتجت آثار ومظاهر مثل الاحتكارات والبطالة • بل هذه نتائج لاستخدام مثل هذه التقنيات فى أى نظام اقتصادى مكرس لتحقيق وطلب الربح الخاص • والانسان كما هو مؤكد حيوان مخترع أما ماركس فقد عرفه بعد

بنيامين فرانكلين Benjamin Franklin على أنه حيوان صانع للآلة • ولقد ادعى ماركس أنه آيا كانت اختراعات الانسان والشكل الذى اتخذته سواء لاهـوتيا أو تكنولوجيـا ، فان مايحددها فى الأساس هو نظام الانتاج الذى يعيش الانسان فى ظله ، والصراع ، والقيم ، والانتمـاءات التى تتطـور نتيجة له •

أصبح من الواضح ، اذن أن المـادية التاريخية ليست نظرية تكنولوجية للتاريخ بحيث تصبح قوى الانتاج وكأنها القوى المحركة للتغير الاجتماعى وغالبا مايتحدث العديد من الماركسيين وانجلز ذاته عن قوى الانتاج باعتبارها قـوى محددة للتاريخ ، بل سقط ماركس نفسه مرارا فى مثل هذه التعبيرات • ولكن كل من يؤكـد أن الوســائل والأدوات والتقنيات هما العامل النهائى المحدد للتاريخ ، سواء كان ماركسيا أم لا ، فمن الممكن اثبات أخطائه وعلى سبيل المثال لو أخذ فى الاعتبار عمل تنقيبى يقوم به المرء :

١ ــ لنفسه

٢ ــ أو باعتباره عبدا أو قنا •

٣ ــ كمشارك ومساهم •

٤ ــ أو مقابل الأجر الذى يدفع له من صــاحب العمل الخاص •

٥ ــ أو مقابل الأجر الذى يقدمه له المجتمع •

وهو قد يعمل بمفرده فى كل حـالة وباستخدام نفس المجموعة من الأدوات • ولكن فى كل حالة من الحالات السابقة يوضح لنا نمطا انتاجيا مختلفا • لانه فى ظل شروط تاريخية محددة سيقوده نمط انتـاجي معين لإســتخدام أدوات ذات

مستوى عالى التطور وأرقى من المعول والمجراف البسيط وهذا لايغير من الحقيقة السالفة بل يؤكدها · حيث سيوضح لنا أن التطور التكنولوجى يعلل بالتغيرات فى نمط الانتاج · والتى تحدث بمرور الوقت نتيجة للسعى وطلب سلع أفضل ·

ولقد اقتنع ماركس بأن التقنيات والعمليات الصناعية المستخدمة فى نمط الانتاج هى نتائج حاجاته الانتقائية · وادعى ماركس بهذا الخصوص ، ان نمط الانتاج مثله كأى كائن حى لايستخدم كل شىء يحوى غذاء بل مايمكن لبنائه الداخلى أن يستوعبه · والاكتشافات فى العلوم ، والتى تتلقى أكبر دافع وحافز لها فى ظل الرأسمالية ، ربما يكون لها نتائج اقتصادية ، ولكنها تستخدم فقط فى الانتاج لو كانت متلائمة مع النمط الربحى الذى يعد علامة مميزة للنظام · لكن من الواضح أن العديد من الاكتشافات العلمية قد طبقت تكنولوجيا من أجل الحرب ، بصرف النظر عن تكاليفها وبدون فائدة أو ربح ، لذا كان ماركس مجبرا على تفسير الحرب كما لو أنها دائما نتيجة لنمط الانتاج القائم واندلاعها لحماية هذا النظام · ومن الطبيعى أن تتزايد وتنخفض حركة البحث والتطبيق التكنولوجى تبعا لدورة ودولاب العمل وليس العكس بالعكس · آليا (١) machinery كتب ماركس ذات مرة «ليس هناك آية مقولة اقتصادية أفضل من الثور الذى يجر المحراث فهو فقط القوة الانتاجية» ·

وماكان ماركس يعنيه هو أن تاريخ السياسة ، وتاريخ الفن ، الدين ، والعلم ليست مستقلة بل ملامح مختلفة لتاريخ

---

(١) يقصد المؤلف بـ « آليا » حالة انتحال ماركس لوجهة النظر القائلة بأن الوسائل والأدوات هى العامل النهائى المحدد للتاريخ · (المترجم) ·

المجتمع الذى هو أساسا تاريخ الطرائق التى بها يكسب البشر معاشهم . وهو يدفع بهذه الفكرة للقدر الذى يؤكد أن الانسان الذى يصنع التاريخ ليس له أية طبيعة انسانية أصيلة original human nature فطبيعة الانسان محدودة ببنائه وتركيبه البيولوجى ، ولكن قد تتخذ نشاطاته البيلوجية صيغا متعددة لا محدودة اعتمادا على المجتمع الذى يعيش فيه . ولقد أنكر ماركس اعتبار الانسان ذاتا أنانية تدور حول اللذة egoistic hedcnist كما ذهب هوبز Hobbes وبنتام Bentham وشترنر (١) Stirner ورفض «الانسان الاقتصادى» للاقتصاد السياسى المعاصر كطابع انسانى خالد. فالانسان الاقتصادى لم يوجد عند الاغريقGREEK أو العصور الوسيطة . ورغم محدودية الانسان الا أنه مخلوق معقد ، أنانى أو غير أنانى ، جشع ومتعاون ، شجاع ، وخانع . ولكن سيادة مجموعة واحدة من الدوافع فى أى وقت معين على مجموعة أخرى ، والتى يمكن استنتاجها من معايير ماهو مستحسن أو مستهجن اجتماعيا ، يعتقد ماركس آنها لاتفسر من خلال طبيعة الانسان الأصيلة بل آساسا عن طريق البناء الاقتصادى للمجتمع . وبالتالى ، رغم آن دوافع المرء البيولوجية تعتبر ثابتة نسبيا طالما أنها تنبثق من المرتبة الحيوانية ، الا آن بواعثها وغاياتها تختلف فى المجتمع الاقطاعى عما تكون عليه فى المجتمع الرآسمالى وعما تكون عليه فى المجتمع الاشتراكى . وسوف تتبوآ الصدارة ملامح مختلفة للطبيعة الانسانية حتى فى نفس المجتمع عند مراحل مختلفة من تطوره الاقتصادى ففى المراحل المبكرة للرأسمالية ــ ونظرا للحاجة لتراكم رأس المال ــ فان الاعتدال والتوفير

---

(١) ماكس شترنر (١٨٠٦ ـ ١٨٥٦) اسمه الحقيقى جوهان شميث ، مفكر ألمانى فوضوى دعا للفردية المطلقة من أهم أعماله « الفرد وملكيته » .

وعدم الاسراف يعتبران فضـائل اجتماعية ، وعندما دخلت الرأسمالية فيما بعد طور الانحطـاط وأصبح من المطلوب استهلاك متزايد للاحتفاظ بدوران عجلة الانتاج ، أدينت تلك الفضائل السابقة واعتبرت بخلا وتقطيرا وامساكا ٠

٢ ـ قبل أن نفكر ونمحص مصـداقية وفعالية هـذه الادعاءات الضخمة حول التـأثير الواسـع لنمط الانتـاج الاقتصادى ، ينبغى أن نجـدد مايعنيه ماركس بتأكيده أن نمط الانتاج الاقتصادى هو العامل الحاسم أو الجوهرى أو الأكثر أهمية فى التاريخ ٠ وانه يلعب دورا لاينكره أحـد ولا يلعبه أى شىء غيره ٠ فالسؤال هو : الى أى مـدى يكون نمط الانتاج عاملا حاسما أو جوهريا أو أكثر أهمية ؟

ففى العلم النظـرى لاتوجـد تعبيرات من قبيل العلل «الرئيسية» ٠ «الجوهرية» أو الأكثر أهمية» ، ولكن حيثما يعمل الانسان أو يعد للعمل ، فانه لا مفر من مثـل هـذه التعبيرات لانها تشير الى ماينبغى تغييره والى أى درجة ، أو ما الذى كان ينبغى أن يتغير ، للحصـول على نتيجة معينة ٠ سيكون من العبث أن نتساءل : ما هـو السبب الرئيسى أو الأكثر أهمية لوظيفية وفعالية الجسم ؟أو ليس مضحكا أن نسأل ماهو السبب الأساسى لمرض السل ، أو سرطان الرئة ، أو التدهور لدرجة الموت ٠ وفى أى مرحلة تاريخيـة وفى أى وقت معين يتفاعل عدد لانهائى من العوامل الاجتماعية مع بعضها البعض ٠ وبتناولها معا فانها تفسر من قبيل تحصيل الحاصل مايحدث فى النظام الاجتماعى ٠ ولكن بعض الأشياء ذات وزن أكثر من الأخرى فى تفسير بعض النتائج الجزئية لنقص فعالية النظام ككل ٠ ومايعنيه ماركس هو لو قمنا بعمل قائمة للأحـداث البـارزة في التاريخ الانسـانى أو

القسمات والملامح البارزة لأى مجتمع ستكشف اى دراسة تجريبية لنا فى الغالبية العظمى ان لم يكن فى كل حالة ينبغى أن ننسب الثقل الأكبر فى تفسيرنا الى ماكان يطلق عليه نمط الانتاج الاقتصادى ·

يفسر ماركس أحيانا ويؤول باعتباره ويؤكد ان كل شيء فى المجتمع والتاريخ هو نتاج تطور العلاقات الانتاجية وسيصبح هذا غير ذى معنى من الناحية البنائية syntactically لانه يجعل من المستحيل التمييز بين الاقتصاد وأى شيء آخر · فلو أن حدوث الرمز س (x) يعلل التغير فى الرمز ص (y) فان الناتج لايمكن تفسيره كليا فى حدود الرمز س · فربما تسببت آشعة الشمس فى انصهار قطعة من الشمع ، ولكن ما لم تكن قطعة الشمع موجودة أينما وعندما بزغت أشعة الشمس ، وبدون الصفات الذاتية المميزة للشمع ، أو لو كانت مجرد حجر ، فان انصهارها لم يكن ليحدث وأيا كان نمط الانتاج الاقتصادى فى الوقت الذى يوجد فيه فانه لايستطيع أن يخلق أو يحدد كليا شكل وطابع التقاليد السابقة والتى يؤثر فيها أو سمات الناس الذين يتأثرون به · ولو أن تغييرات نمط الانتاج تحدد التغير فى قانون ، وسياسة وعلم ، وفن ودين وفلسفة المرحلة ، فانها لاتخلق صيغ هذه الخبرات وأشكالها · وربما كان لها فى الواقع هذا التأثير العميق على التغير فى نمط الانتاج الاقتصادى · والبحث التجريبى فقط هو الذى سيخبرنا أيهما هو الذى يستهل وله الأولوية فى عملية التغير ·

ومن الممكن اذن أن نوضح رغم استخدام اللغة الغامضة والمبهمة والبلاغية فان ماركس قد أدرك ووعى وفهم ولكن هل كانت عملية فهمه وادراكه جيدة ؟ سنعود لهذا السؤال فى الفصل القادم ·

٦ ـ التطور الاجتماعي :

يعتبر التغير ظاهرة محيرة ويبدو هذا أكثر وضوحا في شئون البشر أكثر منه في أى مكان آخر • فتبعا لتأثير هيجل Hegel من ناحية ، وتأثير النظرية التطورية الانثروبولوجية Anthropological للويس مورجان Morgan من ناحية أخرى (والتى تعتبر الآن ذات قيمة تاريخية) تصـــور ماركس أن تعاقب وتتابع المجتمعات تبعا لنمط محدد ومتصل من البسيط الى المعقد ، وخصوصا من ناحية تركيبها الاقتصادى ويعتبر كل مجتمع من زاوية بنائه الاقتصادى المتسم بالاتجـــاه نحو وسائل وقوى الانتاج • فبعض المجتمعات تستثمر انتاجيتها وذات انتاجية نشطة في حين أن البعض الآخر ليس كذلك • ووفقا لما يراه ماركس فان كل مجتمع سيصل للنقطـــة التى عندها يعوق البناء الاقتصادى القائم ويعرقل التوظيف الكامل لقوى الانتاج الموجودة فى ظله ، وذلك فى حالة عدم كونه مجتمعا اشتراكيا ، ولاينصب الحديث هنا عن ايجاد وتحقيق امكانيات قوى انتاجية جديدة • وبالوصول لهذه الحالة فان جموعا ضـــخمة من البشر ســـتعانى من العـــوز والحـــاجة • وسيكون أمام هـــذه الطبقات الكثير الذين سيكسبوه وينالوه بازالة العوائق والقيـــود التى قيـــدت وكبلت بها القـــوى الانتاجية وستصبح من الوجهـــة الســـياسية طبقات ثورية وسيولد فى نفس الوقت زخم نظام اجتماعى جديد • ويتم اطلاق قوى الانتاج بمجرد أن تبـــدأ قوى الحـــركة الداخلية للبناء الاقتصادى الجديد فى الدوران والعمل • من الواضح أن ماركس يتصور مخططا يعتقد أنه الحقيقى لمجمل التاريخ فيما عدا المجتمع البدائى والمجتمع الاشتراكى ، والذى يبدو أنه ينطبق على القرن التاسع عندما آدت زيادة ومضـــاعفة الانتاج السلعى الى اغلاق المؤسسات الصناعية ومعاناة الناس

من الفاقة والجوع فى خضم الوفرة الهائلة (راجع النصين ١ ، ورقم ٤) ٠

ولقد وضع ماركس بهذا الخصوص فرضيتين لهما أهمية قصوى فيما بعد ٠ الأولى هى «لايوجد أى نظام اجتماعى قد فنى وتلاشى أبدا قبل القوى الانتاجية التى تعتبر بالنسبة له بمثابة الحجرة التى تطوروازدهر داخل جدرانها «والثانية» لن تظهر علاقات انتاج أرقى الا بعد نضج الشروط المادية لوجودها فى رحم المجتمع القديم ذاته (قوى الانتاج المهارات ـ التقنيات» » ٠ تؤكد هذه العبارات على الاستمرارية والتواصل الاقتصادى للمجتمع وتنكر تجاوزه وتخطيه لمرحلة أخرى بدون المرور بتلك الوسيطة بينهما ٠

٧ ـ الصراعات الطبقية :

البشر هم الذين يصنعون التاريخ وليست القوى الاقتصادية والاجتماعية الموضوعية المتكونة من الماضى ٠ فهى تسجل فقط نتائج ماقام به البشر من قبل ٠ ولكن الجيل الموجود على قيد الحياة يواجهها فى شكل عادات ، وقواعد ، وعلاقات شرعية والتى تعتبر من آحد الجوانب مستقلة عن ارادتهم ومهيمنة عليها كقوى الطبيعة ٠ فنحن لانولد ذوى بشرة بيضاء أو سوداء فقط بل أيضا فى مستويات عليا أو دنيا من الوسط الاجتماعى ، ونولد بهذه الجنسية أو تلك وارثين للايمان بديانة أو بأخرى ٠

فالمخلوقات البشرية تنتمى لعدد غير محدود من الطبقات والجنسيات ، الأديان ، الأجناس ، المهن ٠ولكن عندما يستخدم ماركس المصطلح «طبقة» يشير مبدئيا الى مجموعة اقتصادية محددة ومعروفة بموقعها فى عملية الانتاج ٠ العبد أو

السيد ، القن أو الاقطاعى العامل أو الرأسمالى • وحيثما توجد الملكية الخاصة لوسائل الانتاج يوجد تناقض موضوعى فى المصالح بين الطبقات مرتبطا بتوزيع وتقسيم ثمار وناتج الانتاج • وبمرور الوقت يصبح هذا التناقض حادا وخطيرا وينفجر فى صراع واضح صريح • وآيا كان هذا الصراع كامنا أم علنيا فانه يمارس تأثيره الشامل على سلوك الأفراد فى معظم تكتلاتهم وتجمعاتهم الطبقية •

ويمكن ايجاد كثير من التعبيرات والدلائل الواضحة البارزة عن الصراع الطبقى فى السياسة والتى يعتبر الاقتصاد مفتاحا رئيسيا لها كما يدعى ماركس • وخلف وتحت صراع الشعارات السياسية والمبادىء والشخصيات يكمن دائما ضغط متواصل للمصالح الاقتصادية المتصارعة • وتزداد حدة وشدة الصراع ، ويعد العديد من التسويات الصعبة compromises ينتهى الصراع بانتصار آحد الطبقات المتصارعة • اقترح ماركس فى البيان الشيوعى communist manifesto ان الصراع قد يقود أحيانا الى هلاك طرفيه ولكنه لم يطور هذا الافتراض الذى لايتوافق مع الخطوط الرئيسية لتفكيره •

(راجع النص رقم ١)

٨ ـ نظرية الدولة :

رغم أن الصراعات الطبقية تنشأ آساسا بسبب صراع المصالح الاقتصادية الا آنها أيضا صراعات سياسية • تظل قوة الدولة القائمة بعيدة عن مسرح الصراع دائما ، ولكنها على أهمية الاستعداد للتدخل وينبغى أن يوضع ذلك فى الحسبان • وقد تكتسب العلاقات السائدة للملكية قوةالتقاليد

والاستعمال المألوف واعتبارها ، ولكن حينما تواجه باعتراض وتحدى حقيقى فانها تعتمد على اجراءات اقتصادية وسلطة لتدعيمها • ويتم حسم النزاعات المتعلقة بالمسائل الاقتصادية بوسائل الدولة وليس عن طريق المفاوضات العادية • وكما عرف ماركس فان الدولة تتميز عن الحكومة • فالدولة تتكون من هذه المؤسسات — المحاكم ، الشرطة ، الجيش — وربما لاتصبح الطبقة المسيطرة اقتصاديا هى الطبقة المسيطرة سياسيا فى أى مرحلة ، ولكن مالم تصبح كذلك فان مصالحها الاقتصادية وفعالية المجتمع ككل ستصبح هدفا للاحباط والفشل المستمر • وعندما يشتد الصراع ويتأجج تظهر الدولة صراحة على مسرح الأحداث باعتبارها هيئة تنفيذية executive committee للطبقة المسيطرة والحاكمة • فمن الضرورى استيلاء الطبقة الجديدة عليها ، ومن جانبها تبدأ فى خلع أردية الاطراء على الدولة والباسها مسوح الحياد وجعلها وكأنها فوق الصراع والمعارك أو كأنها أداة لتحقيق الصالح العام •

وعبر تاريخ البشرية ومنذ انهيار المجتمع البدائى وحتى وقتنا الحاضر وصف نمط الصراع الطبقى ووصف دور الدولة فى هذا الصراع بشكل واضح • وتبعا لوجهة النظر التى يشارك فيها كثير من اشتراكيى القرن التاسععشر فان الدولة أكبر من كونها أداة ادارية ضرورية لرعاية الحاجات الضرورية للمجتمع والاهتمام بها • انها جهاز القهر الماثل للناظرين على هيئة كيانات منفصلة لرجال مسلحين يقفون خارج اطار الجمع الشعبى ولن تختفى الدولة قبل اختفاء الاستغلال الاقتصادى للانسان بواسطة الآخرين ، وذلك الاستقلال الذى يعتبر مصدرا لكل أشكال الاستغلال كما يرى ماركس • وسيصل هذا الاستغلال لنهايته بالضرورة

عندما يتم اخضاع وسائل الانتاج للملكية الجماعية socialized وهذا ادعاء وافتراض مبالغ فيه كما سنرى • طالما أنه لن يوجد في مثل ذلك المجتمع طبقة خاصة للملاك، ونظرا لان كل المواطنين سيصبحون ملاكا وفي نفس الوقت منتجين ، فتبعا لتعريف ماركس فانه مجتمع لا طبقي classless society وتصبح بطبيعة الحال كل أنواع تقسيمات العمل أكثر مرونة من الوضع الحالي ، لان التقسيم المفترض للعمل لن يكون صارما بهذه الدرجة ان لم يختف تماما • ولكن من المفترض طالما أن هذه التقسيمات لن تؤدي الى تنظيم وتقنين الاستغلال الانساني ، فانها لن تحتاج لأية أدوات أو أجهزة خاصة للقهر والتسلط وعندما تقوم الاشتراكية من الممكن التحدث عما يشبه «قواعد المرور» لتنظيم العلاقات الاجتماعية ، وسيوجد «شرطي المرور» ليدير وينفذ القواعد ، ولكن لن تكون هناك غرامات أو عقوبات أو سجون لتجبرهم على تنفيذها • وفي اعتقاد ماركس أن كل شخص سيكون له دور في هذه العملية ، وفي حكم وتولى أمور المجتمع ، في العمل الجسماني وأيضا في العمل الترفيهي كالخروج لصيد السمك •

وبصرف النظر عن مدى الموضوعية والواقعية التي عبر بها ماركس عن استشراقه وتوقعاته لهذه الصورة الوردية المشرقة والمتفائلة للمجتمع اللاطبقي ، فلا جدال أن ماركس اعتقد في تميز وانصاف المجتمع اللاطبقي وتفرده بتحقيق مستوى أعلى للحياة وحريات ثقافية وسياسية أوسع وغياب وانعدام أي نوع من القهر والظلم ، وبشكل لم يتحقق ولن يتحقق في أي مجتمع من المجتمعات الطبقية سواء كان ديمقراطيا أو ليبراليا • وقبل أن ننهي هذه النقطة ، ينبغي ملاحظة أن توقعات ماركس المتفائلة ليست مختلفة كثيرا ،

أو أقل تطرفا من تصورات الاشتراكيين الطوباويين فى القرن التاسع عشر والتى سخر منها وهزأ بها وبمناهجهم فى فهم وادراك الاشتراكية • وعلى سبيل المثال فان وليــام جودين William Godwin فى كتابه العدالة السياسية political justice يتحدث عن المستقبل غير المنظور والذى فيــه «لن توجــد حــروب » جرائم ، ولا ادارة لتنفيذ العدالة ، كما تسمى ، ولا حكومة • بالاضافة لعدموجود أمراض ولا آلام ولا أحزان ولا قلاقل وسيبحث كل فرد بحماس فائق التصور عن خير الكل «وقد أقنع ماركس نفسه باعتقاده أن المجتمع والحكومة سيمارسان وظيفتهما بدون الدولة • ولايوجد دليل أمامنا على أنه أولى اهتماما وتفكيرا أكثر للمشاكل التى ستثيرها رؤيته هذه • فلقد كان جل اهتمامه منصبا على كيفية تحقيق الاشــتراكية حــالما تكون الشروط والوضــع التــاريخى الموضوعى مهيئا وممكنا ، وقبل مناقشة نظريته حول الثورة الاشتراكية ينبغى أن نعرض باختصار نقــده للرأســمالية كنظام اقتصادى •

٩ ــ النظرية الاقتصادية :

لقد طور ماركس نظريته الاقتصادية بعد عدة سنوات من صياغته وتكوينه لنظرياته التاريخية ، وفى الطبقات ، ونظريته فى الطريق نحو الاشتراكية • ولقد صيغت نظريته الاقتصادية لتوضح أن التطور التاريخى للرأســمالية ينتج شروطا تمهد الطريق للمجتمع الاشتراكى • ولقد تنبأ بعدة اتجاهات ونزعات أساسية مصاحبة لنشأة الرأسمالية مثــل تمركز الصــناعة ، وتمركز رأس المــال فترات الازدهــار والكساد الدورية ، ونمو الاحتكار • ولقد أدرك العديد من

الاقتصاديين صدق هذه التوقعات وسلامتها رغم أنهم ليسوا ماركسيين ولا حتى اشتراكيين • ولكن محاولة ماركس اشتقاقها من نظريته فى القيمة ، والمقتبسة عن ريكاردو (١) تعتبر محاولة مثيرة للجدل والنقاش ولقد قوبلت بقليل من القبول لدى الاقتصاديين المعاصرين •

لقد عرف ماركس الرأسمالية كنظام اجتماعى توظف أدوات الانتاج فى اطارها لتحقيق الفائدة الخاصة لأولئك الذين يمتلكونها ، من خلال جهد وعمل العمال الذين لا هم عبيد ولا اقنات بل هم رجال أحرار • فالفائدة والربح profit هما الهدف الأول والأخير لعملية الانتاج فى مثل هذا النظام • فكيف تنشأ هذه الفائدة ؟

أكد ماركس أن قيمة السلعة تتحدد من خلال مدة وقت العمل labor time الضرورية لانتاجها ، وليست أية مدة عمل ، لانه لو أنتجت السلعة على يد عامل كسول أو من يعمل بأدوات تقليدية بائدة antiquated tools فان قيمتها ستكون أكثر من قيمة السلعة التى ينتجها عامل يعمل بأدوات حديثة • ينبغى أن يكون لوقت العمل ضرورة اجتماعية •

وتتفاوت هذه الضرورة الاجتماعية للمهارات السائدة، وقوة الجهد ، والظروف التكنولوجية للانتاج فى أى عنصر • فالعامل يبيع قوة عمله labor time فى السوق باعتبارها سلعة • ويتحدد سعرها كأية سلعة أخرى ، أى ، عن طريق الضرورة الاجتماعية لوقت العمل المطلوب لانتاجها واعادة انتاجها • ويتلقى العامل من خلال التبادل والمقايضة مبلغا من المال عن الوقت الذى يعمله ، وقيمة هذا المبلغ تساوى

---

(١) ديفيد ريكاردو (١٧٧٢ ـ ١٨٢٣) اقتصادى انجليزى مؤسس نظرية قيمة العمل ووفقا لها تتحد القيمة التبادلية بالعمل المستخدم لانتاج سلعة ما ، وتفترض القيمة الاستعمالية للسلعة عن القيمة التبادلية لها • (المترجم)

بالكاد مايسد رمقه ويقيم أوده هو وأسرته والحياة عند مستوى الضرورة • ولكن وفقا لماركس فان وقت العمل لايماثل اطلاقا أية سلعة أخرى • فانه يخلق ويبدع قيمة أكبر من قيمته المتداولة فى السوق ، أى ، قيمة أكبر من القيمة التى يستحقها ذاته ، فلو باع الرأسمالى السلعة بسعر التكلفة على الأقل لانتاجها (تكاليف غير مباشرة ونفقات عامة ، المواد الخام ، الآلات ، الضرائب ، أجور الاداريين ، والأجور المدفوعة للعمال) فانه لن يحقق آية فائدة ولن يستمر ويبقى فى العمل • فليس هناك أى مبرر لكى يوظف أمواله فقط للحصول على وظيفة مدير ، فهناك كثير من الملاك لايديرون مؤسساتهم ومع ذلك تدر عليهم الربح •

لقد رفض ماركس التفسير الشائع لمصادر وأصول الربح والفائدة وأكد أن :

(أ) العمل فقط هو مصدر القيمة •

(ب) فائض وقت العمل هو مصدر فائض القيمة ، وهو الذى يستهلك أكثر من الوقت الضرورى اللازم لخلق قيمة مساوية لاعاشة العامل وسد رمقه •

(جـ) هذا الربح مثله كمثل الريع والفائدة rent and interest يشتق كلية من فائض القيمة والتى يخلقها العامل ، الآلية ، الاختراعات الجديدة (فيما عدا كونها أشكال عمل) ، وتقلبات السوق لاتضيف أية قيمة لأى شىء ولهذا لايمكن اعتبارها مصدرا للربح والفائدة •

وطالما أن العامل ينتج قيمة أثمن مما يدفع له ، فان ماركس أشار الى أن عملية الانتاج الرأسمالى ليست أكثر من نظام استغلالى مثل النظام العبودى والاقطاعى التى تجبر

العبد أو القن «الشغيل» على العمل فى ظلها بدون مقابل •
ويكمن غموض الانتاج الرأسمالى فى حصول العامل ظاهريا
على كل قيمة السوق full market value مقابل قوة عمله •
ومفتاح وحل هذا الغموض تبعا لما يراه ماركس هو أن
العامل يحصل فقط على قيمة قوة عمله وليس القوة الفعلية
المنتجة من خلال قوة عمله •

والسعى خلف الربح يعتبر روح وعماد عملية الانتاج
الرأسمالى • فلقد ازدهر وتطور من خلال ايجاد وسائل
جديدة وفرص لزيادة فائض القيمة ـ مصدر الربح ـ باطالة
يوم العمل • وعندما يكون العمال من القوة بحيث لايسمحوا
بذلك ، فان التبرير والاسراع بعملية الانتاج يتم بوسائل
أخرى لزيادة الانتاج عن طريق تحسين أدوات التصنيع
والتقنية أو اختراع وسائل جديدة ـ وتحت تأثير المنافسة
فان الانتاج الرأسمالى ينبغى مضاعفته وتوسعه بشكل يتناسب
مع زيادة الاستثمار وتوظيف رؤوس الأموال التى تذهب
مباشرة للمؤسسات والآلات وليست لصالح العمال • وتتخلل
هذه العملية أزمات دورية نتيجة لحقيقة مؤداها أن كمية
السلع المنتجة أكثر مما يمكن بيعه فى السوق ، ليس بسبب
عدم الحاجة اليها ، بل بسبب ضعف وعدم ملاءمة القوة
الشرائية للأجور • وتكون النتيجة ما لم يتداخل أو يتعارض
نظام الانتاج الرأسمالى مع أى شىء خارج النظام ـ المزيد
من تركيز الصناعة ورأس المال اللذين يؤديا مع الاحتكار الى
تضاؤل وانخفاض نسبى لقوة العمل ، تزايد حجم البطالة،
اتساع نطاق المعاناة ، فالأغنياء يزدادون غنا ، ويقل عددهم
نظرا لافتراسهم بعضهم البعض ، ابان محاولتهم تضخيم
كياناتهم الاقتصادية • والفقراء يزدادون فقرا وبؤسا ،
ويتزايد عددهم ، ويقل وينخفض مستوى مهارة العمال نتيجة

للاحلال والتغيير المستمر لهم بالماكينات والآلات المعقدةوالتى لايتطلب عملها شيئا أكثر من الالتزام بدفع المفتاح أو الزر .

لايمكن للرأسمالية فى اطار هذه النظرية أن تستقر بذاتها ، بل ينبغى أن تتوسع والا لاقت حتفها . ففى مسار تطورها وتوسعها تتابع الأزمة تلو الأخرى ، ويتم التغلب عليها أحيانا وتتفاقم بفعل الحرب أحيانا آخرى ، حتى يهب العمال ويأخذون المبادرة وينتزعون ملكية أدوات الانتاج فى المجتمع ،ويديرونها ويتعاملون معها طبقاللتخطيط اقتصادى اجتماعى جديد لخدمة ولصالح الجميع . وتتحرر الانسانية من «عبودية وتقديس السلعة» ومن الحكم الظالم الغشوم للمنتجات التى صممتها بيديها . وبمساعدة العلم سيتم التخطيط لتوظيف كل موارد المجتمع وباستخدام التكنولوجيا وذلك لاجل المزيد من الرفاهية للانسانية . وسيشرق فجر الوفرة والرخاء .

ولم تخبرنا نظريات ماركس الاقتصادية بمعدل سير الأسعار يوما بيوم ، ولا بالتغير فى قيمة الأسهم ، أو نشأة صناعات جديدة . وهى لم توضع لهذا الغرض فاهتمام ماركس كان منصبا على كشف قوانين تطور الرأسمالية وايضاح أن عملياتها الأصلية والجوهرية والتوسع الضرورى فى تسهيلات الإنتاج تقود المجتمع الى النقطة التى لايمكن للنظام عندها أن يقوم بوظيفته . فهى بنجاحها الباهرتحفر قبرها أو بدقة أكثر هى التى تبدد قوتها وتصبح خائرة القوى وهي التي تخلق القوة التي بها تقتل .

١٠ ـ الطريق نحو الاشتراكية :

لو أن الانسان هو الذى يصنع تاريخه بنفسه فانه رغم انهيار المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية فلن تقوم أخرى جديدة من تلقاء ذاتهـا لتقوم بوظيفتها • وينبغى تحقيق الانتقال من الرأسمالية الى الاشـتراكية بالعمل والحـركة السياسية • ومالم تكن الظروف مواتية ومهيئة فلن يمكن نجاح وقيام الاشتراكية وستبوء محـاولات تحقيقها بفشل ذريع • ولكن قد يكون الموقف ملائما وناضجا ولايحدث تقدم مماثل وموافق له • فقد يترك الكثير من الفاكهة الناضجة على أغصانها لتذبل أو تتعفن وتهترأ • فلكى يتم التحول نحو الاشتراكية من النظام الراسمالى المنهار يتطلب ذلك وعى الطبقة العاملة ويستلزم القيام بدورها • فهى بمفردها التى ينبغى أن تؤسس قاعدة منظمة للجموع تكون آساسا للحركة الاشتراكية •

لماذا ينبغى أن تكون الطبقة العاملة هى صاحبة الدور الطليعى لتحقيق الاشتراكية ، وليس الفلاحون أو المزارعون الأجراء أو الطبقات المهنية أو فاعلو الخـير من أى طبقة ؟ واجابة ماركس هى ، أولا لان أعضاء الطبقة العاملة أكثر عددا من أى طبقة أخرى ، واكتسبوا مقدرة وتدريبا خاصا على التنظيم بفضل دورهم فى عملية الانتـاج ، ثانيا لانهم يحتـلون دورا اسـتراتيجيا strategic role فى المجتمـع وبامكانهم اصابة الاقتصاد بالشلل عن طـريق الاضرابات العامة ، ثالثا والأهم لأنه يمكن تسوية أية صراعات بين كل المجموعات الأخرى بدون تغيير العلاقات الأساسية للملكية بأية وسيلة ، فى حين آن الصراع بين العمال ومن يملكون وسائل الانتاج يعد صراعا طويل الأميد ينـدلع المرة تلو

الأخرى في شكل حاد وخطير ولايمكن حله الا بتغيير النظام ككل عن طريق الثورة الاجتماعية التى يتم انجازها سلميا فى البلدان الديمقراطية وبطريق العنف فى البلدان غير الديمقراطية ٠

ولايمكن للطبقة العاملة آن تنجح فى مهمتها التاريخية بدون قيادة تلهمها وتنير وعيها وتقودها وينبغى أن تجهز هذه القيادة وتزوده بهؤلاء الاشتراكيين الذين استوعبوا وتعمقوا فى ادراك نظريات ماركس ٠ ولكى يميز بينهم وباقى الاشتراكيين الذين يتبنون نظريات أخرى ، أشار ماركس اليهم على أنهم الشيوعيون وذلك عام ١٨٤٨ ولكنه عاد مؤخرا لاستخدام مصطلح الاشتراكيين عندما نظم الحزب الاشتراكى الديمقراطى الالمانى وحتى عندما كان ماركس عضوا فى العصبة الشيوعية communist league وهى جمعية علمية صاغ ماركس بيانه الشيوعى باسمها ، فانه كان يميز نفسه عن «أولئك الشيوعيين الذين كانوا يودون تحطيم الحرية الفردية ، وتحويل العالم الى ثكنات ضخمة أو مستودع هائل» ٠

ولقد حددت ووصفت المهمة بوضوح لأولئك الذين يتفقون مع ماركس ٠ فعليهم آن يشاركوا بشكل يومى فى نضال الطبقة العاملة ، وتشجيع تنظيم نقابات للعمال ، وقيادة كفاح المناضلين لتحسين ظروف ومستوى معيشتهم ٠ عليهم ألا يخلدوا للراحة ، ينبغى ألا يخلدوا للراحة والاكتفاء بمجرد التهييج والاثارة من أجل الاصلاحات الفورية وتحسين الظروف بل ينبغى التركيز على تسييس politicalize نشاطات الطبقة العاملة وايضاح أن كل نضال طبقى هو نضال سياسى ٠ وينبغى عليهم ألا يؤسسوا حزبا خاصا بهم

ضد الأحزاب الأخرى للطبقة العاملة لكن ان يناضلوا من أجل توحيد صفوفهم وتكتلهم فى جبهة واحـدة • وفوق هـذا «لايضعوا مبادىء جامدة صـارمة يتحكمون بها فى الحركة البروليتارية «proletarian» وألا يفرضوا سياسة الحـزب بل يؤكدوا على مافيه مصالح الطبقة العـاملة ككل • وفى نفس الوقت عليهم أن يحاولوا جـذب القطاعات الجماهيرية والمضطهدة لصف وجانب العمال من خـلال عوامل الاستياء داخلها • وفى النهاية عليهم أن يحافظوا على حرية أحـزاب الطبقة العاملة وتحررها من التعصب القومى الضيق ، ففى هذا العالم المترابط والاقتصاديات المتشابكة ينبغى آن نعى ونعلم آن المصالح الأساسية للطبقة العاملة الأممية هى التى يجب أن تحظى باهتمام مبدئى (راجع النص رقم ١) •

وباختصار ، لم يتصور ماركس «حزبه» باعتباره جيشا تآمريا منظما تحت الأرض ، آو كمجموعة تهـدف لفرض الديكتاتورية على البروليتاريا ، ولم يتصوره حتى باعتباره حزبا سياسيا خاصا • فلقد كانت مهمته مبدئيا ممارسة القيادة التربوية • ورغم ذلك ، كلما تزايد حجم أتباعه كان ماركس يشجعهم بحماس حتى ينظموا أو يحولوا المجموعات والحلقات العمالية الموجودة الى آحـزاب ماركسـية • ولقد مضت ممارسات ماركس السياسية بالكاد وفقا لنظـرياته حول العلاقة التى ينبغى أن توجد بين الاشتراكيين والطبقة العاملة •

ولقد حصر ماركس تفكيره فى اسـتخلاص استراتيجية الطريق نحو الاشتراكية • ففى البـلدان المختلفة سـتصل الطبقة العاملة للسلطة بطرق مختلفة ولكن لن يتحقق أى تغيير اجتماعى أسـاسى بضربة واحـدة • فالعملية تتكون من :

١ ــ تحقيق الانتصار السياسى الذى به يتم تحطيم الشكل القديم للدولة واحلاله بشكل جديد ٠

٢ ــ اخضاع وسائل الانتاج الرئيسية للملكية الجماعية socialization وتأسيس معايير قانونية جديدة للملكية غير الشخصية non-personal

٣ ــ ظهور «المرحلة الأولى» للمجتمع اللاطبقى حيث يظل يحمل بعض سمات وعيوب المجتمع الرأسمالى ، ويكافىء الأفراد تبعا لما ينتجونه ٠

٤ ــ ظهور «المرحلة الأعلى» للمجتمع اللاطبقى والذى فى ظله سيشارك الأفراد تبعا لقدراتهم ويكافأوا بحسب حاجاتهم (١) ٠

وهذه الخطوات أو المراحل ليست متميزة بشكل صارم عن بعضها البعض أو ذات أهمية بسبب التطبقات وسوء الاستخدام الذى تلاها على أيدى لينين وستالين ٠ ففى أحد مواضع نقده لبرنامج جوته Gotha والذى أقره المجلس الاتحادى لمجموعتين اشتراكيتين ــ the lassalleans and eisenachers واللذين تكون منهما الحزب الاشتراكى الديمقراطى الالمانى (كان ماركس يسميه «حزينا») كتب ماركس «تقع بين المجتمع الرأسمالى والمجتمع الشيوعى فترة تحول ثورى من أحدهما للآخر ٠ وترتبط بذلك فترة انتقال وتحول سياسى والتى لاتكون الدولة فيها شيئا ملموسا بل توجد الديكتاتورية الثورية للبروليتاريا» (٢) ٠

---

(١) ويعد شعار هذه المرحلة كما هو معروف فى أدبيات الماركسية من كل حسب قدرته ولكل بحسب حاجته ٠ (المترجم)

(٢) انتقد ماركس برنامج جوته فى رسالة الى براك (٥ مايو ١٨٧٥) وبالمثل انتقد انجلز نفس البرنامج فى رسالة الى بيل ، ويدور نقدهما حول مسالة الدولة وارتكز النقد على خبرة تجربة كوميونة باريس ٠ (المترجم) ٠

وعبارة «ديكتاتورية البروليتاريا» التى برهنت مؤخرا على ذلك النزاع المصيرى الحاد بين أولئك الذين يعتبرون أنفسهم ماركسيين لم تستخدم فى أى عمل رئيسى منشود لماركس الا مرتين فى مراسلاته • وتبعا لماركس ، وحتى فى ظل الديمقراطية السياسية ، حيث تكون وسائل الانتاج ، مملوكة لعدد قليل ، ونتيجة لذلك توجد الديكتاتورية الاجتماعية لاولئك الذين يملكون ويتحكمون فى وسائل الانتاج ، بسلطتهم فى منح فرص العمل أو حجبها أو سحبها ، وممارسة سلطة استبدادية على حياة أولئك الذين ينبغى أن يعيشوا على استخدام هذه الوسائل والأدوات ـ وتؤدى الدولة وظيفتها باعتبارها أداة للطبقة المسيطرة اقتصاديا ، وتقوى وتدعم سلطتها • وعندما يؤسس العمال دولتهم ، فان الوضع سينقلب عن طريق جعل الانتاج جماعيا ، يصادر العمال الملاك السابقين • بصرف النظر عن ديمقراطية الأشكال السياسية والعمليات التى ينفذ بها ذلك ، فهو فى الواقع ديكتاتورية اجتماعية للعمال على الملاك السابقين •

وكما تصورها ماركس ، فان التعبير السياسى لـ «ديكتاتورية البروليتاريا» الاجتماعية يتخذ شكل ديمقراطية العمال • ولقد اعتبر كل من ماركس وانجلز كميونة باريس (١) Paris commune «ديكتاتورية بروليتاريا» وهى التى شاركت أحزاب عديدة فيها ، وكان أتباع ماركس

---

(١) كوميونة باريس (١٨ مارس ـ ٢٨ مايو ١٨٧١) حركة ثورية جماهيرية قام بها العمال والطبقة الوسطى ، ضد حكومة فرساى ، وقامت الكوميونة بتحطيم آلة الدولة القديمة ، والغاء الجيش الدائم واقرار بدء انتخاب جميع الموظفين وقابليتهم للعزل ، وجردت الشرطة التى كانت حتى ذلك الحين أداة فى أيدى الحكومة ـ من كل صلاحياتها السياسية وحولت الى أداة مسئولة أمام الكوميون ويمكن الغاء التفويض الممنوح لها فى أى وقت وكان يتعين أداء الخدمة العامة بدءا من أعضاء الكوميون تنازلا لقاء أجر يساوى أجر العامل اختفت جميع الامتيازات والعلاوات ولم يدم ذلك بل سقطت الحركة الثورية • وسحقت لعوامل كثيرة كامنة فى بيئتها وفى الظروف الموضوعية المحيطة بها •

أقلية ضئيلة ولقد وسعت العملية الديمقراطية كما توجد في ظل الرأسمالية بحيث تتيح للشعب ممارسة نفوذ مباشر وأوسع على ادارات الدولة عن طريق الاستفتاء والاقتراع ٠ ولان الماركسية باعتبارها حركة متطورة قد لاقت سوء فهم تماما مثلها مثل عبارة «ديكتاتورية البروليتاريا» وذلك في كل بلد ديمقراطي سياسي سالم يتم احياؤها على أيدى أتباع لينين وتاروتسكى ٠

١١ ـ طبيعة الأيديولوجية : Ideology

كان ماركس يعتقد جازما بأن الأفكار والمفاهيم تلعب دورا هاما في الشئون الانسانية ، رغم أن أصـلها وتأثيرها مشروط اجتماعيا ٠ واعتبر أن أفكاره ستصبح أفكار العصر وافترض أن اعتناقها سيسهم لحـد ما في النجـاح المرتقب والمأمول للحركة الاشتراكية ٠

وسواء عرف الانسان بأنه حيـوان ناطق أم لا ، فمن المؤكد أنه المخلوق الذى يقدم عللا وأسبابا لتبرير أفعاله ٠ وهذه الأسباب في معظمها لاتفسر حقيقة أفعـاله ، ولكنها تضلل الآخرين بمثل ماتضلل واضعيها عن أهداف وبواعث سلوكهم ٠ واعتقد ماركس أن الأفكار والمفاهيم الاجتماعية التى تستشهد بها لتفسير سلوك البشر والمؤسسات هى بمثابة قناع لصراع المصالح الاقتصادية ٠ والصراع لاحراز القبول والاعتناق يتحرك من خلال الصراع الاجتماعى الفكرى ، وأيا كانت المنظومة المنتصرة فهى تحدد في النهاية المعتقدات والمفاهيم السائدة والمهيمنة للمرحلة فالمعتقدات المهيمنة في كل عصر هى دائما أفكار الطبقة المسـيطرة ٠ حيث يدرك العداء والتنافر بين الطبقات علانية وبشكل صريح ، ويترتب

عليه صراع آخر مصاحب ومرتبط بالأفكار والمفاهيم المتصارعة لتحديد الخير والشر الحسن والقبح ، وأحيانا الحق والزيف .

وبكلمات أوضح ، يعتبر ماركس كل الفلسفات الاجتماعية أما أساطير وخرافات أو نظريات ذات أساس علمى . والأسطورة نوعان : الأفكار الخاطئة الزائفة ، المرفوضة أو الممكن تفنيدها بالدليل والبرهان ، والأفكار التى رغم قدرتها على حشد والهام جموع هائلة أو تثبيط عزمهم وتشويشهم ، فهى على درجة من الغموض بحيث لايمكن التحقق منها . وكلا النوعين من الأساطير أداة تبرير سيكولوجى psychological للمصالح التى لايمكن تحقيقها أو الاقتناع بها وقبولها لو تم الدفاع عنها بشكل صريح ومباشر ووفقا لرأى ماركس فان كل الفلسفات الاجتماعية التى تدعى أن كل المصالح الموجودة فى مجتمع طبقى هى مصالح مشتركة وعامة ، تعتبر فلسفات أسطورية بل وأكثر من ذلك فان الفلسفات الاجتماعية المختلفة والمتعارضة مع فلسفته ومؤداها تقديم تفسير حقيقى لبناء المجتمع وتطوره، هى أيضا فلسفات أسطورية .

ولقد استخدم ماركس مصطلح « الايدولوجية » كمصطلح مفهوم لكلا النوعين من الاسطورة myth خاصة التى يقصد توظيفه كتفسير تبريرى للوضع الراهن status quo ولقد اعتبر ماركس ان افكاره الاجتماعية ونظرياته ، نظرية علمية . وحقيقة لقد وضعت وفصلت لتأييد نضال الطبقة العاملة حتى تتحقق الاشتراكية ، وهذه الحقيقة لا تؤثر فى سلامتها وصحتها لقد اعتقد ماركس ان افكاره يمكنها الصمود أمام أى اختبار صارم دقيق . وهذا ماسنقوم به فى الفصل التالى .

الفصل الثانى

تقييم اسهامات ماركس

النقد الصارم هو الشيء الذى لن تصمد امامه أفكار ماركس لانها لم تصغ بدقة • وانصافا لغايته وقصده ينبغى اعادة تحديدها وتأويلها غالبا • فهى تكون خليطا من الحقائق، والمبهمات الغامضة ، والزيف •

وينبغى أن يكون واضحا لأى قارىء واع أن ماركس يكتب مبدئيا كناقد للرأسمالية ، كرجل ينقد بأفكار مشبوبة وحماسية ليزيل التفاوت الاجتماعى ، الفقر والظلم الماثل فى عصره • وكثيرا مما قاله كان مفهوما وبشكل جيد باعتباره كوصف للمجتمع الرأسمالى فى عصره ، وكتنبؤ للتطور التاريخى المحتمل لأى نظام رأسمالى مع افتراض عدم تداخل أى شيء خارج هذا النظام ليؤثر على تطوره ، وخاصة المؤثرات السياسية • ولقد نشأت أخطاء ماركس الأساسية من الاستنتاجات الاستقرائية غير الناقدة uncritical extrapolation مما لاحظه فى المجتمعات الرأسمالية وتعميمه على كل المجتمعات الطبقية ، ومن تجاهله للمؤثرات الضخمة السياسية ، والقومية والقوى الأخلاقية ، والتى مارست دورها وتأثيرها على تطور الرأسمالية كنظام اقتصادي •

١ ـ المادية التاريخية :

الدراسات التاريخية المعاصرة حتى لو لم تكن ماركسية بشكل واضح وصريح فانها تعكس الأثر العميق لأفكار

ماركس ولو فى صورة وشكل طفيف • فلقد أثرت هذه الأفكار الكتابة التاريخية ، وجعلتها أكثر واقعية وهبطت بها على سطح الأرض (١) ، down to earth وطرحت القضايا ذات الاهتمام على بساط البحث • حتى آن مؤرخا مسيحيا مثل البروفيسور بترفيلد Butter Field أظهر تقديرا للتأثير الايجابى المفيد لمنهج ماركس على المعرفة والعلم التاريخى • وكتقدير أولى ، فان نظرية ماركس فى التاريخ تقدم تفسيرا مقبولا ظاهريا فى الغالب للطابع العام للمجتمع الصناعى فى القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى، ولعملية تحديث الحضارة ، واخضاعها للطابع التجارى commercialization وأثر النتائج العديدة للعلم على المجتمع ، وللصراعات السياسية الرئيسية لهذه الفترة ، والتوسع الامبريالى الاوروبى imperialistic للسيطرة على العالم •

وبصرف النظر عن مدى انصاف تأويلات ماركس ، فانها على أية حال لاتقدم تفسيرا لعملية الانتقال من الاقطاع الى الرأسمالية • فلقد تواجدت المجتمعات الاقطاعية فى مناطق كثيرة وفى فترات مختلفة • ولكن ظهرت الرأسمالية ونشأت فقط فى اوروبا فى ذلك الركن الصغير من العالم • ولم تظهر وتتوسع فى أى مكان آخر كنتيجة لأى قانون داخلى لتطور العلاقات الاجتماعية للاقطاع بل يفضل الغزو أو تهيئة واعداد المجتمع وتعديله للتكيف معها adaptation (مثال اليابان) • وحتى لاتوجد أية أدلة بأن الانتقال من المجتمعات العبودية الى الاقطاعية كان عالميا ، أو انه حيثما يتم الانتقال وفقا لتصور ماركس ومخططه • ولقد اشتق ماركس

---

(١) يقصد المؤلف دور ماركس فى تحويل اهتمام الباحثين التاريخيين للاهتمام بالمشاكل الانسانية فى التاريخ ـ وحصر علل تطوره فى القوانين العلمية لتطور الواقع والفعل ـ وليس البحث عن علل تنتمى لعالم الميثولوجيا واللاهوت • (المترجم) •

ادعاءاته حول المجتمع البدائى من مورجان Lewis H. Morgan والتى رفضت مؤخـــرا بفضــل الاكتشــافات الحـــديثة للانثروبولوجيا anthropology

وتعتبر نظرية المادية التاريخية غير ملائمـــة فى معظم صيغها المألوفة حتى بالنســبة للمرحلة الرأســمالية • فهى تبحث فى تفسير كل التغيرات السياســية الهامة والتغيرات الثقافية فى حدود تطور نمط الانتاج الاقتصادى ولايمكن اقامة واثبات هــذا الادعاء الشــامل بدون أســاس احصائى وبعــد انجــاز الأبحــاث الجــزئية للظــاهرات الســياسية والثقافية الهامـــة • فضــلا عن تجاهــل النظرية لحقيقة ان الأساس الاقتصـــادى للمجتمع فى آى عصر غالبا ما يتســق ويتوافق مع أكثر من شكل وصيغة سياسية ، ولهذا فان درجة ومستوى وجود الديمقراطية او غيابها فى آى قطر ربما يتم تفســيرها من خــلال عدة عوامــل مختلفة بالاضــافة للنمط الانتاجى للمجتمع •

وتعتبر الاســتعارات المجردة للنظرية مضــللة ويمكن ان تســتخدم ضـــدها • حيث ينظر لنمط الانتاج كقاعــدة واساس للمجتمع • ولكن الاســاس لا يحدد كلية آى المبانى التى ســتبنى فوقه ، وعــدد الطوابق ، طابعهــا وطــرازها المعمارى ، وظيفتها ، ودورها ، واســتخدامها والأساسات والقواعد لا تتطور • فهى تبنى لغرض واحيانا تدمر لغرض ويمكن اســتبدالها عند الضرورة بدون التأثير على البنـــاء الفـــوقى super structure وكما ان الاساســات قد تحــدد امكانيات اى تشــييد اضــافى فغالبا ما يحدد نمط الانتاج الامكانات الســياسية والثقافية • وقد يجعل وجوده تحقق بدائل سياسية معينة أمرا مســتحيلا نســبيا • ولكن ليس

بامكانه منع الانسان من محاولة تحقيق المستحيل التاريخى • ويمكن ارجاع سبب الكارثة الناجمة عن المحاولة الى قرار محاولة الوصـول للمسـتحيل بقـدر ماهى بسبب العوائق والصعاب التى أدت الى فشل هذه المحاولة •

وتخلط المادية التاريخية فى صيغتها القطعية الارثوزكسية orthodox بين العلل القريبة والمباشرة والعلل المطلقة والنهائية ultimate وتتناسى ان العلـم ليس معنيا بالبحث فى العلل النهائية • وتعترف ، عند الضرورة ، بوجود تأثير متبادل بين العوامل المختلفة ، وبين العلل الاقتصادية والمؤثرات السياسية والثقافية ولكنه يخفض هذا التأثير للحد الأدنى باعتبـاره عرضيا وثانويا ، وفى معظم الأحوال فان الشـكل والقالب القبلى priori وهو نمط الانتاج يؤكـد عليه ليكـون دائما المؤثر الحاسـم فى « التحليل النهـائى » • وحتى التطورات المستقلة والتى ليس لها أصـلا أدنى عـلاقة أو صلة بنمط الانتاج الاقتصادى ، كنظرية النسبية relativity التى ادت الى انطلاق الطاقة النووية nuclear energy ربما كان لها تأثير بعيد المدى على السياسة فى عصرنا ، وبالفعل لها تأثير على نمط الانتـاج الاقتصـادى ذاته ، أكثر من تأثير أى قانون داخلى لهذا النمط •

وتميل المادية التاريخية الى اعتبار كل من أبطال الفكر والعمل مجرد رسل أو تعبير عن القـوى الاقتصـادية فى نهاية الأمر ، ولكنها لاتستطيع أن تفسر حقيقة كون شخص صانعا للأحـداث event marking person مثل لينين Lenin كان له تأثير سببى هائل وبعيد المدى على ثـورة أكتـوبر البلشفية عام ١٩١٧ فى روسيا ، بل وأعظم من تأثير وضع قوى الانتاج أو درجة تطور علاقات الانتاج ويوضح وجود

دول مثل أيرلندا Ireland واسرائيل Israel نمطا آخر من الظاهرات التاريخية التى لم تتنبأ بها النظرية ولايمكنها تقديم تفسير مقبول لها من خلال أدواتها ومصطلحاتها ولو حتى بعد وقوعها ٠

وتبدو المادية التاريخية بوصفها نظرية احادية الجانب monistic فى سعيها خلف الحلول الكلية الشاملة ، غير واضحة وغير مفهومة وتستخدم فقط كمبرر للابتعاد عن التفكير فى المسائل الشائكة والقضايا المعقدة ٠ ولكن بوصفها نظرية تعددية تؤمن بتعدد وكثرة العوامل فى تفسير تطور التاريخ pluralistic فانها تعطى وزنا كبيرا لنمط الانتاج الاقتصادى ، وتعتبر مبدء موجها ومفيدا لتناول مشكلات متخصصة ٠ وينبغى أن نعرب عن اتفاقنا مع ملاحظة انجلز المتعلقة بهذا الخصوص بأن الدليل على وجود الفطيرة هو تناولها وأكلها the proof of pudding is in eating ولكننا قد أكلنا كمية من الفطير تكفى للسماح لنا بقدر ملحوظ من الشك فى الادعاءات الضخمة للنظرية فربما كان لنمط الانتاج الاقتصادى الكثير ليقوم به لتحديد وتقرير الأحداث السياسية الرئيسية فى اوروبا من ١٧٥٠ م وحتى عام ١٩١٤ ، بشكل أكبر مما يقوم به أى عامل آخر ، رغم أنه يبقى فى حاجة لاقامة الدليل النهائى ٠ وجدير بالملاحظة أنه لا ماركس ولا انجلز ولا أى زعيم قيادى بارز للمادية التاريخية قد تنبأ بظهور الفاشية fascism فى أى شكل من أشكالها ٠ والفاشية والأشكال الأخرى للشمولية totalitarianism والتى ليست اشتراكية ولا رأسمالية ليس من السهل افساح المجال لها فى تحليل ماركس ٠

وبدون انكار التأثير المتواصل لنمط الانتاج الاقتصادى على الاطلاق ، لايبدو أن له تلك الأهمية القصوى منذ ظهور

الشمولية كأهمية تأثيرها الواضح • فلقد كانت للقرارات السياسية قوة تأثير كبيرة على التطور الاقتصادى أقوى من تأثير نمط الانتاج الاقتصادى على الشئون السياسية ، قرارات مثل معاهدة فرساى treatry of versailles الاتفاق الجديد، للسنوات الطوال فى استرضاء ومحاباة هتلر Hitler الفشل فى مساندة النظام الديمقراطى الشرعى فى أسبانيا، الحرب ضد هتلر ، استرضاء ستالين ، تسريح الجيش الأمريكى فى اوروبا ، مشروع مارشال وUNRRA تورط الولايات المتحدة فى كوريا ، واعادة تسليح الغرب لمواجهة الزحف الشيوعى • (راجع مطالعة رقم ٢٣) •

٢ ـ التطور التاريخى :

لو كان حقا كما ادعى ماركس انه «لايوجد ثمة نظام اجتماعى يزول قبل كل القوى الانتاجية التى بالنسبة له كحجرة قد تطور بداخلها» اذن فمن الصعب أن نرى لماذا ينبغى أن يزول أى نظام اجتماعى ، لم تدمره الحرب أو الكوارث الطبيعية • بينما يوجد أمامه عدد لا محدود من امكانيات التوسع والامتداد • فالعبودية لن تختفى حتى تصبح على الأقل ظاهرة عالمية • والرأسمالية قد تحتفظ باستمرارية وجودها من خلال المجالات الجديدة المفتوحة للحاجات التى تتطلب صناعات جديدة لاشباعها • ونظريا ، فان الابداع الانسانى قادر فى ظل أى نظام على ايجاد الوسيلة تلو الأخرى لتطوير القوى الانتاجية • وتاريخيا ، ليس هناك أى دليل أيا كان على أن الرأسمالية كانت تمضى فى مسار تطورها المألوف عندما تقلد الشيوعيون السلطة فى روسيا فى أكتوبر ١٩١٧ • ولم يقدم ماركس من جانبه أية حالة مقنعة على تأكيده بأن الرأسمالية ينبغى أن تتبعها الاشتراكية وليس

أى شكل آخر للنظام الاجتماعى • حيث توجد بدائل أخرى قد تجاهلها ، مثل أحد الأشكال التى تحتفظ باستمرار الملكية الخاصة لوسائل الانتاج مع وجود توجيه اجتماعى واسع لعملياتها ، أو الاقتصاد المختلط لكلا القطاعين الخاص والعام للانتاج • فلقد ألقى ماركس هذين البديلين من مفاهيمه عن الاشتراكية والرأسمالية وهما أقرب وأكثر التصاقا بالواقع الحاضر والمعاش فى بلدان كثيرة •

٣ ـ الصراع الطبقى :

رغم أن مفاهيم الطبقات الاجتماعية والصراع الطبقى لم تكن محددة وواضحة لدى ماركس ، فانها قد استخدمت بطريقة رائعة لتنير بعض الفترات الحاسمة فى التاريخ المعاصر ومنذ عصر ماركس أصبحت هذه المفاهيم جزء من الأدوات العقلية لكل المؤرخين التجريبيين empirical وكى ندرك دور الطبقات أيا كان فى الحياة السياسية والاجتماعية فذلك شىء معلوم • أما افتراض أن للطبقات الاقتصادية بصرف النظر عن تعريفها ، دورا ملحوظا ومهيمنا بالنسبة للتقسيمات الطبقية الأخرى الدينية ، القومية ، أو العرفية ، فذلك أمر مختلف تماما • فلقد كان واضحا أن مصالح الطبقة العاملة فى كل البلدان تدفع لمعارضة الحرب العالمية الأولى وتعهدات أحزابها السياسية الرئيسية بالقيام بذلك قبيل اندلاع الحرب • ولكن ما ان نشبت الحرب الا وهى تدعو وتحث على تأييد حكوماتها القائمة بحماس وطنى لايقل عن حماس بقية الطبقات الأخرى •

ولقد استخدم مصطلح «طبقة» لدى ماركس بمعان مختلفة ، تشتق كلها من بعضها البعض على نحو دقيق • فاحيانا يكون تعريفها الدور الذى تلعبه جماعة فى الانتاج ،

واحيانا أخرى النمط السائد لجماعة ما فى الحياة ، متضمنا الثقافة والتقاليد ، واحيانا مصدر الدخل او مستواه ، وفى بعض الأحيـــان تعنى المهنـــة آو فى الحـــالة المتعطـلين غير العاملين احتياجهم لمهنة ما • فلو كان الأمر كما أعلن البيان الشيوعى «ان كل التـاريخ هـو تاريخ الصراعات الطبقية فبالتأكيد لن يكون صـحيحا آن الصراعات الطبقية كانت اقتصادية بأى معنى من المعانى السالفة الذكر • بل وليس صحيحا أن كل التـاريخ هو فقط تاريخ الصراعات الطبقية ، بل هو بالمثل ان لم يكن أكثر ، تاريخ التعاون الطبقى فغالبا مايبقى العداء الطبقى مستترا وكامنا عندما تشترك قواتهما فى مواجهة خطر مشترك آو يتحدا فى عمل مشترك من أجل منفعتهما المشتركة • ويعتبر تواتر وحدة شجب وادانة الماركسيين للتعاون الطبقى class collaboration ابلغ شهادة على وجود وانتشار هذا التعاون حتى فى المواقع التى قد يتوقع المرء فيها صراعا وتصادما صريحا وعلنيا بين المصالح • وثبت ان « قانون الصراع الطبقى » ليس قانونا ، طالما له مثـل هـذه الاستثناءات العديدة ، آو له فعـالية ومصداقية محدودة •

هنا وكما فى اى موضـع آخر من فكر ماركس ، ليس مفهوم الصراع الطبقى هو غير المنطقى والشاذ بل امتداده اللانقدى والنزعة خصوصا لدى اتباعه لتفسـير الصراعات الثقافية والدينية والعقلية وبالمثل التطور العلمى كنتـائج تلزم عن الصراع من أجل نصيب أكبر من الثروة الاجتماعية والسلطة • ومما لاشك فيه ان الصراع حول الثروة والسلطة مظهر مصاحب وملازم لتلك الصراعات وآحيانا يعتبر عاملا سببيا حقيقيا وطيد الصـلة بها • ولكن بالعـلاقة بمجالات ارحب فى الثقافة وخاصة العلوم والفنون ، وبعض الأحداث

بالغة الأهمية ، مثل بعض أحداث الحروب الصليبية ونشوء كثير من الحركات القومية ، او الحرب ضد الهتلرية Hitlerism ، فقد تم تجاهلها جميعا ، أو اعتبرت ذات أثر مساعد وبدرجة ثانوية ·

٤ ـ النظرية الاقتصادية :

توجد هناك صعوبات خاصة فى النظرية الماركسية حول القيمة وفائض القيمة والتى لم تعد ملائمة بقدر كاف اولا ، حيث يبدو متعسفا بدرجة كبيرة مفهوم ان كل عمل بما فيه كل أنواع العمل الماهر يمكن اختصارها الى عدد معين من قوة العمل المتجانس · وحيث توجد هناك اختلافات مميزة ولا يمكن اختزالها بين أنواع معينة من العمل · وعلى سبيل المثال ، العمل البدنى والتفكير التأملى والذى يمكنه استنباط آية نتيجة رياضية بدون اى عمل بدنى على الاطلاق فهما مختلفان عن بعضهما البعض كالفروق التى توجد بين الألوان والأصوات · وربما يكون لهما مقياس مشترك common measure ولكن ليس لهما مادة مشتركة substance «تجانس تكوين العمل الانسانى» كما ادعى ماركس ·

ثانيا لايمكن تصديق فكرة أن استخدام الآلات وكل وسائل توفير العمل لاتضيف للسلع أية قيمة ماعدا تلك ذات قوة العمل المستخدمة فى انتاجها ، ولايمكن أن تتفق هذه الفكرة مع حقائق التبادل ·

ثالثا ، لو أن قوة العمل هى المصدر الوحيدة للفائدة ، اذن فان انفاق مبالغ متساوية من رأس المال مع اختلاف النسب المنصرفة على الآلات ·· الخ ، والعمل ، سوف تظهر ، لو أن مستوى الاستثمار ومعدله ثابت فى جميع الحالات ، ان

مستوى ومعدل الربح سيختلفان بالتالى مع تحقيق معدل أعلى من الربح عندما تكون نسبة تكاليف العمل أعلى بالنسبة لاجمالى المبالغ الاجمالية المخصصة ٠

وهكذا ، فلو أن هناك مبلغ مليون دولار قد خصص ووظف منه ٩٠٠٫٠٠٠ تسعمائة ألف للآلات والتجهيزات ... الخ ، ١٠٠٫٠٠٠ ومائة ألف للعمل ، ومبلغ مماثل وظف منه ١٠٠٫٠٠٠ مائة ألف للتجهيزات ، وتسعمائة ألف ٩٠٠٫٠٠٠ ألف للعمل ، ولو أن قوة العمل تؤدى بنفس المستوى من الجهد ، اذن وفقا لنظرية ماركس ، فان مستوى الربحية ومعدل الفائدة للمشروع الأول سيكون ١٠٪ ، وللثانى ٩٠٪ ٠ ولكن فى الواقع فان مستوى ومعدل الفائدة متساويان تقريبا ٠ ولقد حاول ماركس تجنب هذا التناقض بتوسيع مفهوم العمل ليتضمن كل الكيانات الانتاجية للمجتمع ٠ ولقد برهن على أن اجمالى مبالغ أثمان كل السلع المنتجة فى المجتمع مساوية لاجمالى مبالغ قيمة هذه السلع ٠ ويعتبر هذا مجرد تحصيل حاصل ولايقدم شرحا البتة ما الذى يحدد سعر أية سلعة معينة ، بما فيه سعر قوة العمل ، وأيضا مصدر الربح ٠

وتتسم تنبؤات ماركس المتعلقة بتطور الانتاج الرأسمالى بدرجة عالية من النجاح ٠ فلقد استشرف وتنبأ أن رأس المال سينمو فى وحدات أكبر فأكبر وسيحقق ممارسة احتكارية ٠ وأدرك التأثير الثورى للعلم على التكنولوجيا الصناعية ٠ وتنبأ بنمو البروليتاريا ، وبدورات الازدهار والكساد الاقتصادى ، وبالتوسع الامبريالى ٠ وكان صائبا عندما رأى أن النجاح المستمر فى تحقيق تراكم رأس المال سيخلق باستمرار صعوبات طالما أن الرأسماليين يسعون ويبحثون دائما عن تجدد فرص الربح ٠

ومن ناحية أخرى ، فلقد قلل ماركس وأبخس من قدر القوة المتجددة للرأسمالية لتجاوز آزماتها الدورية والتغلب عليها ، وتنوع الأشكال التى تتخذها هـذه الأزمات ، ومن التأثير الاقتصادى للحركات النقابية العمالية ، وامـكانية ممارسة ضغط العمال ودورهم من خـلال اتسـاع نطـاق الديمقراطية السياسية ليشـمل توزيع الثروة والضـمان الاجتماعى social security وظهور فاعلية القوة الشرائية للاجور ، وتحسين مستوى المعيشة والصحة • وبرغم تقدير ماركس للآثار المأخوذة عن العلوم التطبيقية الا أنه قلل من أهميتها فى مضاعفة وزيادة صناعات جديدة وأدرك دلالة انفصال الملكية عن التنظيم والادارة فى الرأسمالية الحديثة ولكنـه اخفق فى ادراك مايترتب عليـه من تزايد التنظيم الاجتماعى للصناعة ومن تحولات اجتماعية عديدة • واقتنع بشكل واضح بامكانية آن تصبحالصناعة تابعة للدولة وبشكل مستقل عن مصالح مالكى وسائل الانتاج وذلك عن طريق تتابع ضبط وتوجيه الأسـعار والأجـور والأرباح وبنفس الدرجة من خلال قانون العملة ، وتمويل العجز فى الميزانية، الضرائب ، والبنوك العامة يمكن للدولة آن تمارس تأثيرا على قنوات اعـادة توظيف الأمـوال وليس فقط فى أوقات الحرب •

اعتقد ماركس أن أى نظام رأسمالى «نموذجى ideal» مثال : النظام الذى يتطـور نسـبيا بمعزل عن التـأثيرات السياسية لتدخل الدولة أو لتدخل الطبقة العـاملة المنظمة ذاتها لايمكنه أن يحقق ويدر أرباحا كافية لتكون حافزا على اعادة توظيف الاموال ، وأن يوفر فرص عمل لكل من يرغب ويقدر على العمل ، ويمنح فى نفس الوقت مسـتوى ملائم للمعيشة أعلى من مستوى الضرورة واقامة الأود للجموع •

ولم يبرهن ماركس حقيقة على هذا ولا حتى بالنسبة لذلك النظام «النموذجى» ، الذى لم يوجد قط ، ومن المرجح أنه لن يوجد أى نظام مثالى للرأسمالية وعلى الأصح بالنسبة لأى نظام آخر ٠

ولاتمنح الفائدة فى النظم الرأسمالية المعاصرة لكل الرأسماليين بل لعدد معين ٠ وهذا العدد قد يكون كافيا ليحتفظ باستمرار الانتاج فى وضع يسمح بتشغيل معظم العمال وبحيث يتلقى أولئك الذين لايعملون مؤقتا مساعدات اجتماعية ٠ ومما لاشك فيه أن ماركس كان محقا فى توقعه لدورات الاضطراب الاقتصادى طالما بقى السوق يعمل فى ظل اقتصاد غير مخطط ٠ ويبقى مطروحا للبحث سؤال حائر، حول ما اذا كانت فترات الاضطراب الاقتصادى حتى فى حالة الاقتصاد المخطط لن تحدث ، وأيضا هل لن تحدث بطالة مقنعة خلف غمام التضخم ، وقوة العمل غير الفعالة ٠

وفى الوقت الحاضر يظهر لنا اقتصاد بريطانيا وأمريكا وأوروبا الغربية على آية حال صورة تختلف فى مجملها عما تنبأ به ماركس كتطور لا مفر منه للرأسمالية ٠ وبالمثل يختلف طابع الاقتصاد السوفيتى عن ذلك الذى توقعه ماركس بعد اختفاء الرأسمالية ٠

٥ ـ الطريق نحو السلطة :

بلغ ماركس درجة من النضج العقلى فى الوقت الذى لم تكن الديمقراطية فيه قانونا للحياة السياسية ٠ حيث لم يتم اكتساب حق الاقتراع العام فى معظم الأقطار الأوروبية ٠ وباستثناء فترات معينة فى التاريخ الانجليزى ، لم يتحقق أى مكاسب سياسية واجتماعية عبر مصاعب جمة الا ولاقت

معارضة حادة وعنيفة من قبل أولئك المتحصنين بالسلطة والقابعين على دست الحكم وكان ماركس متشككا فى احتمال تنازل المجموعة الحاكمة طواعية عن السلطة وتسليمها للأغلبية الشعبية التى تنتوى التغيير الجذرى لهيكل المجتمع • واستثنى بريطانيا العظمى والولايات المتحدة وهولندا ، معتبرا أنه بسبب التقاليد الديمقراطية فى هذه الأقطار فربما يتم الانتقال الى الاشتراكية بالوسائل السلمية والشرعية •

وأكدت الأحداث توقعات ماركس جزئيا فلقد كان تطور المؤسسات الديمقراطية فى أوروبا مؤثرا تماما حتى اندلاع الثورة البلشفية وحل الجمعية التأسيسية الروسية • فأدت الأحوال المضطربة بعد الحرب العالمية الاولى بالاضافة للخوف من الثورة البلشفية والتى أشعل أوارها محاولات بعض الأحزاب الشيوعية الاستيلاء على السلطة عن طريق العنف ، أدى ذلك لظهور حركة متنامية مضادة من العنف الفاشى فى ايطاليا والمجر وألمانيا • وقوبل التحريض والاثارة الشيوعية بالترحيب من جانب الجماعات الرجعية لاتخاذه كذريعة للقضاء على العمل غير الشيوعى والحركات الاشتراكية • وفى بلدان مثل انجلترا ، هولندا ، السويد ، النرويج الدانمارك وفرنسا حيث كانت التقاليد الديمقراطية سائدة والأحزاب الشيوعية ضعيفة لدرجة لاتمكنها من محاولة الانتفاضة المسلحة لاسقاط المؤسسات القائمة ، كانت مسيرة الاصلاح الاجتماعى والتشريع الاشتراكى مستمرة غالبا • وفى الولايات المتحدة سجل الاتفاق الجديد new deal تغييرا خطيرا فى الاقتصاد والسائد دعه يعمل laissez-faire الى بدايات دولة الرفاهية وصاحب ذلك اضطرابات أهلية، ولكن أقل من تلك المصاحبة لحركات الاصلاح الانجليزية فى القرن التاسع عشر •

ويشير كل ذلك الى ان النظرية الماركسية للدولة مفرطة التبسيط لدرجة خطيرة • فلم تعد الدولة فى البلدان الديمقراطية تلك الأداة أو اللجنة التنفيذية للطبقة الاقتصادية المسيطرة ولكنها أداة أية طبقة أو أى تحالف طبقى ينجح فى كسب ثقة الناخبين • فأحيانا ينجح كبار رجال الأعمال ، وأحيانا الفلاحون أو العمال أو التحالف القائم بينهما •

وينبغى بهذا الخصوص التفرقة بين المفهوم الجوهرى substantial والمفهوم الوظيفى functional للدولة • فالمفهوم الأول يعرف الدولة من خلال مايطلق عليه ماهيتها وجوهرها essence أو طبيعتها التى توظف كمجرد أداة للطبقة الرأسمالية وتفسر المكاسب التى يحصل عليها العمال أو الفلاحون تفسيرا سببيا بعيدا عن كونها امتيازات منحت لهم تحت الضغط • وكما لو أن استخدام القوة لانتزاع هذه الحقوق والتنازلات تحت الضغط ليس أكثر الأدلة اقناعا على الرقابة الفعلية على الدولة بصرف النظر عن «جوهرها» الوثنى mystical

وتبعا للمفهوم الوظيفى فان الدولة هى ماتقوم به الدولة • والاجتهاد التحليلى التجريبى هو فقط الذى يمكننا من اكتشاف مصالح من التى تساندها وتؤيدها الأدوات التشريعية والتنفيذية والقضائية للدولة فى أى عصر معين وتوضح لنا السجلات التاريخية حيثما توجد المؤسسات الديمقراطية السياسية فان التغييرات الديمقراطية فى الحياة الاجتماعية والسياسية لاتتوانى كثيرا •

٦ ـ المجتمع الاشتراكى :

لم يفسح ماركس الا جانبا ضيقا من فكره حول بنــاء المجتمع الاشتراكى الذى افترض أنه سيتلو الرأســمالية ، نظرا لان اهتمامه كان منصبا على نقد الرأسمالية • فلقد استغرقته آثام الوضع الراهن لدرجة أنه لم يبحث اطلاقا ما اذا كانت آثام مابعد هذا الوضع القائم لن تكون أســوأ منه ، وخصوصا لو آن الوسائل المستخدمة لم يتم فحصها من زاوية أهميتها للغايات المقررة والتى توجهها • ولم يناقش ماركس جديا امكانية أن يصــبح العمــال مستغلين بنفس القدر وربمــا أكثر فى ظل نظــام ألملكية الجمــاعية حيث يواجهوا برئيس واحــد ذى ســلطة هائلة ، متشحا بالقــوة المسلحة للدولة ، بينما يوجد فى ظل نظام الملكية الخاصة أو المزدوجة الكثير من المدراء والرؤساء وغالبا ماينشب النزاع بين بعضهم البعض • ولقد افترض ماركس بلا مناقشة أو تدليــل أن المؤسسات الســياسية الديمقراطية ســتزدهر بالضرورة عندما يتم التخلص من الرأسمالية وأن العمل الحر فى الحياة العقلية سيزدهر بالضرورة عندما يلغى العمل الحر فى الاقتصاد وأغفــل الحقيقة الممكن اثباتها بأن مســتوى الديمقراطية السائدة يكتسب أهمية فى ظــل الاشتراكية تفوق أهمية الشمولية الاقتصادية • لانه بدون الديمقراطية سيصبح الاقتصاد الشمولى على آحسن تقدير أداة احسان فى أيدى الطغاة والبيروقراطيين ، أو آداة رعب للظلم والاضطهاد لم تشــهدها البشرية فى تاريخها من قبل • ولقــد أظهرت الأحداث التاريخية حتى بالنسبة لمؤيدى ماركس آن التطبيق الاشتراكى socialization أو تغيير العــلاقات القــانونية للملكية لايؤدى بالضرورة الى تغيير فى وضع السلطة والمكانة الاجتماعية أو الامتيازات •

وأوضح الأمثلة على النزعة الطوباوية لدى ماركس هي اعتقاده أن الدولة ستتلاشى فى ظل الشيوعية وستقوم قواعد التوزيع على الحاجة فقط . ولكن حتى لو وجدت الشمولية المطلقة فى ظل أشكال ديمقراطية سياسية فبلاشك سينشأ اختلاف وتباين حيث أن توزيع الانتاج والثروة سينصب على مجموعات اجتماعية ومهنية مختلفة . وربما يمكن الفصل فى ذلك سلميا أو لايمكن ولو لم يوجد ثمة عمل اجبارى قهرى ، فحق الاضراب يوجب احترامه . ولهذا السبب ولغيره ففى كل الأحداث ينبغى أن يكون لدى المجتمع المعقد ورهن اشارته بعض أدوات القوة القمعية لتمنع وصول الصراعات لنقطة الاشتعال ، ولتكون بنفس القدر حارسا أمينا على المصالح العامة .

وفى عالم يكون مستحيلا فيه من الناحية الفنية technically انتاج أكثر من الكفاية فى كل شىء فى الوقت ذاته ، يعتبر اقتراح توزيع السلع والخدمات تبعا للحاجة فقط اقتراحا غير معمول به . فالحاجات غير محدودة ، ذاتية، ولا حدود لممكناتها . وأينما توجد ندرة فى الكم عند أى لحظة تاريخية ينبغى أن يوجد نظام لأولوية التوزيع مبنيا على مدى الأحقية أو المصادفة أو بعض المبادىء المختارة . وقد يكون من الممكن فنيا ترتيب الأشياء التى يحتاجها كل فرد أساسيا من حاجته للطعام ، الملبس ، المسكن والتى يمكن اشباعها بصرف النظر عن القدرة على العمل أو حتى الرغبة فى العمل . ولكن ذلك يغفل عن الاشياء الترفيهية والكمالية، وكل ماهو فوق وأبعد من الحاجات الأساسية ، ولايضع فى حسبانه توزيعها .

وحتى مفهوم «الحاجات الأساسية» يعتبر متغيرا تاريخيا وماكان يدور فى ذهن ماركس هو نظام لمجتمع تعتبر روابط

تنظيمه تقريبا ميثاقا يوحد ويربط أسرة متحابة حيث يتم إشباع الحاجات المختلفة لكل فرد فيها بروح الاخوة أكثر من اشباعها وفقا لقواعد العدالة · ولكن ليس ممكنا أن يصبح المجتمع ككل كأسرة واحدة ، ولن تخلو كل الاسر من وجود الصراع ، وحتى فى الاسرة الواحدة المتحابة ، لايكفى الحب وحده دائما ·

٧ ـ نظرية الأيديولوجية :

من الحقائق المؤكدة أن للافكار تاريخا ويعكس لمدى معين عصرها ووسطها الاجتماعى وحاجات ومصالح أولئك الذين يعتنقونها · وعلى أية حال فان ذلك يؤكد النظرية الماركسية حيث وفقا لها تعتبر الأفكار حول الخير والشر والصدق والخطأ فى أى مجال تعبيرا فى صورة محرفة عن مصـالح الطبقات الاقتصادية فى أتون الصراع · وحتى لو كان ذلك صحيحا فليس له أية علاقة بصحة الأفكار موضع المناقشة · بل وأكثر من ذلك لم يقدم ماركس سببا واحدا لاستبعاده النظريات الأخرى فى السجن العقلى للايديولوجية واعفائه نظرياته الخاصة من نفس الوضع ·

وسيساعدنا فى تقييم نظرية ماركس حول الايديولوجية أن نميز بين :

(أ) أصل ونشوء الأفكار ·

(ب) معنى الأفكار ·

(جـ) قبولها (اعتناقها) ·

(د) مدى صدقها لكى نحدد ارتباط الظروف الاجتماعية والصراعات الطبقية بكل تعريف ·

(أ) المعلوم عن نشأة الأفكار قليل جدا ، وهذا مجال بحث علم النفس الفردى • وربما تتكون الأفكار سببيا من خلال أحد الأشياء فى بيئة الفرد أو خبرته ، اعتمادا على ايحائه ، ذكائه ، التقاليد ، المخـزون المعرفى • وربما تثير البيئة المتشابهة اسـتجابات متباينة لدى أفـراد مختلفين • ومن الحقيقى ، أن الأفـراد ذوى المصالح المختلفة عندما يكونوا على وعى بها وبحقيقة صراعهم ، فانهم بالمثـل يختلفون فى تفكيرهم المتعلق بالسياسات والبرامج المرتبطة بهذه المصالح • ولكن هناك مساحة واسعة من التفكير تتضـمن بشـكل ما المصالح الشخصية وخاصة المصالح الاقتصادية • وحتى عندما يتعلق الأمر بالمصالح الاقتصـادية المتصـارعة فالناس لايكونون دائمـا على وعى بالصراع وربما لايكفرون بشكل مختلف ازائها •

(ب) لايمكن فهم معنى النظرية دائما من خلال مجرد تحليل العبارة التى استخدمت للتعبير عنهـا وبمعـزل عن الطريقة التى استخدمت بها وعن سياقها • وأحيانا تكون الكلمات الدالة key words غامضة ولكنها تكون هامة فى الغالب لملاحظة كيف يتصرف الناس ويسلكون لكن ترى ما الذى تعنيه آفكارهم وعقائدهم بالنسبة لهم • وقد تؤثر الاختلافات والتباين فى الموقعوالوضع الاجتماعى فى الطـريقة التى تؤول بهـا العبارات والقضايا ذوات النسيج الاجتماعى •

(جـ) يتأثر مدى قبول مجموعة من النـاس لأفـكار معينة وتفضيلها اياها على غيرها بمفهومها عما تحمله هـذه الأفكار من تأثير على مصالحهم بصرف النظر عن صحتها

من عدمه · وربما يكون منتجو السجائر آخر من يؤمن بالنتائج التى توضح تأثير التدخين على الاصابة بسرطان الرئة · وتكمن هنا اسهامات ماركس الدائمة فى دراسة التاريخ وبذور أفكاره خاصة المتعلقة بالعدل الاجتماعى والرفاهية العامة ، طبيعة الانسان وغاياته الأصلية ·

(د) تعتبر صحة الأفكار أو عدم صحتها ، صدقها أو زيفها مستقلة تماما عن أى نوع من المصالح الاجتماعية أو الاقتصادية حتى عندما تدور مثل هذه الأفكار حول المصالح · ولهذا فان التحدث عن «حقائق طبقية» أو «علم طبقى» سواء كان «رأسماليا» أو «بروليتاريا» أو عن علم احياء «فاشيستيا» أو «شيوعيا» أو «ديمقراطيا» يعد من قبيل الوقوع فى تناقض المصطلحات وجزءا من الهمجية والبربرية الثقافية ·

وتنطبق الملاحظات السابقة ليس فقط على النظرية الماركسية للايديولوجية ideology بل تنسحب أيضا على معظم مفاهيم علم اجتماع المعرفة sociology of knowledge والتى استلهمت فكرها من ماركس ·

٨ ــ ماركس الانسان :

هناك شيىء ينبغى الاشارة اليه فى نهاية هذا التقييم حول ماركس الانسان ، فلقد كان هدفا للتأليه والتقديس اللانقدى وللبغض العنيف · ويظهر كلاهما التأثير بعيد المدى لشخصيته ولأفكاره ــ ذلك التأثير الذى لايقدم المنظور الأفضل للتقييم الموضوعى ·

وهناك تباين غريب بين شخصية ماركس العامة

والخاصة . فهو فى المقام الأول تأثر ويفصح معظم ماكتبه عن مزاج ثورى حاد ومتبرم . لم يدفعه الفقر ولا الاحبـاط وعدم السعادة فى علاقاته الشخصية الى التنكر لما كان يميز سيرته المألوفة . ولقد اختار مهمته تأسيسا على ما اعتقد أنه حقيقى حول طبيعة المجتمع وعلى العملية الضرورية لتغييره. وكان شعاره النضال . ورغم حقيقة آن نمط حياته يختلف قليلا من حيث دلالته ومـذاقه وقيمه عن أولئك المحـافظين والذين ازدراهم ، الا أنه اعتبر نفسه فى حرب مع الأعراف والتقاليد السائدة فى المجتمع . وكان قادرا على الحب الفائق والصداقة والتضـحية الشخصية ، ولكن كان ذلك معـلوما وظاهرا فى اطار الدائرة الوثيقة الارتباط به من أسرته وحوارييه السياسيين . ومن الناحية العقلية اتسم بالتغطرس تجاه الآخرين ، مفرط الحساسية ازاءالنقد ، ولايميل لدحض الافتراءات والأكاذيب . وأمـا اذا دعت الضرورة فلديه مقدرة خارقة على النضال الصارم . كان يهتم بتقييم الناس فى ضوء الدور الممكن لهم فى المعارك السـياسية الراهنة فقط ، باعتبارها حلقة مرتبطة بالنضـال الدائم من أجل الحرية الانسانية منذ القدم وحتى الوقت الحاضر .

ولقد مجد بروميثوس (١) Prometheus فى أحد كتاباته المبكرة باعتباره «أول قديس وشهيد فى تاريخ الفلسـفة» وربمـا اعتبر ماركس نفسـه كبروميثوس فى الطـابع الرومانسى الحالى فى القرن التاسع عشر .

لقد كان ماركس الانسـان الذى عاش وفقا لأفكاره .

---

(١) بروميثيوس بطل اسطورى اغريقى تجرأ وسرق النار من الاله زيوس وعـلم البشر كيفية استعمالها ، استخدم رمزا فى تاريخ الفكر والأدب والفن على مخاطرة الابداع والابتكار ، ففى الموسيقى مجده بيتهوفن بكونشيرتوا فى البيانو وعادة ما يستخدم لوصف الأعمال التجديدية - (المترجم) .

وبدون الوقوع فى أى خطأ وبلا تجنى يمكن القول أن حاسة من الاستقامة الخلقية كانت تؤازره مقنعة باحساس يسمو ونفاذ البصيرة • الا أنه كان فظا تجاه خصومه السياسيين وكان يفسر اختلافهم مع آرائه على أنه انحلال أخلاقى وارتداد أو حماقة سياسية • وبلا شك آن حياته المفعمة بشظف العيش هى التى استثارت هذه السمات غير المستحبة فى شخصيته • فلقد مات أحد أبنائه متأثرا بنقص التغذية المزمن • ولعدة سنوات اعتمدت الأسرة فى مأكلها على مساعدات انجلز وعلى القروض والرهونات •

ورغم رفض ماركس الاحتكام الى المبادىء الأخلاقية ، كان لديه احساس متقد بالظلم الاجتماعى وتوهج هذا الاحساس فى كل كتاباته • وسيكون من المضحك له اعتباره يقف على خط واحد مع الأنبياء اليهود ، ولكنه كان يتحدث أحيانا عن قوانين التاريخ كما لو كانت عقابا من الاله «يهوه» JEHOVAH للمجتمع الفاسد الظالم ، وعن الثورة الاشتراكية كما لو كانت مقدمة مأساوية لحكم الهى جديد •

ولم يكن ماركس فخورا بجنسيته أو قوميته • اعتبر نفسه أوروبيا وأعجب كثيرا بالشعراء التراجيديين اليونانيين ، وبدانتى Dante وشكسبير Shakespeare وبلزاك Blzac كان ماركس ديمقراطيا راديكاليا لايضع فى حسبانه ارادة الأغلبية غير المستنيرة ، فردى النزعة بحده ولم يعر اهتماما لفكرة الانضباط الحزبى أو الولاء لأى شىء فيما عدا ذهنه الخلاق • وسيصبح المهيج والمحرك العقلى فى أى مجتمع بطوباثيته الاشتراكية socialist utopia . والتى من نبت خياله الجامح • ولقد عبر عن شخصيته بدقة عندما اختتم مقدمته لرأس المال capital بفقرة من دانتى :

«امض فى طريقك ، ودع الناس يتحدثون»

الفصل الثالث

الماركسية السلفية (الارثوذكسية) *

كاوتسكى ـ بليخانوف ـ دى ليون

خلف كارل ماركس تراثا عقليا خصبا وغامضا فى نفس الوقت • يجهله قطاع عريض من العالم المتحضر • ولقد جاء معظم أتباعه المعاصرين له من مثقفى الطبقة الوسطى أساسا ، فنشروا أفكاره وآكسبوها شعبية ووضعوها موضع التطبيق لتوجيه النضال السياسى والاقتصادى للطبقة العاملة الاوروبية • وأصبح مدعاة للفخر اعلان ماكان فى السابق مجرد نظرية سرية وهوطقة حلقة سرية غير شرعية ، حتى ولو كان فهمه غير كامل ،فلقد أصبح نظرية لأحزاب الجماهير فمجرد موت ماركس كان الحزب الالمانى القوى قد ظهر لحيز الوجود • وتقلص تأثير برودون وباكونين Proudhon — Bakunin فى فرنسا • وتكون الحزب الماركسى بقيادة جويسدى ولافارجوى Guesde, Lafargue وحتى فى انجلترا برز للوجود الاتحادى الاشتراكى الديمقراطى social democratic federation بقيادة هندمان Hyndman وبلفورت باكس Belfort-Bax

ولقد استحضرت الترسانة العقلية «للاشتراكية العلمية»

(★) فضلت ترجمة Orthodox marvism بالماركسية السلفية لدقة الدلالة على المعنى المراد وهو تبنى الثوابت الفكرية والحرص على النسق الفلسفى الموروث وعدم تجاوزه وان جاء على حساب ما يرد فى الواقع من متغيرات ، ولم يؤخذ ترجمة عدنان الجابرى (الماركسية السنية لضيق المعنى وخصوصيته الدينية • (المترجم)

واستعين بها لتقوية وتدعيم المطـالب العفـوية للعمال فى اوروبا الغربية جول العدالة الاجتماعية · لكن ينبغى تفسير النظريات الماركسـية قبل وضـعها موضع التطبيق نظـرا لغموضها وتعقيدها · بل كان يتوجب مواجهة النقد المتزايد للماركسـية مع تنـامى الديمقراطية الاشـتراكية social democracy وأكدت التفسـيرات والتـأويلات السـائدة للماركسـية الوليدة · والتى يطلق عليها هنا «الماركسـية السلفية ــ الارثوذكسية» ــ على تلك الملامح لتفكير ماركس وهى الحتميـة أو الجبـرية deterministic والتطـورية evolutionary ، الديمقراطية democracy وظل هذا الاتجاه مهيمنا حتى الحرب العالمية الأولى ·

ولقد أكد انجلز ذاته على اتجاه التطور وأشار اليه وهو أول وأعظم الماركسيين السلفيين والأرثوذكس ، ويظهر ذلك فى كتاباته النظرية أو بياناته الحـركية ، فلقد كتب قبيل وفاته «نحن ، الثوريين ، الانقلابيين ــ ننمو ونزدهر فى ظل الأساليب الشرعية أفضل كثيرا مما فى ظل الوسائل غير الشرعية والتخريبية» ولكنـه لم ينكر بأية حـال حق الاشتراكيين فى حمل السلاح فى حالة لجوء الطبقة الحاكمة ذاتها للعنف والقوة لتعطيل الدستور أو ابطال والغاء الفوز البرلمانى للعمال وحلفائهم ·

ومن المفيد مناقشة تأويل وتفسير الماركسـية السلفية «الارثوذكسية» فى كتابات ثلاث شخصيات من بلدان ثلاثة مختلفة اختلافا عميقا عن بعضها البعض ، آلمانيا ، روسـيا والولايات المتحدة ولكى نوضح مدى انتشار هذا الاتجاه · سنعرض بايجاز لآراء كارل كاوتسكى Karl Kautsky جورج بليخانوف Georgi Plekanov ودانيل دى ليون Daniel de Leon

١ ـ كارل كاوتسكى

(١٨٥٤ ـ ١٩٣٨)

ظل كارل كاوتسكى الزعيم المنظر للدولية الاشتراكية الديمقراطية international social democratic لاينازعه فى ذلك أحد حتى وفاته . ولقد اتسمت كتاباته بالرصانة وتوهج الوعى أكثر من اتصافها بتألق الاسلوب وعمق الفكرة ولم يمنعه ولاؤه لماركس وانجلز من ادخال تعديلات وتنقيحات على بعض التفاصيل فى نظرياتهم . ولكنه اعتبر نفسه مريدا مخلصا من الألف الى الياء . وأطلق عليه عند منتصف عمره «أحد أفراد الحرس القديم للماركسية الارثوذكسية» . وفى عام ١٨٨٣ عام وفاة ماركس ، أسس كاوتسكي وحرر جريدة «العصر الحديث Neue Zeit » والتى أصبحت المصدر القيادى النظرى للماركسية فى العالم أجمع . واحتدمت المناظرات والمناقشات الاشتراكية عبر صفحاتها لمدة الخمسين عاما التالية وقد لعب كاوتسكى دورا تعليميا رئيسيا فى تربية واعداد جيلين من الماركسيين ، بالاضافة لعمله الصحفى البارز ونشاطه العام ، وجعل نظريات ماركس الاقتصادية فى متناول العامة وقام باصدار الكتاب الرابع من «رأس المال» لماركس ، وقام بعدة تطبيقات مستقلة للمادية التاريخية . ومن بين أعماله المنشورة توجد دراسات كرست لدراسة المدينة الفاضلة لتوماس مور Thomas More ودراسة

احدى الطوائف المسيحية البروتستانتية Anta baptists (١) والحروب البيزنطية ، ودراسة الصراع الطبقى فى مرحلة الثورة الفرنسية ، وأصول وينابيع المسيحية • فيما عدا الدراسة الأخيرة ، يتسم معظمها بالابتذال ولكنها تلقى الضوء على أحداث ظلت لوقت طويل تدرس وتتناول فى اطار ضيق دينيا وسياسيا •

(أ) نظرية التاريخ :

ويعد «المفهوم المادى للتاريخ» والذى ظهر عام ١٩٢٧ من أنضج أعمال كاوتسكى بل ومن أفضل التفاسير التى عرضت للموضوع فى أية لغة • فلقد أخذ على عاتقه فى هذا العمل صياغة الاطار المنهج للنظرية وتبويبها بعد بلورتها من الحالة البدائية التى تركها عليها ماركس وانجلز • وأجاب على الانتقادات والاعتراضات التى وجهت اليها ، وقام بتصحيح المفاهيم الخاطئة عنها ، وقدم تعريفات مفيدة، وأولى اهتماما وادراكا أكبر لتعقد العملية التاريخية أكثر مما كان مألوفا فى كتابات الاشتراكية الديمقراطية التقليدية • فعلى الرغم من الاعتراف بمبادرة والدور المبدئى للفعل الانسانى وارادته ، فيظل التأكيد منصبا على أولوية وسيادة الظروف الاقتصادية الموضوعية التى تقرر وتجبر ارادة البشر فى التو أو مؤخرا على المضى فى الاتجاه التاريخى الذى حددته لهم • فالبشر يقاتلون ويتعبدون ويستأنسون الحيوانات ، ولكن الاختلاف فى قواعد ومبادىء الحرب والدين والزواج يعتمد مبدئيا على اختلاف البناء الاقتصادى للمجتمع • فلو كان ممكنا معرفة كنه المستقبل اقتصاديا ،

---

(١) طائفة بروتستانتية تشترط اعادة تعميد البالغين وتتشدد فى شروط الانضمام للكنيسة . (المترجم) •

فيمكننا ان نعرف ماينبغى آن يكون عليه انسان المستقبل ٠
(راجع النص رقم ٨) ٠

أكد كاوتسكى فى كتابه هذا وفى أعماله الأخرى على مفهوم النضج أو الاستعداد التاريخى ووجـه نقده للتسرع الثورى ونفاذ الصبر ، حتى عندما يكون له باعث أخلاقى ، ورثى لمحاولات اقتحام القمم غير الممهدة للتقدم الاجتماعى بدلا من تمهيد واجتياز الطريق مرحلة تلو الأخرى ٠ ولقد جادل ليس فقط ضد الثوريين الاشتراكيين الذين يحاولون فرض حلم باهر عن المستقبل على أناس غير مؤهلين له ، بل أيضا ضد الثوريين الذين يحاولون استرجاع ظروف مرحلة ماضية ، مثل قادة ثورة الفلاحين الذين فشلوا فى مهمتهم ، فالاشتراكية حتمية ولكنها لن تآتى الا فى وقتها المناسب ٠

أنكر كاوتسكى ــ بدون أية دلالة ــ آن الحزب الاشتراكى الديمقراطى باعتباره حزبا ماركسيا يكون حزبا ثوريا ٠ ولكنه قد ميز وفرق بين الحزب الثورى والحزب صانع الثورة٠ فالثورة لاتصنع ولاتفتعل ٠ الثورة تحـدث كنتيجة تلقائية للعملية الاقتصادية والاجتماعية والتى لايمكن للانسان أن يفعل سوى القليل لكبحها وارجائهـا آو استباقها والتعجيل بها ٠ «نحن نعرف أن هدفنا لايمكن انجـازه الا من خـلال الثورة ونعرف أنه ليس بمقدورنا خلق هذه الثورة الا بقدر ضئيل وبالمثل ليس بمقدور معارضينا والمناهضين لنا منعها أو الوقوف ضد حدوثها» ومن غير المجدى محاولة احـداث مايأتى حتما بأى شكل ٠ وكل ماعـدا ذلك لا طـائل من ورائه ، ولهذا فان من العبث تحويل الأحزاب الاشتراكية الى منظمات سرية تآمرية ٠

وتكمن صعوبة وجهة النظر القائلة بحتمية المستقبل فى

اعتبار الجهود العقيمة لتجنب حدوث هـذا الحتمى أو للتأثير فيه حتمية بالمثل • ولهذا فانها لاترسى أية قاعدة للقرارات السياسية العملية فى الحاضر او اعتبارها آساسا للسياسات المعلنة للمستقبل ، الأمر الذى لايمكن لأى حزب سياسى تجنب وتجاهل القيام به • فربما تكون الثورة الاشتراكية حتمية ، ولكن كيف يمكن انجازها ـ هل بالمصادرة التـامة للملكية الخاصة لوسائل الانتاج أم لقاء تعويض معقول سواء دفعـة واحدة أو تدريجيا ؟ واجابة كاوتسكى فى مثل هذه المواقف هى دفاعه عن البديل الذى يوسع وجود وامتـداد الممارسة الديمقراطية والذى يعتبر واعـدا بقـدر كبير من الاقرار السلمى للمسائل موضع الخلاف • يظهر الصراع الطبقى فى كل حدث ، ولكن يعتمد نشوبه واندلاعه فى جانب منه على الأقل على المثل الأخلاقية moral ideals التى يحملها العمال عن الضال وأيضا على مستوى المدنية والحضارة civilization, culture الموجودة فى المجتمع وفى آى عصر • وتوضـيحا لما ذكره آنفا فضل كاوتسكى التعويض على التجريد ومصادرة الملكيـة وذلك كى يمنـع وقـوع الثـورة المضـادة counter-revolution وحدوث العنف ، ورأى أن استخدام وسائل معينة لم يكن حتميا : وهـو لم يعتقد أن الغـايات والأهداف تعتمد على وسائل لمدى معين ، والغـايات أيضـا ليست حتمية •

(ب) البرنامج الزراعى :

وضع ماركس الزراعة فى اطـار نقـده الاقتصـادى للرأسمالية • وتوقع أن النزعة نحو المركزية والتى آكد عليها بالنسـبة للصـناعة ستنسحب على الزراعـة • وأن الميكنة والزراعة العلمية ستؤدى الى اتساع المزارع باستمرار حتى

تدار وتشغل كالمصانع · وستختفى المزارع الصغيرة ، وسيصبح المزارعون عمالا فى المزرعة ــ المصنع Factory farm laborers وسيقودهم صراعهم ضد النبلاء الزراعيين الى ادراك أنهم يشاركون البروليتاريا الصناعية فى المصالح المشتركة ·

كان ماركس صائبا فى توقعه للتأثير الهام للرأسمالية وللعلم على الزراعة ، ونشأة المزارع الضخمة ، والاضمحلال النسبى لأهمية الزراعة فى مجمل الاقتصاد · ولكنه أخطأ خطأ قاتلا فيما عدا ذلك فى كل مايتعلق بالبرنامج الزراعى الاشتراكى · فلم يختف الفلاحون والمزارعون كطبقة ولم يصبحوا بروليتاريين ورغم الانخفاض النسبى فى عدد أصحاب الملكيات الصغيرة الفردية ، الا أن العدد الاجمالى ظل كبيرا لدرجة أن الفلاحين والمزارعين كطبقة كانوا قادرين فى الغالب على ممارسة تأثير سياسى ربما أكبر من تأثيرالطبقة العاملة وأحيانا أكبر من دورالرأسماليين ــ وانجلترا استثناء ملحوظا من باقى البلدان ·

ورغم الادعاء المتواتر ب «فناء الفلاح» الا انه لايوجد دليل حتى اليوم على تحول وتغيير وضعية الفلاحين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وفقا لما توقعه ماركس · ولقد اختفت «الحياة الريفية المتخلفة البلهاء «idocy of rural life من البلدان الرأسمالية كنتيجة للثورة التكنولوجية لا الثورة الاجتماعية كما توقع ماركس آن يحدث فى ظل الاشتراكية ·

وتوضح كتابات كاوتسكى حول المسألة الزراعية الاسلوب والطريق الذى سلكته الماركسية الارثوذكسية فى تمسكها بعقيدتها ولو على حساب ماتنوء به من تبعات سياسية ولكنها عندئذ تضطر لتغيير التأكيد على نقاط معينة ليصبح البرنامج

الحزبي وفقا للخط الملائم للأحداث السياسية أكثر من ملاءمته للنظرية الموروثة • وبدأ كاوتسكي دفاعه الصارم والحاد عن موقف ماركس في مواجهة نقاده البرجوازيين والاشتراكيين • ولكن بعد أن تزايدت قوة الفلاحين شدد كاوتسكي من عدائية البرنامج الاشتراكي • وبدأ يتخذ تدريجيا موقفا ذا روح ماركسية مع بعض الآراء المحورية لماركس • وأنكر وجود زيادة مستمرة بمعدل مرتفع في الانتاج الزراعي • وتساءل ما اذا كانت الزراعة قد حققت النسب المتفوقة في الانتاج كنتيجة للعملية الاقتصادية بمفردها • لأن ذلك قد تحقق في الاتحاد السوفيتي بوضوح كنتيجة للقرار السياسي • ولم يكن كاوتسكي واثقا مثل ماركس من التفوق العالمي للزراعة الشاسعة بمقارنتها بزراعة المساحات الصغيرة وتؤثر العوامل الاجتماعية على القدرة الانتاجية • تأثيرا مختلفا عن العوامل الاقتصادية الصرفة • وعندما تكون العوامل الاجتماعية متماثلة ، يؤدى استخدام الميكنة الحديثة والتكنولوجيا الزراعية الى تحقيق أقصى معدل له في المزارع الضخمة وأكثر مما يتحقق في تلك الصغيرة والتي تعمل بالطرق التقليدية • ولكن في تحلل وانعتاق مروع من ريقة ماركس ، وفي معرض مناقشته للثورة الزراعية في روسيا ذكر كاوتسكي أنه «عندما تعمل كل من المزارع الضخمة والصغيرة بنفس الأدوات المعروفة ، فان المزارع الصغيرة تؤكد دائما أنها الأسمى والأفضل ، لان مصلحة الفلاح في عائد مزرعته أعمق من مصلحة العامل الأجير في عمله بالمزرعة الضخمة» ــ ويمكن افتراض ذلك بصرف النظر عمن يمتلك المزرعة الضخمة سواء كان دولة أو بارو Baron

وضع كاوتسكي عدة ادعاءات مثيرة ، مثل ادعائه بأن التنظيم البالغ الدقة للزراعة يتطلب نتيجة لتغير واختلاف

الظروف درجة عالية من المهارة والقدرة على اتخاذ الرأى والقرار من جانب عمال الزراعة بشكل أكثر مما تتطلبه الصناعة من عمالها • ويمكن آن يلائم عمل ماركهام Markham «الرجل ذو العزاقة «man with the hoe » على المزرعة ذات خط الانتاج التجميعى assembly-line بشكل أفضل من المزرعة الحديثة • وفى النهاية ، يعترف كاوتسكى بأن التكنولوجيا والمعدات العلمية يمكن توظيفها توظيفا مربحا فى المزارع الخاصة متوسطة الحجم •

لم يضع كاوتسكى المضامين الكاملة لكل هذه المسلمات فى تصوره • لانها تفترض امكانية أن تترك الزراعة تحت ايدى الملكيات الخاصة الى حد كبير فى ظل الاقتصاد الاشتراكى الديمقراطى ، وهذا مالايمكن أن تتحمله عقيدته الارثوذكسية • ولكنها تفسر لنا ضمن آسباب أخرى ، لماذا أدان كاوتسكى الجماعية الاجبارية بالنسبة للزراعة فى البلاد الشيوعية ليس فقط لانها صورة من الظلم البربرى ولكن لكونها تبديداً وتبذيراً اقتصادياً وانصافاً لكاوتسكى ينبغى ألا ننسى أنه وبرغم كتاباته الأولية المبكرة حول المسألة الزراعية ودفاعه عن الرغبة فى تأميم وخلع الصبغة الاشتراكية على الزراعة ، الا أنه أكد جازما على ضرورة أن يكون التعاون الاختيارى voluntary cooperation بين الفلاحين أنفسهم شرطا ضروريا للبرنامج الاشتراكى •

وحتى لو وجدت صيغة التأميم الزراعى الخاصة التى دافع عنها كاوتسكى والتى تختلف عن تلك التى اقترحها ماركس • فحتى يتسنى فهم برنامج كاوتسكى ، ينبغى أن يضع القارىء الأمريكى نصب عينيه اختلاف الاسلوب الذى كان يعيش به الفلاحون الاوروبيون فى مزارعهم عن

الأسلوب الذى يمارسه الفلاح الأمريكى ، فهم كانوا يعيشون فى مستعمرات قروية صغيرة غالبا ماتزال من الحقول • ولقد اعتقد كاوتسكى أنه حتى فى ظل نظام الزراعة الاشتراكية• والذى تدل مسلمات كاوتسكى الخاصة على أنه غير ضرورى — ينبغى أن تبقى المنازل والبنايات المحيطة بها وحدائقها المزروعة فى الفناء تحت الادارة الخاصة للفلاح ، وتظل فى اطار الملكية الخاصة له كما كانت فى عصر الملكيات الاقطاعية الشائعة ، وفى الجانب الآخر ينبغى زراعة الحقول زراعة جماعية على أيدى الجماعة ككل» •

ومن أهم الأسباب الظاهرة لاعتقاد كاوتسكى ورغبته فى تحقيق الزراعة الاشتراكية ضرورة امداد سكان المدن فى اوروبا الغربية المكتظة بالسكان بالقدر الكافى من الغذاء ، ولايطبق هذا الأمر بالتأكيد على معظم البلدان الأمريكية ، وربما لايكون ذلك مقنعا بالنسبة لاوروبا فى حالة تطور التعاون الاقتصادى العالمى •

ومناقشة موقف كاوتسكى حول المسألة الزراعية من زاوية النقاط الأكثر اثارة وبرغم عدم اكتمال برنامجه وعدم الاتساق والتضارب الذى يتخلله ونزوعه الى الارثوذكسية النظرية ، والا أنه يعتبر مرنا وواعيا بالملامح الانسانية للموقف ومؤكدا على مبدأ الاختيار والارادة والتعاون ، ويتميز بالعقل المتفتح لاثراء الحلول ورفض الاذعان لفكرة اعتبار الجماعية التعاونية أفضل نمط انتاج زراعى وأفضل من الأشكال الأخرى الخاصة والمختلطة وفى كل الظروف •

(جـ) الديمقراطية :

ولقد زعزع ميل كاوتسكى واتجاهه نحو البرامج النوعية المتخصصة من قناعته بالحتمية التاريخية للاشتراكية وخصوصا عندما تقدم به العمر • فلقد كان طيلة حياته مؤمنا بوضوح بأن الديمقراطية والاشتراكية صنوان لاينفصمان • فالشكل الذى يتم به تطبيق تأميم الصناعة أو اقامتها على أساس اشتراكى هو الذى يحدد مضمونها • ورغم تحذير كل من ماركس وانجلز فى معرض مناقشتهم لاعتبار مؤسسات الدولة وكأنها الاشتراكية ، الا أن كاوتسكى أوضح ذلك وجعله محور مناقشته ككل • فالذى يحدد ما اذا كان التأميم خطوة للامام آو للخلف هو شكل عملية التطبيق ، أسلوب الادارة ، درجة مشاركة العمال فى وضع أهداف الصناعة وظروف العمل باختصار نشاطات النقابات العمالية الحرة فى المجتمع الديمقراطى من الوجهة السياسية «فالاشتراكية تهدف الى تحقيق التحرر والوجود الأفضل للطبقة العاملة ، وعندما يصبح التأميم لصالح هذا الهدف ينبغى تأييده ، ولكن عندما لايضعه فى حسبانه ينبغى ألا نؤيده وكتب قبيل وفاته آن «الديمقراطية هى آقصر الطرق وأوثقها وأقلها تكلفة لبلوغ الاشتراكية ، وأفضل السبل لتطور الشروط السياسية والاجتماعية لتحقيق الاشتراكية • وأن الديمقراطية والاشتراكية عروة لا انفصام لها» •

لقد كان كارل كاوتسكى أول من آكد على الحقيقة التى حرفها لينين مؤخرا والتى مؤداها أن مثقفى الطبقة الوسطى هم الذين يثورون على مشاهد التفسخ والاهتراء الانسانى الذى أفرزته الثورة الصناعية ، وتضطرم بداخلهم الرؤية الأخلاقية لمجتمع لايوجد فيه آى استغلال للعمل ، وهم الذين

قدموا أمثال ونموذج الاشتراكية للبروليتاريا • ولم يجد ماركس ولا انجلز الطبقة العاملة باعتبارها تضفى فضائل وقيماً خاصة على أعضائها • لان الطبقة العاملة لم تكن بالنسبة لهم مرادفا «للبروليتاريا» أو «لعمال الصناعة» والبروليتاريا هى صاحبة المهمة التاريخية لتحقيق التحرر والانعتاق الاقتصادى ، وليس من أجل أن تنتقل هى ذاتها الى طبقة حاكمة جديدة تقهر الآخرين بل لتقضى على حكم الطبقة • وأفرادها ليسوا فقط أكثر من يوضع فى معترك النضال استراتيجيا من آجل السلطة السياسية ، لكنهم أيضا كما يؤكد كاوتسكى الرسل والدعاة الواعين بالمثال الأخلاقى وبامكانهم احراز السلطة السياسية بفضل الدور الذى يلعبوه فى عملية الانتاج • ويمكنهم فى الواقع الفعلى وبفضل وعيهم وانضباطهم واستقامتهم الأخلاقية آن يفوزوا على غالبية المجموعات الأخرى فى الطبقة العاملة ، وآيضا على أغلبية السكان فى النهاية •

ولقد صاغ كاوتسكى تعريفا ذا آربعة حدود من بين تلك التعريفات الفصفاصة الشاملة للمصطلح «الطبقة العاملة» الأول ، انها البروليتاريا المأجورة wage-earning المفتونة بذاتها آخلاقيا ، الفخورة بمهاراتها فى العمل ، المحنكة سياسيا ، الواعية بمسئولياتها التاريخية ، والثانى ، ان اللا بوبروليتاريا آو البروليتاريا الرثة (١) lumpen proletariat التى ربما يشعر المرء بالشفقة تجاه أعضائها، والتى شوهت وأفسدت لدرجة آنها تستخدم فى الغالب

---

(١) اللابوبروليتاريا أو البروليتاريا الرثة ـ تتناقض بانتمائها الطبقى مع دورها السياسى وبنيتها الفكرية والقيمية نتيجة لتخلف الوعى وتشوشه ووقوعها تحت براثن الدعاية البرجوازية كما توضحه لنا الأدبيات الماركسية حول وضع الطبقة العاملة فى العالم الثالث ـ (المترجم) •

كأدوات طيعة للرجعية • والتعريف الثالث أن البروليتاريا هى الجماهير العريضة التى عرفها ماركس على أنها الطابع المتخلف للبروليتاريا وهم مثل البروليتاريا يكدون لكسب أجرهم . ولكن وعيهم السياسى فى مستوى البروليتاريا الرثة والتعريف الرابع والأخير أنها الطبقة التى تستجدى الصدقة beg for alms وهـم على أية حـال ، يستجدون العمـل • ويتعاونون مع أصحاب العمل ومستخدميهم ويقرون بفضلهم، ويعتبرونهم كأصحاب فضل ومحسنين يهبونهم اجرهم أكثر من كونهم مسـتغلين لهـم وفى النهـاية ، هنـاك العمـال الارستقراطيون labor aristocracy أو البروليتاريا الماهرة المعنية فقط بالحصول على فائدة احتكار مهاراتهم من أجـل العائد الشخصى غير مبالين بسعادة ورخاء أولئك غير المهرة أو المتعطلين الذين يعانون البطالة ، وهـم مثقلون بتفوقهم وعنصريتهم وتعصبهم الشـوفينى chauvinistic وولائهـم للعمل ورأس المال ولقد عبر كل من ماركس وكاوتسكى عن ازدرائهم واحتقارهم لهؤلاء العمال البرجوازيين الأدعيـاء bourgeoisifield الرأسماليين الصغار الفاشلين •

ويبدو واضحا من خلال هذه التعريفات أن البروليتاريا قد اقتطعت عملا شاقا لنفسها وكم هو شاق ، حقا لدرجة أن المرء يتعجب كيف يمكنها النجاح فى تعليم وقيادة مجمل الطبقة العاملة وأيضا كل القوى المقهورة دون أن تستسلم سواء لقوة أولئك الذين ينظمون قواهم ضدها أو لما يسـببه نجـاحها الفائق من افساد لها • ولكن سواء كان معقولا أم لا ، ساذجا أم غير ذلك ، فان مجمل مفهوم دور البروليتاريا قد تخلله الاحساس بضرورة القيادة الأخلاقية الناجحـة للبروليتاريا من خلال السبل التعليمية ، وليس عن طريق العمل الانقلابى coupd'etat من أعلى قمة الهرم الاجتماعى كما اعتقد كل من

بلانكى Blanqui وباكونين (١) Bakunin ونيكاثيف Nechavey وربما تكون الافتراضات التى أقام عليها ماركس وكاوتسكى اعتقادهم محض أوهام ، ولكن هذه الأوهام تتأكد وتتحقق فى اعتقادهم بسمو وعقلانية وشجاعة الانسان ٠

لم يقدم ماركس أو كاوتسكى أية نظرية أخلاقية تتوافق مع مفهومهم حول القيمة والفضيلة العليا الكامنة فى انتصار البروليتاريين ٠ بل ونظريتهم التاريخية وخصوصا كما فسرت على يد كاوتسكى تجعل من الصعب معرفة سبب البحث عن أى تبرير أخلاقى طالما أن مفاهيم الناس حول الصواب والخطأ هى مجرد تعبيرات البنية الفوقية عن المصالح الاقتصادية ٠ ومادام القانون المزعوم الذى يحدد تتابع وتعاقب المصالح الاقتصادية سيحدد أيضا تتابع وتعاقب الانسان والمنظومات الاخلاقية ٠ فان «الاسمى ـ الاعلى» ستعنى فقط «التالى أو اللاحق وضمنيا ، وعلى أية حال ، توجد فى آراء وأطروحات ماركس السياسية وبالمثل كاوتسكى العديد من الفروض الأخلاقية التى لايمكن تفسيرها فى اطار النظرية المادية التاريخية الا اذا فسرت المادية التاريخية بطريقة تسمح بقبول أكثر مما هى عليه ، أى بقبول التأثير التاريخى المستقل نسبيا للمثل الأخلاقية بعيدا وبصرف النظر عن أصولها ومنابعها المزعومة ٠

يبدو عقم وافلاس تحليل كاوتسكى للمسائل والقضايا الأخلاقية واضحا بصورة قاطعة فى نقده لكانط وأطروحته

---

(١) اجست بلانكى (١٨٠٥ ـ ١٨٨١) اشتراكى فرنسى وسط بين الماركسية وفوضوية برودون شارك فى ثورة ١٨٣٠ وتعاون مع ثورة ١٨٤٨ ومن مؤلفاته الوطن فى خطر ، الأندية والكواكب ، الجيش المستعيد ، النقد الاجتماعى ٠

ميخائيل باكونين (١٨١٤ ـ ١٨٧٦) اشتراكى وفوضوى روسى كان المتحدث باسم جماعة المهاجرين الاشتراكيين الروس فى أوروبا عام ١٨٦٨ ، ثم انضم للأممية عام ١٨٧٣ ثم انفصل من ماركس ، وتدعو نزعته الفوضوية لالغاء الدولة والدين والزواج ٠

بأن الرغبة فى الاشتراكية تكمن فى حتميتها ، ويفترق هذا قليلا عن التناول الهيجلى لمأثرة شيللر ·

وان الاشتراكية حتمية ناتجة عن حتمية انتصار البروليتاريا ، وهذا يرجع لحتمية الصراع الطبقى وينبع ذلك بدوره من المحرك الحتمى لزيادة القوى الانتاجية لأجل ولصالح الدافع الحتمى لمضاعفة الفائدة والربحية يوجد هنا وكما فى أى موضوع آخر من الماركسية عنصر من التصوف الصرف Sheer mysticism والتعويل على الحتمية الكونية والعملية الاجتماعية الذى منح المرء تلقائيا مثله وقيمه الأخلاقية ، المثل التى قدمت بشكل زائف عبر الحقيقة الكونية والفرضيات الاجتماعية ·

٢ ــ جورجى بليخانوف

(١٨٥٦ ــ ١٩١٨)

لو كان كاوتسكى عميدا للاشتراكية الديمقراطية الارثوذكسية فان بليخانوف هو أستاذها البارز والقيادى • فبعد بداية مبكرة فى دوره الجماهيرى ،أصبح المؤسس والمعلم الأول للحزب الاشتراكى • الديمقراطى الروسى والذى تطور من داخله الجناح البلشفى والجناح المنشفى bolshevik and menshevik wings ورغم خصومة لينين وعدائه السياسى لبليخانوف مؤخرا ، الا أنه أشار له باعتباره أعظم المفكرين وعيا فى الحركة الاشتراكية • فلقد ساهم بليخانوف فى مناقشة بعض مشاكل الماركسية المطروحة ، مثل دور الفرد فى التاريخ ، مكانة الفن فى المجتمع ، وطبيعة فرضياتها الفلسفية • وتخصص بليخانوف فى الرد على الانتقادات المعادية للماركسية •

ولقد أكد بليخانوف فى تناوله النظرى للماركسية على طابعها الأحادى النظرة monistic وحذا حذو انجلز محاولا ربط الماركسية برؤيته للعالم • وتظهر كتاباته سعة اطلاع ملحوظ واحساس بثراء وتعقد الظاهرة الثقافية • ولكنه تحمس للعقيدة النظرية حتى عندما تكون النظرية غامضة، تطغى على فطنته وحذره المنطقى • ولقد خلط بين الشروط الضرورية والكافية وأقر بالتسليم غير مدرك أنها تتناقض

مع نظرياته الأساسية ، ونادرا ماواجه الانتقادات الجوهرية بثبات ٠

(أ) الفرد فى التاريخ :

قادت اهتمامات بليخانوف النظرية وشئون وقضايا السياسة العملية الى بحث مشكلة دور الفرد فى التاريخ ٠ وباعتباره مفكرا ماركسيا ، اتخذ جانب المواجهة ضد بعض المجموعات الثورية الروسية التى مجدت نشاط الارهاب والعنف الفردى ضد الاستبداد القيصرى ، لم يجد آية صعوبة فى تحديد العبثية السياسية للعنف الفردى كسلاح للانقلاب الاجتماعى . فقد يمكن تخفيف حدة نظام الحكم الاستبدادى عن طريق الاغتيال ولكن لايمكن اقتلاعه واحلال بديل عنه ولكن فيما يختص بالمسألة الأساسية ٠ ما اذا كانت حياة وأفعال فرد ما أكثر فعالية وحسما من القوى الاجتماعية فى تحديد حدث ضخم لدرجة أنه فى حالة غياب الفرد فان الحدث موضع التساؤل لن يقع ، وظل بليخانوف حائرا لم يصل للاقتناع ٠ وأوضح أن دواعى الفعل البطولى والشروط التى يحدث فى ظلها لايخلقها البطل ٠ ويعتبر هذا ردا واضحا وحاسما على موقف مثل موقف كارليل Carlyle ولكنه ليس وثيق الصلة بالسؤال الذى لم يطرح : هل البطل أو الفرد البارز يصنع التاريخ ككل أو يخلق ظروف نشاطه ؟ لكن السؤال المطروح هو : هل البطل يعيد صياغة التاريخ أو تحديده ؟ وهل نمط التطور التاريخى كان سيحدث بنفس الطريقة لو أن البطل لم يوجد قط ؟؟

يبدو أن التاريخ الروسى وبسبب طابعه الاستبدادى يمدنا بدليل ظاهرى على بعض الأفعال بعيدة المنال تحققت على أيدى حكامه ، خصوصا بطرس الأول Perer The Fist

وكاترين الثـــانية Catherine II ولو لم يتقلدوا منـــاصبهم أو يتبوأوا الســـلطة لم يكن بالامـــكان تحقيقها فى عصرهـــم · ويقودنا انكار الدور الذى قد يلعبه الفرد لاعـــادة صياغة التاريخ باعتباره نقيضا متميزا ازاء العـــوامل الأخـــرى ، يقودنا لوجهة النظر القائلة بأنه ليس هنـــاك قائد ذو دور جوهرى فى تحقيق أى حدث تاريخى هام سواء كان خيرا أم شرا · ولو كان من المعتقد أن تعدد العوامل المؤثرة فى العملية التاريخية لايمكن تمييزها · أو تحديد الوزن النسبى المنسوب اليها فعندئذ لايمكن اقامة أى حكم ســـببى فى التـــاريخ ، وتصبح النظرية المادية التاريخية والتى ترى أن سبب وعلة كل التطـــور التاريخى تكمن فى التغيير فى نمط الانتـــاج الاقتصادى ، تصبح هذه النظرية زائفة وهراء لا معنى له ·

ويؤكد بليخانوف أنه لاينظر للفرد باعتباره قوة مهملة فى التاريخ · والانسان العظيم هو مجرد مصادفة «ويعتمد قدر الامة أحيانا على المصادفات التى ربما تســـمى أحـــداثا عرضية من الدرجة الثانية» وهذا التسليم يحطم النظـــرية الواحدية للتاريخ ، ولكن يبدو أن بليخانوف لم يكن يعبـــأ بذلك · وأكد أن الأحداث العرضية من الدرجة الثانية ليست من قبيل الصدفة هى ذاتها أحداث سببية علية فليكن حقـــاً تماما ولكن عندئذ سيكون السؤال : ما اذا كانت علل وأسباب وجود الرجال العظماء وهم الأحداث العـــرضية من الدرجة الثانية ـــ أسباب اقتصـــادية أكثر من كونهـــا بيلوجية ، أو ســـيكولوجية أو دينية ، أم لا ؟؟ يجيب بليخانوف بأن «فى التحليل النهائى» لايمكن تفسير فاعليات وآثار عمل الرجل العظيم الا فى اطار وحدود القوى الاجتماعية لعصره (اقرأ ملحق رقم ٩) ويعتبر هذا الرد مجرد ignoratio elenchi ايجابة على سؤال مختلف تماما عن السؤال المقصود ويتجاهل

ببساطة السؤال حول تفسير وجود الرجل العظيم · ولكن بالتأكيد فان تأثير نابليون Napoleon كان محددا ببيئته الاجتماعية ، الحقيقة البديهية التى تحدد تأثير أى فرد · ولكن ما الذى يفسر الاختلاف بين تأثير الانسان العظيم وتأثير الانسان العادى ذى القدرة الوسطى mediocrity ؟ ربما تختار البيئة الاجتماعية وتنتقى رجلا عظيما ، ولكنها لن تقدر أن تنتجه وتخلقه ·

واضطر بليخانوف مجبرا بعقيدته الارثوذكسية المتصلبة والأحادية النظرة أن يعتقد فى قدرة القوى الاجتماعية للعصر وللمرحلة التاريخية ليس فقط على اختيار الرجل العظيم بل على خلقه وصياغته ، وان تاريخ آى مرحلة كان سيحدث كما هو تقريبا أيا كان الأفراد الذين عاشوا ولكن مجمل تاريخ الماركسية وتأثيرها عبر التاريخ من ماركس وحتى لينين وستالين يدمغ ذلك بالكذب ·

(ب) الفن والثقافة :

طبق بليخانوف نظرية المادية التاريخية فى بحثه لمسائل واشكالات علم الجمال ، ليس بهدف امتحان مدى صدقها بل لكى يوضح ويثبت زعمها وادعاءاتها · ووفقا لرأى بليخانوف فان تاريخ الفن فى أكثر مناحيه المتميزة يمكن ارتباطه بتاريخ التطور الاقتصادى ،ليس فى مجمل تفاصيله بل فى اطاره العام ، وذلك ليوضح أن نمط الانتاج يشرح نشأة وتنوع واختفاء الأشكال الفنية ، وتقلب وتغير قيمها وتذوقها ، وتغير معايير الابداع الجمالى · وعلى الرغم من تأكيده أنه لايبحث عن اقامة ارتباط مباشر بين الفن والاقتصاد ، الا أن نقده يوضح بشكل ثابت الدليل على المبالغة فى التبسيط ، وتأكيد وتركيز لا مبرر له على العامل

الاقتصادى وميل للتعميم الغير لازم · وعلى سبيل المثال · فى تناوله للفن البدائى أكد أن مفهوم «الجمال» مشتق من صفة «الثمين أو النفيس «percious » » وما قد اعتبر أنه الأثمن فهو دائما حقيقة أو عامل مشتق من البيئةالاقتصادية الراهنة للقبيلة وكان بليخانوف محقا فى انكاره لكفاية الطبيعة البيولوجية للانسان لتفسير تنوع مضمون الخبرة الجمالية ، ولكن لم يكن لديه مبرر فى افتراضه أن «الثمين أو النفيس» هو دائما «الاقتصادى» · وحتى الانسان البدائى ربما يجد لذته أو بهجته الجمالية فى الأعمال الدينية ، العسكرية ، أو الجنسية أو أهداف ارضائه واشباعه ولقد اعتبرت معادن وأصداف معينة منها الذهب أشياء نفيسة وثمينة حتى فى حالة كونها غير نافعة أو تعتبر آثمن من آشياء أخرى نفعا وفى بعض الحضارات يفضل نماذج وأنماط زخرفية معينة فى الشكل واللون وهى غير مشتقة من نماذج وأشكال ذات هدف نفعى أو «اقتصادى» ·

وتظل مناقشات بليخانوف للفن الحديث أقل اثارة للاعتراض بمثل ماتبقى عند مستوى الوصف وبمجرد أن يقدم تفسيرات سببية ينحرف عن طريق الصواب · ولسوف يسلم بتأثير عوامل نفسية خاصة ودينية وبشكل واضح عوامل غير اقتصادية على العمل الفنى ولكنه عندئذ يؤكد أن هذه المؤثرات «فى نهاية المطاف» آو «فى التحليل النهائى» يمكن ارجاعها فى الوقت المناسب للعلل الاقتصادية التى هى أسباب حاسمة · ولن ينهار بليخانوف ويتهاوى فقط أمام الواقع فى محاولة ارجاع هذه المؤثرات غير الاقتصادية الى علل وأسباب اقتصادية ،ولكنه سيتغاضى ويتجاهل حقيقة أنه لو نجح فى هذه المحاولة فانه لن يتمكن من اقامة تلك العلاقة بينهما ويبدو ذلك وكما لو آن شخصا ما يرى فى

مناقشة السبب «النهائى» أو الحاسم لموت ضحية صدمه سائق وهرب ، ليس ذلك السائق المخمور الثمل ولا سرعة السيارة التى صدمت الشخص الضحية ولكن السبب النهائى الحاسم هو الرأسمالية لان الويسكى والسيارات سلع • وطالما أن للاسباب ذاتها عللا وهى بالتالى لها أسباب الى ما لا نهاية ، فان البحث عن سبب نهائى أو «علل فى المرحلة النهائية» سينتهى أما عند «علة أولى first cause وهى (فكرة لاهوتية) أو عند سلسلة لانهائية من العلل ذات الوجود الكلى ـ الذى لن يفسر شيئا معينا لانه يفسر كل شىء •

(جـ) الديمقراطية والديكتاتورية :

تعتبر أوجه النقص والعيوب النظرية لبيخانوف سمة عامة للحركة الاشتراكية الديمقراطية فى عصره ، ولقد أفادته كثيرا عقيدته الارثوذكسية فى مجال السياسة العملية وجعلته فى موقف أفضل • فلقد أكد فى أحد كتاباته المبكرة على ضرورة وجود رأسمالية متطورة داخل روسيا كلازمة أساسية وشرط أولى متقدم وسابق على مرحلة الدخول فى الاشتراكية وان محاولة بناء الاشتراكية فى بلد متخلف سيكون مصيرها الفشل • فلو فرضت الاشتراكية بالقوة ، هكذا كتب بليخانوف فى وقت مبكر عام ١٨٨٤ وبمسحة تنبؤية ، فانها ستقود لا محالة الى «فساد وتشوه سياسى ، وبعد مثال الامبراطورية البيروفية Beruvian والصينية ، سيتجدد ويعود ثانية الاستبداد العنصرى مغلفا ببطانة شيوعية» •

وعلى الرغم من ذلك ، ولان الاشتراكيين الديمقراطيين كانوا يناضلون ضد الاستبداد السياسى الذى أنكر حتى حقهم فى اعلان دعايتهم السياسية • لم يكن بليخانوف واضحا

ولا متسقا فى مفهومه عن «ديكتاتورية البروليتاريا» وساهم فى غموض الديمقراطية المفترضة ضمنا للحركة الماركسية ·
ولقد فسر المفهوم أحيانا وكما لو أنه سيقنن ويشرع التضحية بالعملية الديمقراطية من أجل مصالح البروليتاريين وسيوسع ذلك مدى الامتيازات الديمقراطية للجماعات غير البروليتارية التى فى انتظار مدى القوة التى ستبلغها الحكومة البروليتارية وحتى الأغلبية البرلمانية قد لايمكن تجاهلها بعـد الثورة ·
وعلى الجانب الآخر ، فلقد حقق أحيانا مصالح البروليتاريين معتمدا على توسيع الحقوق الديمقراطية لكل الجمهور · ولقد اختفت على أية حـال وقبيل وفاته كل آثار الغمـوض فى موقفه ، وفى عام ١٩١٧ أصبح مناوئا صريحا لأية ماركسية مهما تنوعت لاتقر صراحة أنه حالما يتم الاطاحة بالاستبداد السياسى تقام فى التو مركزية العملية الديمقراطية ولكن بمـرور الوقت وصـل دوره وتأثـيره السـياسى لنقطـة التلاشى ·

٣ ـ دانيل دى ليون

(١٨٥٢ – ١٩١٤)

يعد دانيل دى ليون من الشخصيات الهامة فى التاريخ الماركسى ليس فقط بسبب اسهاماته الذاتية واضافاته للتراث الماركسى ، ولكن لأسباب عديدة منها انه افضل مثال أمريكى للعقيدة الارثوذكسية للاشتراكية الديمقراطية ، وفى أنقى صورة ، وهو الشخص الذى خاطر وتجرأ بالتعبير عن أكثر صورها وأشكالها العقائدية • فلقد كان دى ليون عقائديا متعصبا حتى انه ظل يرثى لوقت أطول فى غضون عام ١٩١١ للوحدة التى دشنت عام ١٨٧٥ وبين الجماعتين الاشتراكيتين الالمانية lasalleans and eisenachers باعتبار هذه الوحدة تكتلا أظهر صحة المبادىء الاشتراكية ولم يساعد الاصلاحات الديمقراطية أو الثورة الاشتراكية • وبرغم عدم موافقة ماركس وانجلز على هذا التكتل •

أكد دى ليون على نقاء المبدأ وعلى صلابة الحزب والتنظيم ، مهما كان صغيرا فهو مدعم ومحصن باعتقاد متقد ومتوهج ويبدو أحيانا كأمنية دينية اعتقاده بأن قوانين التطور الرأسمالى ستقوم بكل العمل المطلوب من أجل الثورة الاشتراكية • وكان مدعوما أيضا بتطورية اجتماعية سائدة فى أمريكا ابان الربع الأخير من القرن التاسع عشر والتى تتشابه تشابها وثيقا مع قوانين النشوء والارتقاء

البيولوجي · فالطبقات الاقتصـــادية تقــارن بالأنــواع البيولوجية ، والصراع الطبقي يقــارن بالصراع من أجــل البقاء · وأعلن دى ليون أن «القوانين التى تحكم المجتمع تجرى وفقا لخطوط موازية أو متطابقة تماما مع تلك التى وضعها العلم الطبيعى فى عالم الاحياء» ·

ويرى دى ليون ضرورة اقتصار دور الحركة السياسية على مجرد كونها شكلا دعائيا form of agitation يسجل ويعلن مدى ماقد تعلمته الطبقة العاملة من تدهور النظام الرأسمالى· ولاينبغي عليهــا أن تحصر نفســها فى المطــالبة بالتحسين والاصلاح الراهن التدريجى للمساوىء الموجودة فالاهتمام بأشياء من هذا القبيل مثل الضرائب والاســكان ، التشريع الاجتماعى يعتبر شيئا بغيضا · لانهــا ستكون فخا وشراكا ووهما يحجب عن العمال حقيقة تنامى وتزايد عملية افقارهم الأبدية؛ «ان التنظيم الثورى لجيلنا ينبغى ألا يكون وسيطا أو توفيقيا un compromising كأى تنظيم قد ظهر من قبل فى أية مرحلة تاريخية فهو يطالب باستسلام النظام الرأسمالى غــير المشروط بالغاء عبودية الأجر : والابادة الشاملة لحكم الطبقة هى هدفه ، لاشىء أقل من ذلك سواء كان كخطوة أولى مؤقتة، أو أى نوع آخر من الخطوات · يمكنه فى وقت لاحق أن يلقى تقديرا فى معسكر الثورة الحديثة» · ووفقا لدى ليون سيتم الوصول للاشتراكية دفعة واحدة ــ ولكنها ليست من البساطة ولا وضاعة الشأن بل لا مفر من تلك الشروط المفرطة فى التعقيد بحيث تتطلب ان يصبح التمثيل الســياسى للطبقة العاملة محــرزا للاغلبية فى الكونجرس congress وعنــدئذ سيؤجل انعقاده لأجل غير مسمى Sine die وتســلم مقاليد حكم الأمة الى الاتحــادات العمــالية · والنقابات الضــخمة والمنظمة ليس تبعــا للخط المهنى crat بل عــلى آســاس

الخطوط الصناعية ولسوف يستبدل التمثيل النيابى تبعا للتقسيم الجغرافى بالتمثيل النيابى تبعا للتصنيف المهنى ٠ وبمعنى خاص يمكن اعتبار دى ليون أول من عارض فكرة الحكم السياسى للنقابات الصناعية والتى تطورت فيما بعد بشكل مستقل فى روسيا على هيئة مجالس السوفيتات soviets (راجع النص رقم ١٠) ٠ وعارض دى ليون بصرامة الاشتراكيين الذين يسعون لاحراز اصلاحات فى وضع العمال وتحقيق الاشتراكية تدريجيا (نصف الرغيف ليس أفضل من لاشىء لان نصف الرغيف هو دائما مجرد حجر «وهاجم أيضا السندكاليين syndicalist (النقابيين) الذين رفضوا العمل السياسى لصالح أهداف مباشرة وصريحة ٠ ينبغى على الحركة الاشتراكية أن تعتنق وتتمسك بوجهة نظر شرعية متحضرة شريطة ألا تهب وتنشب أية معارضة وموجة عنف ضد تفويض الشعب ٠ فحتى ذلك الوقت كان يتوجب على الاشتراكيين كأولئك المنظمين فى حزب العمل الاشتراكى socialist labor party أن يطهروا صفوفهم من الاصلاحيين الذين يظهر الحزب على أيديهم كما لو كان مؤيدا للحلول المؤقتة والمهدئة كبديل للثورة الشاملة ، وهاجم دى ليون أسلوب تحريض العمال الصناعيين فى العالم للقيام بعمل مباشر استفزازى لانه قد يطلق العنان لحلقة ارهاب قد لاتنتهى ، ورفض دى ليون الدعوة للنقابية العمالية الخالصة والبسيطة، ودعى الى تنظيم النقابات العمالية المزدوجة والتى ستقحم نفسها فى اطار برنامج اشتراكى شامل ٠ وستصبح النتيجة تضاءل حجم حزب العمل الاشتراكى ودلالته ٠ وكلما تزايد ضعفه ازدادت ثقته وادعاءاته الماركسية القطعية ، وتمسكه بالماركسية الارثوذكسية (السلفية) ٠

وتميز دى ليون لأسباب أخرى بالاضافة لتعصبه

وأرثوذكسيته · وقد يعزى فشل الماركسية فى الاستحواز على الحركة العمالية فى الولايات المتحدة آحيانا الى طابع لغتها ، والى لغتها الاصطلاحية الغريبة · ومع ذلك كتب دى ليون مقالات واضحة وبسيطة بأسلوب أمــريكى آصــيل ، تتخلله الدعابة والفطنة الفطرية الأمريكية · واتســمت كتاباته الشائعة بالارثوذكسية النظرية ، ولكنه لم يورد فى مناقشاته أى استشهاد بنص كحجة يستند اليها · ولقد انشغل بقــدر الامكان فى التنقيب عن مواد ودلائل من التاريخ الأمريكى ليوضح به النظرية الماركسية فعلى سبيل المثــال ، اســتخدم بشكل فائق ورقة ماديسون Madison's paper فى الفيدرالى federalist ليشرح بها نظرية المادية التاريخية ، ومع ذلك لم يكن لكتاباته وأفكاره أى تأثير يذكر على الحركة العمالية الأمريكية الرئيسية · ويؤكد فشله هــذا آن الماركسية فى قالبها الارثوذكسى (السلفى) لم تكن أكثر قبولا لدى العمال الأمريكيين فى صورتها وآسلوبها ، الشعبى الجماهيرى منها فى صيغتها وأبجديتها الالمانية ·

ويختلف دى ليــون ويفترق عن معظــم الاشــتراكيين الأمـــريكيين فى المكانة المرمــوقة التى آفـــردها للالتزام والانضباط التنظيمى ، وذلك رغم حقيقة رأيه فى اقتصار عمل ودور التنظيمات الســياسية على اعــلان الحتمية وان «المبادىء والتنظيم هما شىء واحد» ، وأكد أن أى خلاف معه حول التنظيم ، وأى معارضة لقيادته ، ستؤول الى عدم ولاء والتزام بالمبادىء الاشتراكية وســتواجه بعــزل وابعــاد فورى · وفصل دى ليون المنظمات ذات النقــاء النظرى على تلك ذات الفاعلية والحركية السياسية المؤثرة ، وذلك لتجاهله مدى دور الأفكار ، كأدوات للتغيير الاجتماعى وعلى أية حال تقترب نظــريته من برهــان الخلف reductio and absurdum

بتناولها كل شيء في كل شيء ، لتجسد عقيدة الاشتراكية الديمقراطية في تأويلها وتمجيدها للتاريخ ، والتأكيد المبالغ فيه على الجبرية وتقديس الشعارات ، والتنظيم أكثر من فكر أى قائد آخر لتنظيم ثورى ففى خطاب لكاوتسكى اعترف ماركس بشك معين تجاه «الاشتراكيين الأمريكيين yankee socialists كأصحاب أفكار غريبة ومتعصبين» والاشارة هنا ليست موجهة الى دى ليون ولكن الى قدر ومصير الماركسية الارثوذكسية (السلفية) في أمريكا والذى يبدو أنه أكد وجسد حدس وتوقع ماركس ٠

الفصل الرابع

التصحيحية التحريفية (١)

برنشتاين ــ وجوريس

لم تنبت بذور العقيدة الاشتراكية الديمقراطية التى نثرت فى العالم الجديد حيث القرية القاحلة المجدبة • ولكنها ازدهرت فى بعض مناطق العالم القديم ، خاصة ألمانيا حيث نما الحزب الاشتراكى الديمقراطى الالمانى فى غضون عقود قليلة ، ليصبح قويا بدرجة لم تكن مأمولة ، وألغيت فى الحال قرارات بسمارك Bismark التجريمية ضده وقدمت الاصلاحات العادلة لعمليات الاقتراع والانتخاب بالدرجة تتيح للحزب امكانية الفوز بأغلبية مطلقة تأييدا لبرنامجه • ويتنامى الحزب فى غضون ذلك وبسرعة فائقة ، ويزداد حجم عضويته وتنظيماته المتعددة ، ويتسع مدار صحافته ويروج سوق توزيعها ، وحتى ممتلكاته الفعلية تتزايد •

وتتغير شخصية الحزب الاشتراكى الديمقراطى تدريجيا باطراد نجاحه • وأدت الضرورات اليومية للتسوية والتعامل مع الأحداث ، والتأييد الذى تلقاه الحزب من القوى والعناصر

(١) Revisionism اتجاه فكرى ماركسى تناول بالتعديل بعض المقولات الفكرية السياسية وتناول بالنقد حصيلة التجارب والخبرات العملية للنظرية وهى فى بوتقة الممارسة بغية التصحيح ويشار اليه فى الأدبيات الماركسية اللينينية على أنه اتجاه تحريفى خائن للمقولات الماركسية • ومن الملاحظ أن اطلاق ودمغ أى اتجاه تجديدى نقدى فى المستقبل بالتحريفية اصبح سمة لازمة لا يخلو منها الفكر الماركسى • وليس آخرا مما وصف به روجيه جارودى الفيلسوف الفرنسى بالتحريفية وهو أحد المنظرين المتميزين بالحزب الشيوعى الفرنسى قبل فصله منه (المترجم) •

الأخرى من الشعب ، والتعاون الوثيق مع النقابات العمالية البعيدة عن اثارة الاضطراب الاجتماعى حالما اكتسبت مصالح عـريضة فى الأمن الصـناعى industrial peace والنصر المحلى فى فوز الحزب بتنازلات سـياسية . كل ذلك تعـاون وتضافر وتآمر على تحول الحـزب الاشـتراكى الديمقراطى الألمانى ذى الثورية الواضحة الى حزب ديمقراطى اشتراكى اصلاحى النزعة . وكلما جنح نحو المزيد من الاصلاحية فى الممارسة ازداد تصلبا وتشبثا بالعنف الثورى الخطابى الذى يتظاهر به تجاه العالم .

وينبغى أن يضاف لما سبق تطـور عادات ثقافية معينة ابان القرن التاسع عشر ، أسهمت فى اضعاف النزعة نحـو الحماس الثورى واحترام الالمان الفائق نحو السلطة ، وشدة تمسكهم بحرفية القانون ، وتبجيلهم واعجابهم العميق بالأبهة والرصانة الملكية ، ولما قويت مكانة ألمانيا فى الساحة الدولية ، أخذ الغرور بنفوس معظم الشعب بمـا فيهم بعض العناصر العمالية ، بانجازات بلدهم العسكرية . ولم تستطع اجراءات بسـمارك لفرض الارهاب وتحقيق الرخاء أن تنتصر على الحزب الاشتراكى الديمقراطى . واتسـعت آفاق المكاسب السلمية اللامحدود أمام الطبقة العاملة بعد الغـاء القوانين المناهضة للاشتراكية وبدأ يسود تدريجيا الميل للاقتراب من الواقع والتعامل مع الوسط الاجتماعى ليس باعتباره شيئا يمكن تحـوله كلية من حـالة لأخـرى بل شيئا يعاد بناؤه بالتدريج ومن مرحلة الى أخرى .

١ ـ ادوارد برنشتاين

(١٨٥٠ ـ ١٩٣٢)

أدرك ادوارد برنشـتاين Edward Bernstein التفاوت والتباين الواضح بين الآراء المعتمدة والمعلنة للاشـتراكيين الديمقراطيين وممارساتهم ، وطالبهم بأهمية الوضـوح فى التحدث وفقا لما يفعلوه • ولقد أثارت كتاباته جدلا واسعا لم ينقطـع ليس فى ألمانيـا فقط بـل فى كل مـكان كان للماركسية أى تأثير فيه • وعندما بدأ يدبج ملاحظاته النقدية حول التفكير الماركسى السائد ، ادعى أنه سيكون المدافع عن ماركس الحقيقى والفعلى ضد أولئك الذين حنطوه وأصبح على أيديهم سجين قالب جامد ـ وفى الغـالب بنفس طريقة وليام أوكام (١) William Ockham الذى استأصل بنصله حلق الأرسطية الوسيطة مدعيا أنه قام بعمله تحت لواء أرسطو الحقيقى الفعلى • وبمرور الوقت أصبح برنشتاين غير قادر بأية حال على اقنـاع الكثيرين أنه قد قرأ ماركس بشـكل صحيح ، ولقد أنكر برنشـتاين ادعـاء أنه وريث العبـاءة الماركسية ودافع عن مصداقية ورسوخ موقفه أكثر من دفاعه عن أصالته الماركسية authenticity

---

(١) ويليام أوكام فيلسوف مسيحى وسيط باعث المذهب الاسمى فى القرن الرابع عشر ، ويتلخص فصله فى القول « لا يتبغى أن تكثر من افتراض كائنات بدون مبرر » واتخذه برتراند راسل الفيلسوف التحليل المعاصر أداة لمنهجه التحليلى (المترجم) •

ويعـد أصـــدق تعبير عن روح واتجـاه برنشـتاين التصحيحى (التحريفى) للماركسية الارثوذكسية (السلفية) تلك الجملة المشهورة الواردة فى كتابه الرئيسى المنشور فى بداية القرن الحالى (١) «ان مايسمى بغاية وهدف الاشتراكية لايعنى شيئا بالنسبة لى ، فان الحركة والفعل هى كل شىء» ومايعنيه برنشتاين بجملته هذه ليس كونه معـارضا لمثـل وغايات الاشتراكية بل معارضته لأى مفهوم صوفى غامض لها ، ولوجهة النظر التى تستشرف وتستبق التحقيق المفاجىء لهذه الغايات الاشتراكية فى التاريخ عقب ثورة عنيفة والتى من المحتمل ألا تمضى فى مسارها وفقـا للمثل والأهـداف الاشتراكية • وتصبح اسيرة التعليق باللفظ ومجرد الكلام الأجوف عن النصر النهائى الشامل للاشتراكية مؤديا بذلك اما الى النفاق السياسى فى حالة عدم تجسد ذلك فى سلوك فعلى وآثار عملية ، أو الى المغامرة فى حالة تشجيع المطالب المستحيلة والمطلقة • فالشخص الذى يضع نصب عينيه الصحة البدنية والعقلية كهدف قد يكابد لبلوغه فى وثبة واحدة أو من خلال تمارين وتدريب سريع ومختصر • أو ربما يتحدث عنه ويتوق له بدون أن يطرأ على سلوكه أى تغيير يذكر وفى كلتاالحالتين تعتبر الصحةكما لو كانت شيئا منفصلا ومستقلا عن عملية الحياة اليـومية • ولكن يعتقد الى حـد بعيد ، أن الصحة المثالية تكمن فى الوظيفة الرئيسية للكائن الحى فى مجمل عمله يوما بعد يوم • ويزداد نمو المرء ويصبح أكثر صحة فى غضون هذه العملية بدون الاستمتاع بالصحةالمطلقة أو الانشغال بشأنها • وفى كلمات أخرى ، فان الصحة تشير الى مسار عملية أكثر من دلالتها على نهاية سلسلة • كما هو الأمرفيما يتعلق بهدف الاشتراكية •ووفقا لما يراه برنشتاين

---

(١) المقصود هنا هو كتابه « الاشتراكية التطورية »

ليس مهما ما اذا كانت الحركة الاشتراكية ستصل لأهـدافها المعلنة ، المجتمع اللاطبقى clessless والذى يوظف فيه مبدأ الاخاء كمبدأ للعدالة والمساواة وسيصبح العلم ذا تطور عال لدرجة أن مبدأ تقسيم العمل لن يظل فعالا · بل المهم فقط هو حقيقة اثراء الحركة الاشتراكية المستمرة لحياة العمال ــ بحيث تزيد مجال مشاركتهم فى الحياة السياسية والصناعية، وتوفر لهم الحصول على مساكن أفضل ، وبناء التعاونيات ، ورفع مستوى معيشتهم وتحقيق أمن متزايد لهم ، وتحويل التعليم من سلعة للطبقة المترفة الى سلعة عامة متاحة لكل من لديه الاستعداد للتعلم ، ويأتى عقب ذلك تطوير تقديرهم واحترامهم لذواتهم self-respect فالاشـتراكية أسـلوب وطريقة حياة تمارس وتعاش ويستمتع بها هنا وفى الحال ، وليست شيئا يقدس كنهاية للتاريخ ·

لفت برنشتاين الانتباه لحقيقة دور الاصـلاحات التى تتحقق نتيجة لضغط النقابات العمالية والحـزب الاشتراكى فى تغيير شكل ومدى شراسة الأوضاع الاقتصادية للرأسمالية كما تنبأت بها الماركسية الارثوذكسية · واستنتج من ذلك ومن الظواهر الاجتماعية الأخرى انه بامكان العمال كسب المزيد من الحلفاء والمزيد من الانتصارات عن طريق توسيع الوسائل والأساليب الديمقراطية وذلك بشـكل أفضل من التحريض والدعوة لممارسة الحرب الطبقية · فالصراع الطبقى مباطن وكامن فى النظام الاقتصادى · ولكنه ليس بحـاجة لاتخاذ شكل العنف · ونتيجة لذلك جعل برنشتاين البرنامج الاشتراكى تابعـا للعملية الديمقراطية ومصـالح الطبقة العاملة وسيلة لزيادة خير ورفاهية المجتمع ككل ·

أثارت كتابات برنشتاين هجوما عنيفا وحادا عليه فى صفوف الحركة الاشتراكية الديمقراطية الالمانية وهرب بشق

الانفس من محاولة طرده على أيدى أولئك الذين شعروا انه امتهن المعتقدات النظرية والمصطلحات الفنية لبرنامج الحزب بل جرده من أسلحته القاطعة · وقد يعد ذلك حقيقيا ولكن ليس بمعنى تأثير نظريات برنشتاين على فعالية السلاح النضالى للحزب الاشتراكى الالمانى أو أنها غلفته وأحاطته بغلالة من الرفاهية · ولكن بمعنى أنه قوض المهمة والرسالة التاريخية للحزب · فمن الصعب أن تصمد الأفكار الصوفية الغيبية أمام الأحماض الاكالة للاحكام التجريبية · وما أنقذ برنشتاين من الابعاد والطرد من الحزب ليس كونه صديقا لانجلز أو كل رجال الحزب وكبار مسئوليه ، بل تأييد قيادات الحركة النقابية العمالية الالمانية لانهم كانوا متحررين من التحيز الحزبى · وشعروا أن برنشتاين يعطى تفسيرا صحيحا لواقع الحركة الاشتراكية فى ألمانيا ، واعتقدوا أن السياسة التى يدافع عنها ستتيح تكيف وملاءمة تلك الأفكار الحادة والمبالغ فيها مع ماهو عادى ومألوف بالنسبة للعالم ومرضى فى الوقت ذاته ·

اكتسب برنشتاين ابان سنوات نفيه فى لندن من البيئة والمناخ العقلى الانجليزى عدم الميل والابتعاد عن التجريد غير الملائم للوقائع والأحداث حيث لايمكن تمحيصه من خلالها وعدم اعتبار التاريخ كمعيار للقيم · وانعكس ذلك على جهده الدءوب لبلورة التراث النظرى لماركس وتنقيته من الآثار الهيجلية وأدان (الدياليكتيك) الجدل dialectic باعتباره تعويذة ، ودافع عن الجانب النقدى للعقلانيين الفرنسيين مفضلا اياه على محاولتهم تقديم تفسير تاريخى للأحداث يقتصر على عقلنة ماقد حدث · والأهم ، هو انكاره ارجاع التبرير الأخلاقى للاشتراكية واشتقاقه من ضرورات التطوير الاقتصادى والصراع الطبقى · فهناك أساليب

صحيحة وأخرى خاطئة للنضال من أجل الاشتراكية ، وليس بالامكان استنباطها فقط من النتائج الاقتصادية للعمل الانسانى أو من استراتيجيات السلطة السياسية • وينبغى تفضيل التسوية التى تفضى الى معاناة انسانية أقل وتمهد الطريق نحو المزيد من تخفيف هذه المعاناة ، بدلا من النصر الذى تصاحبه معاناة انسانية مروعة •

أكد برنشتاين بدون انكار العلاقة الوثيقة بين الدراسة العلمية لطبيعة الاقتصاد الرأسمالى وللمجتمع وبين البرنامج الاشتراكى ، ان الحركة الاشتراكية باندفاعها وتعصبها وحماسها تعتقد فى امكانية التقدم والتحول الى نمط انتاجى مختلف عن ذلك القائم والى نظام لتوزيع السلع والخدمات ، مرتكزة فى اعتقادها على مبادىء أخلاقية • ان تطور الرأسمالية يجعل الاشتراكية شيئا ممكنا وليس مجرد أمل وشيئا مرغوبا فيه ، وهى تصبح مجرد رغبة ومطلب نتيجة للسعى نحو العدالة والرغبة فى الحرية والاخاء العميق بين كل البشر ، والسعى نحو فرص متساوية أمام كل الأفراد لتنمية شخصياتهم نحو الأفضل • واعتقد برنشتاين بضرورة الحاق كانط Kant كمتمم ومكمل لماركس • وبمعنى آخر تعتبر المصطلحات والحدود الأخلاقية فى تعبيرات الماركسيين مجرد نفاق محض • وبالتالى يمكن تفسير التبعات والمشاق والتضحية بالذات التى يتحملها الاشتراكيون فى نضالهم من أجل مجتمع أفضل تبعا للتناول التصحيحى «التحريفى» وليس تبعا لضغط القوى المادية والمصلحة الذاتية •

ليس هناك أى انسان يموت فى سبيل قضية ، كما قد فعل الاشتراكيون العلميون ، غير عابئين بالمصلحة الذاتية ، وبشكل خاص لانهم لم يضعوا فى حسبانهم الحياة الأخرى

here after ولانهم اعتبروا بعض الأشياء أثمن وأفضل من الحياة ذاتها • وحث برنشتاين الحركة الاشتراكية على ادراك أن سياساتها الفعلية اصلاحية وليست ثورية ، وبالمثل ان من بين البواعث الرئيسـية لنشـاطاتها الواجبات الأخـلاقية المستمرة مع تلك الأفكار المعلومة فى التاريخ الطويل والعام للتحرر الانسانى من الجهل والاضطهاد •

ورغم اتهام برنشتاين بكونه « انتهازيا opportunist» ومرتدا backslider الا أنه دافع عن الأفـكار الاشـتراكية والديمقـراطية بشجاعة وثبات تفـوق العـديد من نقاده ومهاجميه من الماركسـيين الارثوذكس وكان ناقدا دائمـا للسياسة الخارجية الالمانية وواحدا من الزمرة البرلمانية التى رفضت التصديق على اعتمادات الحرب العالمية الأولى • وكان رجلا ذا شرف واسـتقامة عقلية ، لم يعكس الحقيقة لأجـل حزبه ،مستعدا دائما لاعادةانتقاء واختيار مبادئهوامتحانها بمثل ماهو مستعد لنقد مبادىء الآخرين • وكان متسامحا فى كل الخلافات النظرية وأكثر اعتدالا مع معارضيه منهم معه • ولسوء الحظ ، فان وجهة نظره هى التى أصـبحت تدريجيا « الوجهة الرسمية للحزب الاشتراكى ـ الديمقراطى الألمانى ابان عصر جمهورية ويمار (١) welmar republic واغفلت روح التســامح والجســارة والعزيمة لديه • وكان قدر برنشتاين ان العديد ممن بدوا وكأنهم يوافقونه على مسلكه التصـحيحى » التحريفى « ويعتنقون الاصـلاح » ولكن على اساس عملى ضـيق وليس على اسـاس اخلاقى كما هو لدى برنشتاين ، فمن السهل لهم والأقل اقلاقا لراحتهم ولمحافظتهم على القديم ان يكونوا ديمقراطيين ، وأن ـ يسلكوا مسارا

(١) سبقت استيلاء هتلر وحزبه النازى على مقاليد السلطة فى مطلع الثلاثينيـات من هذا القرن •

وسطا ، وان يتقدموا ببطء وتدريجيا ولكن عندما أصبحت الديمقراطية مجرد رهان ومغامرة فى جمهورية ويمار ، وعندما لم يعد الطريق الوسط سهلا بل أصبح أكثر تحديدا وصرامة ، وتطلب الأمر الايمان والحماسة والشجاعة البطولية لحماية وانقاذ التقاليد الراسخة والمعقولة للمجتمع ضد التعصب سقط الكثيرون وتباعدوا عن اشتراكية برنشتاين • ولقد مات برنشتاين نفسه قبل اسابيع من تحطيم جمهورية ويمار بين المطرقة والسندان او شقى رحى الشيوعية والفاشية • « ترى لو ظل حيا » هل سيبقى ضمن اولئك الذين دافعوا عن مبادئه ومواقفه الديمقراطية حتى النهاية •

٢ ـ جان جوريس

(١٨٥٢ ـ ١٩١٤)

كان جان جوريس شخصية أكثر وضوحا ومجاهرة بالاشتراكية التصحيحية «التحريفية» وهو الزعيم الاشتراكى الفرنسى الكبير الذى سقط صريعا برصاصة غادرة عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى • ورغم أنه اعتبر نفسه ماركسيا ، الا أنه أعلن «أن الماركسية ذاتها تتضمن الوسائل التى يمكن بها الاضافة اليها بالتعديل والمراجعة» ـ وهو الرأى الذى يتصدر دوما نقد الماركسية الارثوذكسية «السلفية» • ولم يخف جوريس البته معارضته للماركسية الارثوذكسية ، بل وفوق ذلك عرفانه بدينه لها ، وجدير بالذكر أنه كان أكثر حدة من برنشتاين فى نقده لماركس وانجلز ، خصوصا فيما يتعلق بالمسائل التقنية الاصطلاحية، فلقد ركز برنشتاين فى الأساس على عدم صدق وتحقق تنبؤات ماركس تبعا لتطور الأحداث • بينما أكد جوريس على خطأ بعض هذه التوقعات حتى فى الوقت الذى طرحت فيه •

ولقد استلهم جوريس اشتراكية من منابع غير ماركسية ـ المثالية الفلسفية الألمانية ـ اليوتوبيا الفرنسية utopianism ورغم أنه تقبل المادية التاريخية كأداة للبحث التاريخى ، الا أنه رفض المادية الفلسفية بكل ضروبها • فالعالم والكون لديه أكثر من كونه مجرد تنظيم وتركيب للمادة أو مجرد

طاقة متحركة عمياء بلا اتجـاه تتحول من حالة لأخرى ففى الواقع ان الكون كان باعثا للمثل الانسـانية والولع بالحب والعدالة مشـيرا بذلك على تكونه من مبدأ روحى ، لأنه لا يمكن لأى شىء ان يصـبح واقعيـا ما لم يكن ممكنا وكامنا ومباطنا كلية فى الحاضر • وهذا المبدأ يبعث ويهب الحيـاة لكل الموجودات ، وبرغم الصراعات الظاهرية فهو علة وسبب النظام المتطور المتنامى والانسـجام فى الطبيعة والتناغم فى المجتمع • وبدون هذا المبدأ والعامل الروحى الموحد والمؤلف والمجمع فان العالم سيظل يتحلل الى هيوليات chaos

اشـتق جوريس اعتناقه للاشتراكية ومطالبته بها من حقوق الانسان باعتباره انسانا وبأن يكون شخصا وباعتباره فرداً واحداً وبتأكيده لفرديته وذاتيته ، ويطالب للعـامل « بكل شىء ينتمى تقريبا للانسان ، الحق فى العمل ، الحق فى التطور المعقد لقدراتـه • التدريب المسـتمر لارادته الحرة ولعقله » • وسبق ان اوضـح ماركس ان التطور التاريخى للملكية جعل من المستحيل على المجتمع اتاحة كل هذه الحقوق ما لم يصبح الشكل السائد للملكية اشتراكيا • ولن تتحقق الاشـتراكية فى الملكية بمفردها فى الدولـة او المجتمع بل تستلزم العديد من الأشياء المرتبطة بها والتى تجعل العامل عضوا فعالا نشطا متعاونا ، فى النقابات العمالية ، الجمعيات المحلية التى ستمنحه كل الحقوق باعتباره شخصا ، وأيضا الأشكال المتعددة والمعقدة للملكية الاجتماعية والتى تحميه ضد الطغيان وظلم أى زمرة معينة أو طغيان الأمة ذاتها •

لقد كان جوريس اشتراكيا انسانيا يؤرقه البحث عن أساس للاعتقاد والعمل العام فى المعارضة السياسية أكثر من كونه عدوا طبقيا بل كرفيق حزبى ناقد • وكان هدفه والذى كثيرا ما خلطه بهدف التاريخ ، هو تحرير البشرية كلها من

الاستبداد السياسى ، والخرافات والأساطير الدينية ، الاستغلال الاقتصادى • وطالما ان البروليتاريا هى الطبقة التى تتكبد القسط الأعظم من المعاناة ، فان تحسين أوضاعها هو أكثر الهموم الحاحا ، ولكن المبادىء التى سيتم بواسطتها تحسين اوضاعها ستطال وتشمل كل الطبقات • وترتيبا على ذلك ، ورغم ان الصراع الطبقى حقيقة لا يمكن انكارها ، الا انه بالامكان استخدام وتوظيف التعاون والتحالف الطبقى القائم على مبادىء موضوعة للعدالة لتحقيق الاصلاحات الاجتماعية وغالبا ما كان جوريس صوت الأقلية فى حزبه ، واتهم كثيرا من قبل الاشتراكيين الارثوذكس مثل الجوسيد والبيل Guesde and bebel فى الدولية الاشتراكية ، ودافع جوريس عن التأييد الاشتراكى والمشاركة الاشتراكية فى الحكومات البرجوازية bourgeois لو كان بالامكان الفوز بالاصلاحات عندئذ وتجنب الشرور والمساوىء وشيكة الحدوث • ولقد ذهب فيما تعلق بهذه الناحية أبعد مما كان لدى برنشتاين •

كان جوريس اشتراكيا جذريا (راديكالى) Radical بسبب نزعته الانسانية لكنه لم ينضو تحت لواء الحزب الاشتراكى الراديكالى (١) واعتقد فى صدق المبادىء الديمقراطية فى كل مناحى الحياة • ويؤكد جوريس أن الديمقراطية الاقتصادية لازمة للديمقراطية السياسية ويعنى بالديمقراطية الاقتصادية ماهو أكثر من الصفقات التعاونية «فلو أصبح العامل حرا حقيقة فينبغى مناشدة العمال ليقوموا بدورهم فى تنظيم العمل • وأن يحصلوا على حصتهم فى

---

(١) الحزب الاشتراكى الراديكالى Radical Socialist party فى فرنسا حزب ارتبط ارتباطا وثيقا بتأييد الرأسمالية وتكون أساسا من الفلاحين ومجموعات الموظفين الصغار — (المؤلف) •

الادارة الاقتصادية للمؤسسة ، تماما كما يتيح لهم الاقتراع العام حصة فى الادارة السياسية للمدينة» وبمرور الوقت استكمل جوريس اكتشاف طبيعة الحكومة الاقتصادية للعمال، ومن الواضح أنه توقع اكتساب العمال لقوة متزايدة ، سواء بالأسلوب المباشر أو من خلال مجالسهم مثال مجالس الادارات •

يعتبر السلام العالمى كما يذهب جوريس شرطا ضروريا للحضارة الانسانية • ولهذا ينبغى تسوية الصراعات وحلها من خلال المفاوضات والتحكيم لا عن طريق القوة • ولاينسحب ذلك فقط على الصراعات بين الأمم بل أيضا الصراعات الداخلية للامم ذاتها • كان جوريس عنيفا حادا ومقنعا فى نقاشه وتفنيده وهجومه الموجه ضد عبادة القوة وخرافة النقابية (السنديكالية) حول الاضراب العام الذى كان له بعض التأثير على المجموعات الاشتراكية • وهزأ من فكرة فرض الاشتراكية على أية أمة من خلال أقلية ثورية • ووظف معرفته التاريخية الهائلة ليوضح أن الثورة الاشتراكية الناجحة فى الماضى «كانت ستنتهى للاشىء لو أنها لم تحدث وفقا «لارادة الأغلبية العريضة من الأمة التى تساندها» وألح جوريس بصدق يغالبه الشك أن حضور الأغلبية لن يكون من خلال سجلات الموافقة بل من خلال الأحداث التاريخية ذاتها • ولكنه كان أكثر اقناعا فى رأيه حول اقتصار دور الثورة الاشتراكية فى الماضى على مجرد نقل السلطة السياسية والشرعية للطبقة القوية والمحصنة اقتصاديا ، بينما تقتضى الثورة الاشتراكية وتتطلب تحولات اجتماعية أضخم كثيرا • وما هو أكثر الحاحا وضرورة هو الحاجة الحالية للأغلبية الثورية «ففى عام ١٧٨٩ كان للثورة عمل سلبى فقط بتعاملها مع شكل الملكية السائد بحيث يمكن القول أنها

ألغته ولم تخلق شكلا مغايرا .. أما الثورة الاشتراكية فعلى النقيض من ذلك ، ينبغى ألا تقنع بالوقوف عند الغاء الرأسمالية ، بل ينبغى أن تخلق الأشكال الجديدة والتى فى ظلها يمكن أن تدور عجلة الانتاج» .

ناقش جوريس وكما فعل الانسانيون المعاصرون ، لو كان على البشر أن يحسموا مشاكلهم بشكل ملائم وصحيح ، وليس مجرد التحدث عنها ، فينبغى عليهم أن يتعلموا ويخبروها وسيصبح متاحا لهم حق المولد لمجمل الحضارة الانسانية والعلم الحديث . ولذا ينبغى أن يتلازم حق التعليم العالمى مع حق الاقتراع العام . ولو أصبح هذا التعليم ليبراليا أصيلا liberal فينبغى عليه التحرر من أى نوع من السلطوية auhoritarianism ولذا ينبغى أن يصبح علمانيا تماما seculár أى ضرورة فصل الكنيسة عن الدولة فى العصر الحاضر فصلا واضحا ويمكن بهذه الطريقة أن يتقدم الانسان الطبيعى ، المحدود الناقص ، يتقدم ويتطور انسانيا عبر استحضاره وتمثله للمثل والقيم الأبدية الخالدة فى أية عملية تاريخية حيث تتطور فى مسار حلزونى لولبى من خلال أطوار ودورات التطور الأبدى للتعاون الاجتماعى والاضمحلال الأبدى للصراع .

نقد جوريس تأليه اليوم المجيد الذى سيشهد النهاية المفاجئة للرأسمالية وبزوغ فجر الاشتراكية ، كما فعل برنشتاين من قبله . وبينما أصر برنشتاين على عدم وجود ضمانة بحلول هذا اليوم ، كان جوريس واثقا ببزوغه . واستبدل النظرية الارثوذكسية لحتمية الثورة المفاجئة بفكرة حتمية الثورة التدريجية . وعلى أية حال ، فان تأكيد كلا المفكرين التصحيحيين (التحريفيين) ينصب على الحاضر ،

وليس المستقبل • فلقد كان من المهم كثيرا «أن تحيا فى دولة ذات سمة اشتراكية ، تعمل دوما كل ساعة ، كل دقيقة» لتعيد صياغة العالم وتصبح أكثر التصاقا بأفكارنا الاشتراكية ، بدلا من التشبث والتعلق بعزاء وسلوى أن التاريخ يسير ويمضى لصالحنا وينحاز لجانبنا واعتقد جوريس مثل برنشتاين أن نقابات العمال ، التعاونيات ، الجمعيات الخيرية ، وكل النشاطات المختلفة للطبقة العاملة ، ينبغى أن تكون مدارسا للحياة والاعاشة وفقا للاشتراكية • وبدلا من المقارنة بين الاصلاحات الاشتراكية والثورة الاشتراكية ، ينبغى أن تصبح الاصلاحات الوسائل التى بها يمكن تحقيق الثورة •

كان جوريس توفيقيا كبيرا ، وفوق ذلك رجلا ذا قلب طيب وارادة خيرة لدرجة أنه حاول أحيانا التوفيق بين المتناقضات وباعتباره دريفيوسيا متحمسا ، رأى فى الدريفيوسيين أفرادا مضطهدين وانهم جهلاء فحسب أكثر من كونهم ضعفاء • ورغم وجهته ونزعته الفلسفية الا أنه أظهر ميلا واتجاها أكثر نحو تطبيق الأفكار الاشتراكية وملاءمتها للمسائل والشئون العملية يفوق اهتمامه ببلورة وتوضيح الأفكار والقضايا النظرية وتعاطف مع أية نظرية بامكانها جذب البشر نحو الحركة الاشتراكية شريطة محافظتها على وحدة تلك الحركة والتى رأى أنهامهددة بالتفتت الطائفى والتعصب والتشدد فى التمسك بالنقاء النظرى والجمود الأرثوذكسى (السلفى) وكتب هجاء راقيا مهذبا لأولئك الذين يفضلون انضواءهم تحت ألوية اليسار بدلا من اليمين ، ولكنهقد يتحول أحيانا بأسلوببلاغى لاسترضائهم •

اتخذ جوريس وابان المناظرة الكبيرة بين كاوتسكى وبرنشتاين موقفا متميزا عن كليهما ، ولكنه كان أكثر قربا

لكاوتسكي منه الى برنشتاين» عندما أوافق كلية على كاوتسكي فبنفس الاسلوب أوافق على برنشتاين بوجه خاص» •
وباستثناء الدفاع الأخرق الواهي عن النظرية الماركسية للقيمة (التي دافع عنها جوريس باعتبارها متسقة مع اعتقاد برنشتاين في امكانية التحسين المستمر لمستوى معيشة العمال) ، فلقد تحول ايمان جوريس بالارثوذكسية الماركسية الى مجرد ذبالة خافتة أو خيط واه •

واثبات تحول جوريس أمر يسير وواضح السهولة ، بالاشارة الى نظرية المادية التاريخية التي غالبا ما أعلن جوريس أنها ليست أكثر صدقا من نظرية المثالية التاريخية• وطالب في بعض الأحيان بالاعتقاد في فاعلية نمط الانتاج الاقتصادي كسبب وعامل نهائي لتحديد كل الظواهر الحضارية وعندئذ أكد أنه لمن الصعب والعسير التمييز بين المؤثرات السياسية وتأثير العلم ، والقوى الاقتصادية باعتبارها عوامل سببية أو أن نفصل بينها لكي نفسر أى هذه الأسباب يعتبر مجرد حيلة فكرية (الأمر الذي تتطلبه المادية التاريخية) ويتضح أكثر تأكيده الجازم بأن القانون الديمقراطية ، الفلسفة ، العلم ، الفن ، رغم تحديدها بعمل العوامل الاقتصادية الا أنها ذات منطق وتاريخ تطور مستقل وهذه القضية من الوضوح والصراحة بدرجة لاتتيح لأحد فرض المادية التاريخية أو حتى الاقتناع بها ، فهي تدعى أن الظواهر غير الاقتصادية ليست لها تاريخ مستقل •ولكن ينبغي التحرز والتأكد بأن جوريس مثل الماركسيين الارثوذكس بعد ادراك التفاعل المتبادل بين العوامل المختلفة اجتماعية وثقافية أكد على هيمنة وسيطرة الفاعلية النهائية للعامل الاقتصادي • ولكن عندئذ يقلب المائدة على المادية التاريخية بادعائه أن عملية ودور العامل الاقتصادي تعتبر مظهرا وتعبيرا عن أولوية

الروح الانسانية ورغم ادعاء هيمنةوسيادة العامل الاقتصادى الا انه فى الواقع الفعلى لايحــدد ولا يقرر دائمـــا الوقائع والأحداث الثقافية ،لانه باختصار «للديمقراطية ، الكنيسة، العلم ، منطقا خاصا وبناء داخليا وقويا وآليات تطور خاصة ينبغى التعامل مباشرة معها ، بغرض تشجيعها ودفعها للأمام اذا كان عملها يمضى فى اتجاه اقتصادى مرغوب من جانبنا ، أو معارضتها لو كان عملها مناهضا أو مضادا لنا» ٠

ويعد أضخم عمل منشور لجوريس تاريخه للاشتراكية من ١٧٨٩ حتى ١٩٠٠ ، ولقــد وصف فى المجلدات الاولى القليلة تاريخ الثورة الفرنسية وصفا بذكاء وبراعة وأصالة وتأثير العوامل الإقتصادية على الأحداث السياسية بدونوضع الادعاءات المبالغ فيهــا والتى تميز كتــابات الماركســيين الارثوذكسية وربما تعد حياة جــوريس أكثر دلالة من عمله المنشور ٠ فلقد كان أفصح وأبلغ مدافع (تريبيون) tribune عن الديمقراطية الفرنسية وعن محبى السلام فى آية بقعة فى الفترة من ١٨٩٠ وحتى ١٩١٤ وكلمته الاخيرة خطاب ٢٥ يوليو ١٩١٤ ٠ كانت نداء لعمال اوروبا لايقاف الحرب العالمية الأولى ٠ وبنشره فى أول أغسطس كان جوريس قد فارق الحياة وبموته ٠ انتهت حقبة فى تاريخ الماركسية ٠

الفصل الخامس

لينين

لو لم تقع ثورة آكتوبر الروسية ، لظل أسم لينين مجهولا خارج روسيا • فقبيل عام ١٩١٧ الذى شهد الانهيار العسكرى والاجتماعى لروسيا القيصرية Czarist بعد ثلاث سنوات من الحرب ، لايوجد شىء فى تاريخ لينين يمدنا بأى دليل على دور صانع الأحداث event-making والذى سيلعبه فى تاريخ العالم فيما بعد •• فهو ليس متميزا ولا بارزا من ناحية كونه منظرا ماركسيا بالمقارنة بآخرين • بل لم يتوقع حتى وقت متأخر قبل عام من سيطرته ومجموعته على السلطة فى روسيا ، انهم سيتسيدوا هذه الامبراطورية الضخمة ويجلسوا على دست الحكم فيها ، وفوق ذلك اندهش تماما للنتائج والآثار التاريخية المتعاظمة لأفعاله •

كانت عبقريته وابداعاته فى الأساس ذات وجهة سياسية وعملية تطبيقية • ويدعمها دهاء فطرى ويوجهها ثبات واصرار حديدى على الهدف لايتبدى دوما فى المرونة التكتيكية (القدرة على المناورة) المذهلة tactical التى ميزت عمله وأسلوبه • ورغم ذلك ، اعتمد فى نزوعه للعمل بجرأة وتشدد على تأكيد معين متميز أولا للنظريات الماركسية قبل استعداد وتأهب مجموعته الصغيرة للصدام والهجوم على النظام الديمقراطى الذىأعقب انهيار الاستبداد والشمولية • وعندما واجهته فرصة الاستيلاء على السلطة ــ وهى الفرصة

التى ساعد عناد لينين وتصلبه السياسى على خلقها ـ لم تكبح عنـان قدرته وموهبته السـياسية أى عقيدة قطعية dogma حول أسبقية وأولوية الاقتصاد على السياسة · وأدى اقتناعه بالسهولة التى تم بها الاستيلاء على مراكز السلطة السياسية الى تأكيده المعلن والصريح نظريا على أهمية التنظيم الثورى والارادة الثورية بحيث خلف وراءه وقبيل وفاته مجموعات من التعاليم والمقولات والتى تكون وترسى دعائم انحراف عن أدبيات وتقاليد الماركسية الارثوذكسية ، انحراف أبعد مدى وأخطر من انحراف التصحيحية (التحريفية) التى أدانها لينين بشدة ·

١ ـ الحزب الشيوعى كسلاح

اعتمد ماركس على تطور الرأسمالية فى اكتساب الطبقة العاملة لوعيها بوجودها كطبقة فعدم الاستقرار الاقتصـادى للرأسمالية يؤدى الى غياب الأمان ، البطالة ، والجوع وسيصبح السوط الذى «يلهب ظهر الطبقة العاملة ويعمل على ايقاظها للمعارضة واثارتها لادراك وضعها الميئوس منه كطبقة طالما بقيت الرأسمالية مسيطرة وافترض ماركس الوجود المتاح لمفكرين على شاكلته يقومون بتعليم الطبقة العاملة وتوعيتها برسالتها ومهمتها كطبقة ، ويوضـحون ويحـددون الفكرة المتكاملة عن المجتمع الاشتراكى · وان هـؤلاء المفـكرين الاشـتراكيين سـيكونون روادا ومعلمى الطبقة العـاملة ـ بامدادهم اياها بالشخصيات البارزة والقيادات الملتزمة فى شكل واطار جماهيرى صريح · وأن هؤلاء الاشتراكيين لن يكونوا شراذم تقود الطبقة العاملة قيادة فوقية من أعلى أو من خلف ظهرها عن طريق الحلقات والزمر السرية ·

سبق ورأينا أن الماركسيين الارثوذكس (السلفيين) أظهروا اتجاها متواصلا لتأويل المادية التاريخية بالطريقة التى تجعل السياسة مجرد انعكاس بسيط للاقتصاد واستنتجوا من ذلك أن العمل السياسى للطبقة العاملة لايمكن أن يتجاوز تخوم الامكانية الاقتصادية بشكل ملموس • فليس يكفى التحدث عن الثورة الاشتراكية ، لكى يحمل المرء على وضع الفكرة دليل عمل جاد بحيث تصبح الرأسمالية على شفى الانهيار أو تنهار فعلا •

وعبر هذا الاتجاه عن نفسه فى روسيا بنزعة فكرية متطرفة عرف باعتباره «نزعة اقتصادية» أو «ذيلية العمل السياسى» tail-endism وهى تدعى أن الطبقة العاملة ستقدم رؤية سياسية اشتراكية ملازمة تلقائيا ومصاحبة لنضالها الاقتصادى ولذا فهى تؤكد على أولوية النضال الاقتصادى ووقف لينين موقفا مناوئا لهذه النزعة ، ورأى أن الاعتقاد فى الاشتراكية والعمل السياسى لتحقيقها لاينبثق كنتيجة تلقائية لخبرة العمال فمثل هذا الاعتقاد والفاعلية يعتمد على الدعاية الاشتراكية propoganda وتحريض الطبقة العاملة • فالوعى السياسى ليس نتاجا تلقائيا لقوانين التطور الاقتصادى • وبطريقة أخرى كيف نفسر وجود النقابات العمالية الكاثوليكية catholic trade unions أو النقابات البسيطة العمالية الصرفة مثل (A. F of L.)؟ فالوعى السياسى عامل مستقل نسبيا ولايمكن استنتاج وجوده من النضال الاقتصادى الطبقى ومع ذلك يساهم بقوة فى تحديد محصلة النضال من أجل الاشتراكية وينبغى غرس الوعى السياسى واشاعته بين الجماهير عبر نظرية ثورية (تسمى بشكل غير دقيق الايديولوجية ideology يروج ويدعو لها التنظيم الثورى الذى ينبغى أن يعد للانقضاض والهجوم على

السلطة ، بعد كسبه لتأييد الجماهير لبرنامجه وعندما يصبح الوضع ملائماوالموقف ناضجا • ولقد كان هذاالعنصر الارادى فى فكر لينين خافتا فى البداية ، ولكنه اتسع وازدادت قوته قبيل ثورة أكتوبر ١٩١٧ وفى آثرها مباشرة وعندما توفى لينين كان قد اكتسب عامل الارادة الثـورية عمقا بدرجـة اخترقت وتجاوزت الاطار العام ومجمل المادية التاريخية •

لم يعتقد لينين البته فى الانهيار والسـقوط التلقائى للرأسمالية • حيث تؤدى نجاحاتها عبر الصعوبات والعوائق المتوالدة والمتوالية الى انضاجها للانتقال الى الاشـتراكية ، وما لم تقطف وتجنى فى موسمها ووقتها المحـدد فبامكانها تجديد ذاتها وامادة واطالة حياتها لامد غير محدد مع اتساع رقعة اهترائها • وأعلن لينين ذات مرة «لاتوجد أوضاع أو أزمات لاتنفصم أو لا سبيل للخلاص منها بشـكل مطلق» • ورغم تقديسه للتاريخ ، كان يعرف أن التاريخ لايفعل شيئا من تلقاء ذاته • والتاريخ لايمنح السلطة أبدا • بل ينبغى انتزاع السلطة دائما والاعداد لانتزاع السلطة مهمة التنظيم الثورى التى ينبغى ألا يتجاهلها أو يتغافل عنها ، وهى المهمة التى تحركه وتقوده فى كل مايدرسه أو يقـوم به • وجعل لينين انتزاع السلطة السياسية ، وتدمـير الدولة القـائمة ومجمل وظائفها هدفا للحركة الاشتراكية ولاجل الاشتراكية كهدف نهائى فالاشتراكية باعتبارها شكلا للنظام الاجتماعى ومثالا للاخاء والمساواة يمكنها فقط أن تصبح خاتمة المطاف ورؤية نهائية بعد الفوز واحراز السلطة السياسية •

لم يعتقد لينين أبدا فى الفقر والمحن الاجتماعية كأسباب وعلل لظهور الحركات الشيوعيةوهذه آحد ادعاءات الليبرالية فبدون التنظيم الثورى الذى يشعل شرارة الغضب والتمرد

ليندلع بركانها المحموم ، ويدعمها ويوسع من دائرتها فى كل الاتجاهات ، بدون هذا التنظيم الثورى ستخمد نيران الثورة مخلفة وراءها بقعة جافة صلدة تحول دون انتشار لهب أية ثورة أخرى ٠

والحزب الشيوعى هو التنظيم الذى ينبغى أن يقود النضال من أجل انتزاع السلطة السياسية (استخدام لينين الاسم بعينه بعد ثورة أكتوبر ولاول مرة) ٠ ويتسلح بالنظرية الماركسية ، يعرف المصالح الحقيقية للعمال وبشكل أفضل مما يعرفونها هم أنفسهم وتقتضى ضرورة فعالية التنظيم احاطته بانضباط صارم ٠ وألا تتضمن عضويته الأنصار والمتعاطفين، وأولئك الذين يصوتون لصالحه وحسب فى الانتخابات ، أو المصلحين فاعلى الخير ، وأصحاب النوايا الحسنة الذين يرغبون ويتمنون بذل قصارى جهدهم لاجل العالم الذى يحيون فيه وأى عالم يخشى أن يحل محله ٠ ينبغى أن يتكون الحزب الشيوعى فقط من أولئك الذين يفنون كلية فى قضية الحزب، فهو حزب الثوريين المحترفين ، حزب منظم هرميا ، ذو قيادة مركزية ، رغم تشخيص وتوصيف لينين لبناء وتكوين الحزب الشيوعى فى بعض الأحيان أنه حزب «المركزية الديمقراطية» democratic centralism الا أنه يعنى بذلك تحديد وتقرير فرص العضوية لممارسة النشاط الديمقراطى من قبل المصادر المركزية ــ الادارة البرقراطية والادارة الذاتية الابدية للآلة شبه العسكرية ٠

عندما لم يكن ليون تاروتسكى يشارك لينين فى مفهومه حول الحزب الثورى ، وتعقيبا عليه شجبه وأدانه باعتباره تحريفا تآمريا يساريا (يعقوبى Jacobean)حيث ان «تنظيم الحزب يحتل مكانة الحزب نفسه ، وتحتل اللجنة المركزية

مكانة الحـزب ، وفى النهـاية يحتـل الطاغية الديكتاتور dictator مكانة اللجنة المركزية» (ولان مجموعة لينين فازت بأغلبية مؤقتة فى مؤتمر عام ١٩٠٣ للحـزب الديمقراطى الاشتراكى الروسى حول مسألة بناء الحزب ، اكتسبت اسم البلاشـفة bolsheviri وهى الكلمـة الروسـية المقـابلة للاغلبية) ٠

وفى البدء قدم لينين مفهومه للحـزب لروسيا فقط ، حيث أجبرت الأحزاب الاشتراكية على العمـل السرى تحت الأرض بسبب الظروف الخاصة بالاستبداد السياسى السائد ٠ ولكن فيما بعد وعقب ثورة آكتـوبر ، قام بتعميم نظـرية الحزب وجعلها عالمية وملائمة لكل الأقطـار بما فيهـا بلدان العالم الحر والبلدان الديمقراطية ، بلوجعلها مقبولة وملزمة ومجبرة لكل الأحزاب الشيوعية المنسوبة للشيوعية الدولية ٠ (راجع ملحق رقم ١٤)

٢ ـ الخط السياسى للحزب الشيوعى

طالما أن دور النظرية الثورية ينحصر فى امداد الحزب بالخطوط الموجهة للعمل التنظيمى يصبح من الضرورى تأمين الحزب ضد أية اختلافات نظرية فى صفوفهقد تضعف تماسكه وقوته الضاربة ٠ فلم يطالب لينين بالانضـباط فقط فى الحركة بل طالب أيضا بالخضوع والاذعان فى التفكير لخط الحزب فى كل القضايا الهامة ٠ مثلا ، قيادة الحزب هى التى تقرر وتحدد مايشكل الموقف والرأى الهام وأى فرد له حرية النقد ولكن بشرط الاستقالة أو الفصل من الحزب ٠ ولقـد ناقش لينين عبارة «حرية النقد» ورأى آنها عبارة وقضية

ناقصة وتعبر عن زيف وخطأ داخلى متضمن بها ، ان لم تكن (فكرة مرائية كاذبة) ينبغى أن يكون النقد تابعا للحق والصدق والحرية العقلية فى الحزب لاتعنى حق التعبير عن آراء مخالفة بل تعنى فقط حق التعبير عن الحقيقة كما حددها مجلس ومكتب الحزب على أساس الفلسفة العلمية «وأولئك الذين يعتقدون حقيقة بأنهم يطورون العلم لن يحتاجوا للحرية من أجل استمرار الآراء القديمة ومسايرتها بجانب تلك الآراء الجديدة ، بل استبدال تلك القديمة بالآراء الجديدة • وأن هتاف تحيا حرية النقد الذى يسمع اليوم بقوة بحيث يذكرنا ويعيد للاسماع خرافة وأسطورة البرميل الاجوف (والذى يصدر الضوضاء) ويرى لينين أن الحزب يؤسس ويضع خطه السياسى واتجاهه فى ضوء النظرية الماركسية له الحق فى ادعاء امتلاك الحقيقة ، أو انه أكثر قربا والتصاقا بالحقيقة من أية مجموعة أخرى» •

ولن يصبح لهذا التعصب النظرى أى تأثير على أية مجموعة من الشعب فيما عدا أولئك الذين قبلوا عضوية الحزب الشيوعى واحتفظوا بها ، وحتى يستولى الحزب على السلطة • وتبدأ النتائج المحتومة بالنسبة للآخرين من خارج الحزب حال تسلمه السلطة وجهاز الدولة فيمارس ديكتاتوريته باسم البروليتاريا ودفاعا عن الثورة ويفسر نقد خط الحزب الشيوعى تجاه أية قضية يعلن الحزب أهميتها على أنه ليس هجوما وحسب على وحدة الحزب ككل بل هجوما على أمن الدولة والثورة • وتبعا لذلك يرتاب فى أمر أولئك الذين عبروا عن نقدهم لخط الحزب بل ويشتبه فيهم باعتبارهم عملاء مغرضين ومعاونين للثورة المضادة •

٣ ـ المادية الجدلية

يعد خط الحزب السياسى لمعظم الأحزاب الماركسية مجرد برنامج سياسى ولكن تبرير ذلك البرنامج ومايتعلق به من مفاهيم أوسع حول طبيعة الانسان والعالم تعد خارج بؤرة الاهتمام السياسى • ويعد كل هذا موادا للاعتقاد الخاص والشخصى تبعا لاحتياجه لها • ويعتبر لينين أول زعيم ومفكر ماركسى بعد بليخانوف الذى مهد له الطريق وحسب ، ليؤكد أن المادية الجدلية «dialectical materialism» جزء متمم ومكمل للاعتقاد الماركسى ووثيقة الارتباط أيضا ببرنامجه الثورى وكما يدعى لينين ليس بمقدور من يعتنق المادية الجدلية كرؤية للعالم اغفال الاعتقاد بالشيوعية فى الفلسفة الاجتماعية وبالمثل النظرية الشيوعية حول الثورة الاشتراكية • وعكسيا ليس باستطاعة المرء الاتساق فى كونه شيوعيا مالم يعتنق المادية الجدلية •

تعد كل الموجودات فى العالم مترابطة وفقا للضرورة الجدلية كما تدعى هذه الفلسفة ويلزم عن هذا المبدأ أن الاعتقاد الزائف فى أى حقل ينتج حتما ان عاجلا أو آجلا فكرة زائفة حول طبيعة الواقع الاجتماعى • والأفكار الزائفة تؤدى الى أفعال خاطئة ، وبشكل خاص فى مجال السياسة • وطالما أن الحزب يعلم الحقيقة عن طبيعة المجتمع وهو القائد والموجه الاستراتيجى للنضال السياسى ، فلايمكنه أن يبقى محايدا فى أى مجال للاعتقاد أو التفكير بل وأكثر من ذلك ، فكل حقيقة توجد وتكمن داخل جزء من النسيج الاجتماعى وكل نظام اجتماعى هو نظام طبقى وكل نظام طبقى متغضن ومشحون بالصراع • وكما يرى لينين ينبغى أن يندلع نضال الصراع الطبقى الحالى تحت قيادة الحزب

الشيوعى • واستنتج لهذا وجود عنصر تطورى evaluation فى كل وصف للواقع وللنظرية • ولذا تختلف المادية «وتفترق عن الموضوعية» objectivism فى ادراك «المادية» للعلاقات الضمنية الكامنة لوجهة نظر الطبقة والحزب بكل الحقائق فى حين انكار «الموضوعية» لها • وبكلمات أكثر تحديدا وحسما ، يستنتج عدم وجود حقائق موضوعية لا طبقية حول أى شىء فعال بالنسبة للانسان • ولكى تكون موضوعية حقا ينبغى أن تظهر وتوضح الحقيقة روح الحزب (الحزبية partinost) •

تتصف فلسفة لينين بالتناقض وعدم الاتساق الذاتى وتعتبر زائفة بالاشارة لسلوكه الخاص • وتعد الأفكار فى رأى لينين «صور images » للاشياء ، ولكن أفكاره الخاصة ليست صورا لأى شىء وجد فى الماضى أو موجودا فى الحاضر، ولكنها خطط جسورة للعمل أو مساهمة فيما ينبغى أن يكون • وفلسفته خليط من المادية والواقعية وبنيت على اعتقاد خاطىء لطبيعة المنهج العلمى • وأفكاره حول الحقائق الطبقية أو الحزبية تساير الحقائق العرقية وتحذو حذو تلك القومية وتعد عرضة ومثار انتقادات حادة واعتراضات خطيرة • وليس هذا مجال مناقشة عدم صلاحيتها من الوجهة الاصطلاحية الفلسفية ولقد أصبحت كل أخطائها الضمنية ظاهرة للعيان قيد تطبيقها بكل فداحتها فى ظل نظام ستالين •

٤ ــ انتصار الارادة السياسية

بحلول عــام ١٩٠٥ أصبح واضــحا للينين أن الحــزب الشيوعى ليس فقط الحزب الثورى بل الحزب صانع الثورة ومازال تأكيده على الرغبة الثورية فى السلطة السياسية ٠ يقوده الاعتقاد بالمادية التاريخية ٠ وينبغى آن يهيىء تطور الظروف الاقتصــادية المسرح للعمل السياسى والا ســيحدث انتــكاس ونكوص لمغــامرة بلانكى Blanqui وغـــوغائية demagogism باكونين Bakunin ولم يفترق لينين ابان هــذه الفترة عن أولئك الماركسيين الذين أكدوا أن روسيا ناضجة ومهيئة فقط لثورة ديمقراطية من الوجهة السياسية وليست مهيئة لديكتاتورية ثورية تبدأ بثورة سياسية وتنتهى بثورة اشتراكية وذلك بسبب الظروف الاقتصادية المتخلفة ٠ ولم يطالب لينين بأى تعاطف مع الفــكرة شــبه الفوضــوية ٠ semi-anarchist عن الثورة الاشتراكية «ان درجة التطور الاقتصادى الحالية لروسيا (الشرط الموضوعى) ودرجة الوعى الطبقى والتنظيم لمجموع البروليتاريا (الشرط الذاتى وثيق الارتباط بالشرط الموضوعى) يجعلان من المستحيل انجــاز التحرر والاعتاق الفورى والكامل للطبقة العاملة» ٠

ويضيف لينين ، كمــا لو كان يزيل وينفى أى شــك محتمل «كل من يحاول الوصول للاشتراكية عبر طريق غير الديمقراطية السياسية ، سيصل حتما لنهايات ونتائج منافيه للمعقول absurd ورجعية بالمعنى الاقتصادى والسياسى» ٠

ولقد أتيحت الفرصة أمام لينين لاغتصاب السلطة من نظام كيرنكسى Kerensky المعتدل الاحــداث المتــوالية للانهيــار العسكرى لروسيا فى الحرب العالمية الاولى وثــورة فبراير ١٩١٧ ، ومجــاعة مــزارعى الارض ٠ (أعلن لينين عنــد

وصوله من منفاه أن نظام كيرنسكى قد يعتبر أكثر النظم حرية فى العالم ويتصف «بغياب وانتفاء الظلم والاضطهاد للجماهير») وبعدئذ بدأ لينين الاتجاه نحو العمل على الانتقال والتحول الاشتراكى أملا أن تلحقها وتدركها الثورات الاشتراكية فى الغرب ·

ويعتبر هذا خطوة بعيدة المدى عن الموقف الماركسى الأساسى الذى أكد أن «لايفنى أى نظام اجتماعى قبل انهيار كل القوى الانتاجية التى بمثابة الحجرة التى تطور داخل جدرانها» ويوجد بوضوح عديد من الحجرات لتطور القوى الانتاجية للاقتصاد الروسى عام ١٩١٧ وبالتأكيد ليس أقل مما هو متاح لاقتصاد الولايات المتحدة فى نفس العام ، والذى كان متقدما بعشرات السنين عن روسيا فى مجال التقدم الصناعى وعلى الرغم من ذلك ضاعفت روسيا قدرتها الانتاجية منذ ذلك الوقت ·

فى البداية علق لينين ورفاقه هجومهم وانتزاعهم للسلطة بتفسير ماركسى زائف وادعى أنه لو أخذ الاقتصاد العالمى وتم تناوله فى مجمله سيتضح آن الرآسمالية قد استنفذت كل امكانياتها فى التوسع آو على الأقل ستتصف وتتميز بنمو وتطور اقتصادى وسياسى متفاوت · وكما يرى لينين ستنهار الرأسمالية عند «أضعف حلقاتها» والتى افترض آن روسيا هى الحلقة الأضعف للرآسمالية · واكتشف تاروتسكى Trotsky قانونا للتطور المعقد «يمكن البلدان المتخلفة من ايجاز واختزال مراحل التطور الاجتماعى وتخطى مراحل التطور الصناعى · ووجدت نظريات وثيقة الارتباط بهذا الموضوع تم تقديمها لتبرير أعمال سياسية ساهمت ظروف وبيئات معينة فى جعلها ممكنة التحقيق · وبالمثل يمكنها

تبرير الثورة الاشتراكية فى أسبانيا أو تركيا وهى مازالت أضعف حلقات المنظومة الاشتراكية أو تبرير ثورة ١٩٠٥ الاشتراكية فى روسيا والتى أدانها لينين باعتبارها مغامرة مضادة للماركسية ولو كانت هـذه النظـريات صـادقة ، ستنسحب أيضا على عصر ماركس وانجلز ٠ وطالما هم يعتقدون أن الرأسمالية قد استنفذت كل امكانياتها فى التطـور فى عصرهم ، سيصبح تنبؤهم المبكر بوقوع الثورة الاشتراكية فى البلدان الصناعية المتقدمة أولا تنبؤ لا معنى له ومحض لغو فارغ ٠ ولقـد تقبل لينين وتاروتسـكى باعتبـارهما ماركسيين مواليين للماضى هذه التنبؤات كما بررت أو على عواهنها ٠

مازال هناك كثير من النقاط الهامة ، مثـل الافتراض الأساسى بعدم وجود مجال لمزيد من التوسع للرأسمالية على المستوى العالمى عام ١٩١٧ ، يصبح هذا الافتراض زائفا اذا ماقيس بدلالة الانتاجية ، العمالة الربحية ، الأجور الحقيقية والفعلية ٠ وربما لن يكون مرغوبا أو مقبولا تطور الرأسمالية فى روسيا أو أى مكان آخر ولكنـه لم يكن بالتأكيد شـيئا مستحيلا والشىء الحاسم والفعال ليس مجرد قوانين للتطور الاقتصادى بل هو الارادة الملتهبة للحزب الشيوعى ابان الأزمة الاجتماعية وعدم فعالية وكفاءة معارضى الحزب ٠

كان انتزاع البلاشفة للسلطة تمهيدا لمزيد من التخلى والتنازل بعيد المدى عن الماركسية الارثوذكسية فاعتمد لينين وتاروتسكى على قيام ثورات اشتراكية فى الغـرب تمكن الدولة الشيوعية الأممية من التخطيط لاقتصاد اشـتراكى أممى تصبح روسيا أكثر قسم متخلف فيـه واذا ما أخفقت الثورة ولم تقع ، يعد الشيوعيون أنفسهم للقيام بعمل قد

اعتبره كل الماركسيين على اختلافهم حتى الآن عملا مستحيلا، أى أن يبنوا اقتصادا اشتراكيا حتى بدون وجود الاقتصاد الضرورى والمفترض وجوده سابقا عليه • ولقد اختلفت المعايير السياسية الراديكالية هذه الافتراضات المسبقة فى مجال الصناعة والزراعة ، وفى عمليات آكثر شبها بتشييد وارساء أساسات جديدة لمنزل منها بعملية قطف وجنى ثمرة فاكهة ناضجة • لو أن الاشتراكية يمكن تعريفها على أنها الملكية الجماعية لوسائل الانتاج آو كما عرفها لينين ذات مرة بأنها «كهربائية عالية لسلطة السوفيت electrification plus soviet power عندئذ سينجح الشيوعيون فى مهمتهم ولكن كل نجاح لهم وحقن وفند النظرية التى من المفترض أنها تقودهم وتوجههم • وأولئك الذين أعلنوا ونصبوا أنفسهم الاتباع والتلاميذ الارثوذكس وحواريو ماركس هم الذين قدموا الدليل والبرهان الحاسم على خطأ وزيف ماركس •

٥ ـ ديكتاتورية الحزب

اعتنق لينين كما سبق مفهوما ديكتاتوريا لتنظيم الحزب الشيوعى • طالما أن هذا الحزب قد وصل للسلطة نتيجة للموافقة الحرة الممنوحة له من قبل الجماهير ، والتى كان ممكنا استمالتها واسترضاؤها بمختلف العمليات الديمقراطية أعلن لينين فى البداية أن هدف الشيوعيين هو «كل السلطة للسوفيتات all power to the soviets المفترض أنهم يمثلون ارادة الجماهير ولكن عندما اعتقد لينين أنه ليس بامكان الشيوعيين السيطرة على السوفيتات ، اعترف صراحة أن «كل السلطة للسوفيتات» ليس شيئا آكثر من كونها شعارا سياسيا يمكن استخدامه أو التخلى عنه تبعا لمقتضيات الاستحواز

على السلطة وأعلن فى يوليو ١٩١٧ أن شعار «كل السلطة للسوفيتات» أصبح مجرد صيحة «دون (١) كيشوتية Quixotic ومحض شعار مضحك مثير للتهكم mockery ولقد وافق المؤتمر السادس للحزب الشيوعى رسميا على هذا التخلى عن الشعار وهذا التخلى يماثل الاعلان الواضح بأن الشيوعيين سيحاولون اذا ماكان ضروريا الاستيلاء على السلطة من خلف ظهر السوفيتات •

طرح لينين بعد ثورة كورنيلوف Kornilov المجهضة ضد كيرنسكى للمرة الثانية شعار «كل السلطة للسوفيتات» ثم جمده عندما رفضته الأحزاب الأخرى للطبقة العاملة والفلاحين وعاد الى طرحه فقط عندما فاز الشيوعيون بأغلبية فى مجالس السوفييت بمدينة بطرسبرج St. Petersburg وموسكو Moscow واعترف تاروتسكى صراحة بأن الشعار الذى ينفذه الشيوعيون فى ظله ثورتهم المسلحة يعنى فحسب «كل السلطة للسوفيتات البلشفية» •

وتبعا للنظرية السياسية الماركسية فان مايطلق عليه «الديكتاتورية البرجوازية» الاجتماعية والاقتصادية يكون متسقا ومنسجما مع أنواع متعددة من النظم السياسية • والرأسمالية هى الرأسمالية سواء كانت فى ظل الديمقراطية البرلمانية (النيابية) أو الديكتاتورية السياسية وبالمثل فأن «الديكتاتورية البروليتارية» الاجتماعية والاقتصادية تكون متسقة ومنسجمة مع المؤسسات النيابية الديمقراطية أو بالمثل مع الديكتاتورية العسكرية وجدير بالملاحظة ، ورغم اعتقاد الشيوعيين بالنظرية المادية التاريخية ، الا أنه عندما

---

(١) دون كيشوتية شخصية خيالية فى رواية حملت اسمه للأديب الأسبانى سرفانتيس ، اتسم بالخيال الجامح وتجسيد الوهم وافتعال البطولات الوهمية فى منازلات طواحين الهواء واتخذ كرمز شائع للاشارة لادعياء البطولة الوهمية (المترجم) •

تفتقد البلدان الرأسمالية ديمقراطياتها وتسقط تحت براثن الديكتاتوريات السياسية ، لايعتبر الشيوعيون ذلك السقوط والتحول نتيجة حتمية للتطور الاقتصادى بل يعتبرونه نتيجة الضعف السياسى أو الخيانة من جانب الديمقراطيين ٠

لماذا ،اذن ينبغى «لديكتاتورية البروليتاريا» الاجتماعية والاقتصادية أن تتخذ شكلا سياسيا ديكتاتوريا مبنيا على العنف «وحكم القوة الذى لايكبحه قانون» ؟ ولم يقدم لينين أو أى مفكر شيوعى آخر أى تعليل وتفسير فى اطار نظريتهم الماركسية فيما عدا تذرعهم باحتمال حدوث ثورة مضادة للاشتراكية من جانب أولئك الذين لم ينعموا بثمارها ٠ ومايفرضه هذا الاحتمال من ضرورة الدفاع عن الاشتراكية ٠ ويتفق هذا مع عملية تبرير اعدام شخص برىء لم يرتكب أى عمل غير قانونى فى الوقت الحاضر بحجة أنه قد يرتكب اثما وعملا مجرما قانونا فى أى وقت مستقبلا ٠

(النص رقم ١٤ د)

والتفسير الأكثر اقناعا هو ماتفترضه ضرورات الاستيلاء على السلطة بدلا من كسبها ديمقراطيا ورغم اتقان دلالة الألفاظ وتوظيف مصطلحاتها مثل «القيادة» الديكتاتورية «الديمقراطية» الا أن لينين لم يعتبر حكم الأغلبية شرطا ضروريا للديمقراطية كما تصورها هو حيث يعلن ان «لو فازت البروليتاريا بأغلبية الشعب ينبغى أن تتخلص أولا من البرجوازيين وتستولى على سلطات الدولة» ٠

والبروليتاريا التى يتحدث لينين باسمها صراحة لاتشكل أغلبية الجماهير بل لاتشكل أغلبية العمال فهى تتشكل من أولئك الذين يؤيدون برنامج الحزب الشيوعى ٠ وتظل «البروليتاريا المنتصرة» أقلية بين جماهير العمال أنفسهم حتى

عندما تستولى على السلطة عندئذ فقط يقول لينين انه بامكانها كسب تعاطف وتأييد أغلبية جماهير العمال حتى غير البروليتاريين ·· وباختصار ، يستولى الحزب الشيوعى فى البداية على السلطة ، ويجاهد عندئذ لكسب تأييد أغلبية العمال ، وتأييد ومساندة أغلبية الجماهير فى النهاية · وطالما أنه هو الذى يقوم باحصاء الأصوات بمفرده ، ويدير الصحف ويسيطر على الشرطة ، ويقرر الأوضاع التى تحدد تأييد الأغلبية ·

ومن الواضح أن ديكتاتورية البروليتاريا «لاتعنى شيئا أكثر من ديكتاتورية أقلية الحزب الشيوعى وهيمنتها على البروليتاريا ، بمثل ماهى على كل الطبقات الأخرى · وازدرى لينين أولئك الذين وضعوا ديكتاتورية الحزب فى مواجهة «ديكتاتورية الطبقة» لانه بحسب تعريف لينين يعتبر الحزب فى علاقته بالطبقة ، كعلاقة الأب بابنه ، ويعرف ماهو الأفضل لصالح العمال ودائما يفعل الأفضل لهم وحتى فى حالة عدم معرفتهم بذلك مثل الأطفال ·

ليس كل الآباء يعلمون ويعملون لصالح أبنائهم وحتى أولئك الذين يقومون بذلك ، لايتوقعون الاحتفاظ بأطفالهم تحت الوصاية الدائمة وقيوما ما سيشب الأبناء عن الطوق وانصافا للينين ينبغى ملاحظة أنه يعتقد بأن العمال يوما ما سينضجون ويشبون عن الطوق وهذا اليوم البعيد سيكون متسما بالفناء النهائى للدولة والحزب والشرطة ، وحتى مجىء ذلك اليوم يتحكم الحزب الشيوعى بشكل مطلق فى الدولة ومن خلالها فى أقدار ومستقبل العمال وهذا هو السبب فى اعتراف لينين المتكرر بأن ديكتاتورية البروليتاريا هى «أساسا» ديكتاتورية الحزب · وقبل قيام الحزب الشيوعى

بدور مهيمن على الحياة السوفيتية ككل وعلى الثقافة والذى تجسد فى دستور ستالين عام ١٩٣٦ ، أعلن لينين «فى الاتحاد السوفيتى ، حيثما تكون ديكتاتورية البروليتاريا نافذة المفعول لايمكن تقرير آية مسائل سياسية هامة أو تنظيمية من قبل مجالس السوفيتات أو أى منظمات جماهيرية بدون توجيهات من الحزب» .

ولقد تأكد وتجسد مفهوم ممارسة ديكتاتورية الحزب على البروليتاريا من خلال مجمل تاريخ الاتحاد السوفيتى والذى اتسم بخرق مطلق لكل التقاليد الديمقراطية للماركسية . ويستتبع ذلك بالاضافة لوجهة نظر لينين حول الطبيعة الداخلية للحزب وتحريم كل الأحزاب السياسية الأخرى للطبقة العاملة ، والجماعات المنشقة داخل الحزب ، يؤدى ذلك لديكتاتورية قيادة الحزب وممارستها على الحزب نفسه ، والاطار المروع للحكم الشمولى totalitarian على المجتمع ككل .

٦ ـ من الانشقاق الى التآمر

فى مرحلة مبكرة من حياته الفكرية ، عندما كان لينين يتعامل بانطلاق وتحرر فى اطار التقاليد الماركسية ، غالبا ماكتب كما لو كانت آراؤه ينبغى فهمها وكأنها مقصورة التطبيق على روسيا وعلى سبيل المثال تقريره للحالة الاستثنائية للبلدان المتخلفة ثقافيا والرازخة تحت نير الاستبداد السياسى . ولكن بعد ابتعاده عن التراث الديمقراطى الأساسى للماركسية وتخليه عنه ، آصر لينين على مواءمة وصلاحية نظرياته الأساسية للتطبيق العالمى . واعتبر قبول هذه النظريات شرطا للانضمام «للدولة

الشيوعية الثالثة والتى أحد مهامها تقرير مدى دراسة وتطبيق هذه النظريات فى كل البلدان • ولقد شجبت « الاستثنائية » expctionalism باعتبارها انحرافا سياسيا من الدرجة الأولى •

وحيث ان الهدف النهائى لكل الأحزاب الشيوعية وفقا لنظرية لينين هو الاستيلاء على السلطة وممارسة ديكتاتورية الحزب ، ينبغى اتخاذ وسائل على نفس المستوى من الكفاءة لتأكيد النصر • وينبغى تبوُ المواقع الاستراتيجية فى المنظمات الجماهيرية للفوز بها • والتسلل الى المواقع الرئيسية فى نقابات العمال ، والتعاونيات ، وينبغى تخطيط مجموعات المواطنين بمهارة وخاصة فى الأماكن الحساسة • وينبغى اعداد وتأهيل المتعاطفين والأنصار المؤيدين وصقلهم لكى يظهروا للعدو وجها خادعا • بل وينبغى استثمار القضايا الجماهيرية لاشعال عدم الرضا بالموقف الراهن وتحويله وتصعيده لحالة من العداء العنيف • وينبغى عزل الاشتراكيين الديمقراطيين وادانتهم باعتبارهم العدو الرئيسى للطبقة العاملة • ويلزم بناء القوةالمتعاظمة الضاربة بالتدريج ووضعها على آهبة الاستعداد حتى يأتى الوقت الملائم والعمل والحركة • وينبغى فى حدود الممكن، استخدام الأشكال الشرعية لأقصى مدى وفى نفس الوقت ، ينبغى تأسيس وتكوين مجموعات المحترفين الثوريين الخلفاء الأشداء فى شكل سرى تحت الأرض • وينبغى تشكيل مجموعات وخلايا الشيوعيين فى كل المنظمات والتنظيمات بلا استثناء (سياسية صناعية ، عسكرية ، تعاونية ، تعليمية ، رياضية) وفى الأساس المجموعات العلنية والاضافة للمجموعات والخلايا السرية» •

ولقد أكد لينين على الوصية التالية خشية أن يؤول الشيوعيون فى البلاد الديمقراطية آراءه السابقة بحيث تلائم فقط البلاد التى تفتقر لوثيقة اعلان حقوق الانسان ولاتسمح بأية معارضة شرعية ، ويقول لينين فى وصيته «فى كل البلاد حتى تلك الحرة فان مصطلح «الشرعى» «والسلمى بمعنى أن الصراع الطبقى أقل خطورة وحدة بها، سينضج الزمن الصراع بها كلية بحيث يصبح من الضرورى على كل حزب شيوعى أن يوحد ويدمج العمل الشرعى بذلك غير الشرعى ، والمنظمات الشرعية والأخرى غير الشرعية» .

طالما أن الخطوة النهائية فى عملية انتزاع السلطة تقتضى عملا ثوريا مسلحا ، وحيث آن الأدوات الدفاعية للمجتمع القائم ربما تكتشف ما قد يحدث ويدور ، نصح لينين الشيوعيين بأهمية العمل السرى غير الشرعى وبشكل خاص فى صفوف الجيش البحرية والبوليس وبضرورته) وأولى تأكيدا راسخا على ضرورة المنظمات المساعدة لتوظف كأدوات نقل وبث لتأثير الحزب .

هذا التحول الحاد للحركة الاشتراكية من كونها حركة ابتداعية (هرطقية) heretical وذات نشاط علنى الى حركة سياسية تآمرية يشكل مصدر اهتمام وقلق لأوروبا الغربية وأمريكا ويمكن قياس المسافة بين هذين النوعين للحركة بمقابلة ومقارنة سلوك الثوار فى عصر ماركس والذين جاهروا بأهدافهم صراحة وآعلنوها بشرف وصدق بصرف النظر عما يتكبدونه فى سبيلها ، بسلوك الشيوعيين فى عصر لينين الذى اتسم بالتحايل والخداع والتهرب ، فلقد طوروا تقنيات وأسلوب استخدام الحريات الممنوحة لهم فى اطار فنى رائع لتدمير هذه الحريات للأبد .

وادراك ومعرفة سيكولوجية الشيوعيين المتآمرين يتطلب الماماً ومعرفة بأيديولوجيتهم (نظريتهم) ففي البداية على الأقل، لم يكن لديهم أى منطلق اجرامى ، ولكنهم استلهموا عزيمتهم الراسخة من تعصبهم للقيام بعمل معين خيل اليهم أنه من الأعمال التاريخية • ولم يعنوا كثيرا بالحياة الانسانية لانهم أعدوا للتضحية بحياتهم اذا ماتطلب ذلك • ولم تحركهم نزعة الرحمة والشفقة الانسانية ، لانهم اعتبروها علامة ضعف ونفاق مثل نزعة السلام والمسالمة الفطرية ولم يتأثروا بحب الوطن لأنه في نظرهم الحقيقى مفارقة تاريخية • ولان الاتحاد السوفيتي هو وطنهم الحقيقى والذى اختاروه بارادتهم • ونادرا ، مايحركهم الاقناع والدليل العقلى ، لأن عقولهم قلبت وصبت في القالب الثلاثى الأضلاع للعقيدة الماركسية اللينينية ـ الستالينية.(١) والتى تتيح لهم بديلا بالايمان القطعى للانتصار على التجربة • وسرعان مايفسد ويشوه الاعجاب الأولى بالشيوعية والرغبة المقدسة لتقليص الظلم الاجتماعى والمحن الانسانية ، وذلك عن طريق تلك الوسائل التى يستخدمونها • وتعد قدرتهم على التضحية الشاملة المدعومة باعتقادهم فى الحلول النهائية مصدرا ومنبعا لصلابتهم وتماسكهم وبالمثل خطرهم •

٧ـ النزعة اللاأخلاقية

احدى المصاعب البارزة في معظم الصيغ الماركسية هى عدم قدرتها على شرح السلوك الفعلى للماركسيين وتفسير

---

(١) اسقط مسار تطور الأحداث على صعيد الكتلة الشيوعية الستالينية بعد ادانتها أمام المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفيتى لتصبح الماركسة اللينية ، ولتتبعها اضافات وانتقادات وانقسامات على صعيد العالم الشيوعى (الماوية ـ التيتاوية ، الشيوعية الاوروبية : ايطاليا أسبانيا فرنسا • (المترجم) •

الدور الذى تلعبه الأفكار والقيم فى التجـربة الانسانية ·
فقد يصاغ البشر ويعاد تشكيلهم أحيانا من خلال رؤية أى
مثال أو هدف وبطريقة مختلفة تماما عما يمكن توقعه لهم
من خلال تربيتهم وبيئتهم · وبعض الرؤى تقوى وتزيد حدة
القوة الطبيعية للاستعداد والقدرة على التمييز بين الواقع
والمأمـول لكى تتمكن من ادراك بدائل الفعل ، ولكى تقدر
القيمة والشروط الأخـلاقية للاختيار من هـذه البـدائل
والبعض الآخر قد يعمى ويحجب عن الفرد الاختلافات بين
الزام الوجود والزام الارادة الحرة وليتابع عنـدئذ طريقه
متغافلا عن تعدد وتنوع الطرق المفتوحة أمامه ·

وتعبـد رؤية لينين الماركسـية التى لم توجهه وتقوده
بالفعل وفى الواقع لتحديد حركته السياسية بل حجبت عنه
الاختلافات بين القوى المحركة للانتاج وتلك التى تقود وتوجه
ارادته بل وساهم اعتقاده كماركسى يمتلك المفاتيح الأكيدة
للمستقبل فى اخفاء حقيقة أنه يختـار فعليا بين الممكنـات
التاريخية ولايقوم بتنفيذ الضرورات التاريخيـة ، وحجب
هذا الاعتقاد تلك الحقيقة عن لينين ورفاقه · فهو يقوم باعادة
صياغة وتشكيل التاريخ وليس اتبـاع قوانينه المزعومة ·
وفيما يتعلق بغايتهم وهدفهم الرسمى فان ذلك يجعل مجمل
الأفعال وأعمال أولئك الماركسيين اللينيين غير مفهومة طالما
أنهم يعتقدون فى ضرورة حدوث الحتمية التاريخية من خلال
جهدهم الخاص بل ويفرغ جهودهم من المضـمون لتصـبح
بلا معنى ومجرد هراء ، ولايمكن تناولها وفهمها فى ضـوء
الأفكار الاشتراكية · وطالما أن التاريخ هو الذى يقرر الغاية
النهائية ويحدد النتيجة من خلال قانون الصراع الطبقى ،
فان أية وسائل وأى منهج يكون مسوغا ومبررا ومسموحا به
لو كان ناجحا · وذلك لامكانية ادعاء أنه مستنبط ومستنتج

من قانون الصراع الطبقى • وبالتالى يمكن تجاهل الأعباء التى تتكبدها البشرية • بضمير مستريح باعتبارها ثمنا وضريبة للتاريخ وليس كشىء فرضه اللينينيون على البشرية • ويسفك دم المسئولية الأخلاقية كقربان عند مذبح الحتمية التاريخية •

ظهرت هذه النزعة اللا أخلاقية amoralism فى الغالب عند مستهل سيرة لينين كمارسى • ففى احدى كتاباته النقدية المبكرة للاشتراكيين الشعبيين populist الذين أكدوا على الاعتبارات الأخلاقية ، كتب لينين «لايستطيع المرء انكار صدق وانصاف ملاحظة سومبارت sombart بأن الماركسية ذاتها تخلو من أية بذور أخلاقية من الالف الى الياء فهى تجعل «النظرة الأخلاقية» تابعة لـ «مبدأ السببية» من الناحية النظرية وترجعها وتهبط بها لاتون الصراع الطبقى ، وذلك من الوجهة العملية» •

حاول لينين الدفاع عن المفهوم الشيوعى الأخلاقى بعد تعرضه للاتهامات الموجهة ضده من الضحايا الأبرياء للعنف والارهاب الشيوعى • وأدان ورفض مفهوم الانسان على «السوبرمان» والمفاهيم الأخلاقية فوق الطبيعية ، لكن بدلا من تأكيده على الأخلاق الانسانية أعلن صراحة «نحن نقول بتبعية أخلاقنا كلية لمصالح النضال الطبقى للبروليتاريا •• فبالنسبة للشيوعيين تتشكل الأخلاق ككل من التزام وانضباط صارم متحد ووعى جمعى يناضل ضد المستغلين» •

(يراجع النص رقم ١٤ ب)

تكمن الأخلاق اذن فى استخدام آية وسائل ـ حرفيا أى وسائل ستنجح فى المعركة طالما أن النجاح يعتمد على اتباع قيادة الحزب الشيوعى ، ومحك وبوتقة إختبار الاخلاق هو

السلوك الذى يزيد قوة وفاعلية الحزب • فلايوجد أى معيار رئيسى واضح يحدد سلوك الشيوعيين وليس هذا استنتاجا تأمليا ، بل استقراء لخلاصة ممارسات الشيوعيين سواء كانت هذه الممارسات لدولة أو لمدرسة ، وسواء كان فى ممارسات المنظمات الجماهيرية ، أو ممارسات المسئولين ، فيتوقع دائما من الشيوعيين وخلاياهم ووحداتهم الأساسية أن تتابع تعليمات لينين بشق طريقها لاختراق نقابات العمال وبذل الجهد الدءوب لازاحتهم والاستيلاء على مواقعهم • وينبغى عليهم أن يصمدوا فى وجه كل المحاولات لازالتهم «وتقبل كل تضحية ، وعند الضرورة ، عليهم أن يلجأوا لكل أنواع الخداع ، والمراوغة ، والوسائل غير الشرعية للتحايل والتملص والتذرع •• حتى يظلوا باقين فى هذه النقابات ، وليقوموا بتنفيذ العمل الشيوعى فيها بأية تكلفة» •

(النص رقم ١٤ ت)

٨ ـ المخادعة والتضليل Illusionsm

ذكر لينين أن الهدف النهائى للشيوعيين هو انتزاع السلطة السياسية ، ماهو الا وسيلة للاعتاق والتحرير الكلى والهدف المقدس للمجتمع اللاطبقى • ولكنه لم يدرك التواصل والترابط بين الغايات والوسائل ، وان كلماتنا لاتشكل ولاتصيغ المستقبل بحديثها عن الأهداف بل أفعالنا هى التى تقرر شكل المستقبل يوميا • ويرجع فشل لينين فى ربط وسائله بالهدف الشيوعى ، فى جانب منه الى غموض وايهام رؤيته لهذا الهدف • ومن حق المرء توقع فكرة واضحة عن طبيعة ذلك المجتمع الذى جاهد لينين من أجله واستعد لتدمير

حياة الكثيرين بل وحياته هو فى سبيله · ولكن المرء يبحث دون جدوى فى كتابات لينين عن نموذج واضح لهذا المجتمع الشيوعى الذى يتميز ويفترق عن تلك المرحلة الانتقالية التى تعقب الاطاحة بالرأسمالية ويتابع لينين ماركس ويحذو حذوه فى وصفه لانجازات كوميونة باريس مؤكدا على تحقيق المساواة فى الأجر المدفوع والاقتراع المباشر وحق العمال فى اقالة الموظفين الحكوميين · وسنجد هنا آن وسائله قد أحبطت هدفه المزعوم ، حيث ان الوسائل التى انتزع بها لينين السلطة جعلت كل موظفى الحكومة مجرد دمى وألعوبة للحزب الشيوعى وغير مسئولين بأية طريقة آمام العمال · بل ان المساواة فى الأجر والتى تحققت أوليا عقب ثورة أكتوبر قد ألغيت لتكون حافزا انتاجيا · وطالما أن حق العمل والحصول على لقمة العيش قد أنكرت على كل المعارضين والمناوئين للنظام ، فان مبدأ المساواة فى الأجر حتى لو لم يلغ ، سيكون له تطبيق محدود جدا ·

قدر اهتمامنا بأفكار لينين حول المجتمع اللاطبقى للشيوعية ، خاصة فيما يتعلق بما سيحل محل الدولة ، قدر ماتكشف مناقشة أفكاره هذه عن تبسيط مروع · فالمجتمع الشيوعى مجتمع مخطط يصبح الانتاج فيه اشتراكيا تماما · وسيعمل الأفراد وفقا لميولهم وقدراتهم ويتم مكافأتهم وفقا لاحتياجاتهم · ستختفى الدولة المكونة من هيئات خاصة من رجال مسلحين أو مؤسسات ردع وعقاب فكيف عندئذ سيتم حل وتسوية الصراعات والنزاعات بين الناس فى غيبة المحاكم ، والشرطة ، آو الأدوات الأخرى للدولة ؟ لو اكتسب البشر طبيعة ملائكية فى ظل الشيوعية ، فلن يكون هناك أى احتمال لحدوث صراع ، رغم أنه ستوجد اشاعات عن حدوث

صراع حتى فى السماء كما تفترض أسطورة ابليس • بالاضافة للعصيان الذى حدث فى جنات عدن اللاطبقية !!

• كان لينين واقعيا بدرجة كافية ليعترف بأنه حتى فى ظل الشيوعية ستحدث «تجاوزات» excesses كما أطلق هو على جرائم العنف • ولكن فى غياب الدولة فان نشوب العنف والذى سيكون فقط أحد ضروب طائفة بأكملها للصراعات الممكن تصورها والجرائم المتوقعة والتى سيتم تسويتها بنفس الطريقة التى يسوى بها الجمهور اليوم «التجاوزات» ويخبرنا لينين بان «هذا سيتم فعله بالناس المسلحين أنفسهم وببساطة عن طيب خاطر كما تفعل أية مجموعة من الناس المتحضرين حتى فى أى مجتمع متحضر عندما يقومون بتفريق وفض تقاتل شخصين أو لايسمحون باغتصاب امرأة واهانتها» وفى كلمات أخرى ، سيقام العدل فورا وفى التو • ولهذا سيتم احلال قوانين جديدة محل قوانين الدولة ، كما أن جيمس مارشال James Marshall كان أول من طاله قانون الاعدام بدون محاكمة lynch law فلو أن الجريمة قد ارتكبت ينبغى أن تستبق البحث الهادىء عن الدليل ، والعمليات المعتادة للقبض على المتهم ، وقرار الاتهام ، ثم الادانة والعقاب كل من هذه الاجراءات يتطلب أجهزة خاصة للدولة • ويؤكد اقامة العدالة للجماهير المسلحة • ولهذا ، ليس مدهشا أن لينين قبل غروب شمس حياته تنبأ وبثقة أن الدولة ليست هى فقط التى ستتلاشى وتذوى فى ظل الشيوعية بل «التجاوزات» أيضا «ستبدأ حتما فى التلاشى» وفى النهاية ربما يظل الناس مسلحين فى ظل الشيوعية ولكنهم سيكتسبون نزعات ملائكية تحول دون ارتكاب تجاوزات ضد بعضهم البعض وضد المجتمع •

لقد استبدت بلينين فكرة الاستيلاء على السلطة السياسية والاحتفاظ بها لدرجة أن الأهداف والغايات الاشتراكية لم تعد مبادىء ومعايير للتقييم والحكم بل أصبحت ذات دلالة طقوسية • ولقد عرف سانتيانا Santayana الشخص المتعصب بأنه ذلك الشخص الذى فقد وتناسى هدفه، ويظل يكرر جهوده وبهذا المعنى يصبح لينين واحدا من أكثر المتعصبين فى التاريخ خداعاً وتضليلا لذواتهم •

الفصل السادس

ليون تاروتسكى
فى سبيل الدفاع

سيكون من غير الانصاف اختتام هذا النقد بدون مناقشة الدفاع البليغ الذى قدمه ليون تاروتسكى Leon Trotsky (١٨٧٩ ـ ١٩٤٠) عن الرؤية اللينينية للماركسية ويمكن اعتبار تاروتسكى بمعنى ما مؤلف هذه الرؤية مثله مثل لينين ذاته • فلقد ظل تاروتسكى ناقدا للبلشفية حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى ، وبالأخص ناقدا لنظرية لينين التنظيمية وتطبيقها وقدم فى الوقت ذاته ، قبل لينين بوقت كبير ، نظرية الثورة الدائمة permanent revolution والتى وفقا لها ، ستدمج روسيا ثورتها الديمقراطية ضد الاتوقراطية القيصرية شبه الاقطاعية semi-feudal وتوحدها مع ثورتها ضد الرأسمالية برغم تخلف روسيا الاقتصادى • وبالتالى فان اقامة ديكتاتورية البروليتاريا سيكون مقدمة للثورة الاشتراكية العالمية ، أو على الأقل ، الثورة الاشتراكية الاوروبية • وبحلول أكتوبر ١٩١٧ ، كان تاروتسكى قد تقبل مع بعض التحفظات نظرية لينين التنظيمية ، بينما أقر لينين وأيد رؤية تاروتسكى حول الثورة الاشتراكية العالمية التى ستندلع بمجرد تقلد الشيوعيين صولجان السلطة فى روسيا •

اتسم ليون تاروتسكى بتعدد المواهب ومجالات

انجازاته • كرجل عسكرى ، كاتب داعية ، مؤرخ ، ناقد ومفكر سياسى ويبرر ذلك تعريفه باعتباره ليوناردو دافنش Leonardo Davinci البلاشفة • وبسبب ضيق المجال ولعدم تميز مكانته جوهريا عن لينين ، سنتناول فقط باختصار تأويله للتاريخ ودفاعه عن الأخلاق الشيوعية •

١ ـ نظرية التاريخ

عبر تاروتسكى عن دفاعه حول ثورة أكتوبر البلشفية فى العديد من كتاباته ولكن ليس بالبراعة التى فى عمله البارز تاريخ الثورة الروسية • والذى يعد تفسيرا مؤيدا ومنحازا لها صراحة ورغم ذلك يتضمن دلائل تجريبية كافية لتجعل قناعات تاروتسكى الرئيسية موضع شك • وكما اتضح لنا ، وأكد لينين وتاروتسكى ليس ثمة شىء غير ماركسى فى عملية الاستيلاء على السلطة فى بلد متخلف فبسبب الطابع الخاص والمتخلف للرأسمالية الروسية • والتى حولت الفلاحين الجهلاء الأميين ووضعت فى متناول أيديهم المارد الصناعى بين عشية وضحاها ـ وأيضا بسبب انهيار الرأسمالية العالمية ككل • ولم يخفوا فى نشاطهم وحركتهم السياسية ، سر اعتقادهم بأن الثورة لاتعتمد كثيرا على تعقد القوى الاجتماعية والاقتصادية بل تعتمد على شخصية الحزب الشيوعى وقراره • ولكن كلما اعتمد البلاشفة • وعولوا على ارادتهم وانتهازيتهم السياسية كلما تزايد تأكيدهم واصرارهم بأن ثورة أكتوبر كانت حتمية ، وتستمد حتميتها فى النهاية من طابع نمط الانتاج الاقتصادى القائم • وغالبا مايتحدث تاروتسكى مفعما بتوهج صوفى «ان مايميز الثورات العظيمة هو تقريبا اتباع القوانين الطبيعية

والانصياع لها» ومع ذلك ، وكما يوضح تاريخه للثورة الروسية ، ويكشف عن تهتك وتمزق نسيج الضرورة التاريخية فى متن تحليله وهى محاكة بخيوط هزيلة وغير كافية من المصادفات التاريخية أكثر مما يقوم به تفسيره الجبرى ٠

هكذا ، يبدو أن تاروتسكى يوافق على ادعاء لينين بأن «نجاح الثورة الروسية والثورة العالمية يعتمد على نضال يومين أو ثلاثة» وذلك قبيل تنفيذ البلاشفة وقيامهم بانقلابهم ولذا سيكون من جموح الخيال التأكيد على حتمية نجاح هذا النضال ، أو انه قد تقرر من خلال طابع نمط الانتاج الاقتصادى سواء من اللحظة الأولى أو الأخيرة، أيا كان ماتعنيه اللحظة الأخيرة من معنى فلقد تقرر نجاح هذا النضال بالقيادة الثورية لكل من لينين وتاروتسكى معا ولقد قدم تاروتسكى رغما عنه دليلا تاريخيا مفصلا بأن لينين قد لعب دورا أكثر قوة وفاعلية من أية قوة أخرى فى احداث وقيام ثورة أكتوبر ، ووجود لينين فى هذا الوقت المحدد لم تقرره الظروف والقوى الاجتماعية ، بل وفوق ذلك فلم يكن بامكان أى شخص آخر وحتى تاروتسكى نفسه أن يؤدى دور لينين ٠ ونفس الشىء فى محاولة اظهار صعوبة تجنب انهيار روسيا القيصرية طالما أن الأمر لايتطلب أية صفات خاصة كالارادة، الذكاء ، أو القيادة لاحداث هذا الانهيار ٠ ولكن الأمر جد مختلف بادعاء أن ثورة أكتوبر بالمثل كان لايمكن تجنبها أو الهروب منها ٠ وفى التاريخ تقرر القوى الاجتماعية الموضوعية وتحدد ماقد يحدث وأحيانا ما لا يحدث ولكنها فى النادر تقرر ماينبغى أن يحدث ، مالم يوضع فى الاعتبار الجهد الانسانى بأبعاده البطولية لقوى اجتماعية وكان لدينا فى الحالة الأخيرة تلك النتيجة غير الواضحة بأن مجمل القوى

الاجتماعية فى لحظة معينة تقرر وتحدد القوى الاجتماعية ككل فى اللحظة التالية ٠

يوجد فى كل كتابات تاروتسكى التاريخية الرئيسية صراع ملحوظ بين استنتاجاته التجريبيةواختياراته السياسية من جانب وايمانه المتقد بالنظرية الماركسية الارثوذكسية من جانب آخر ففى كتابه التالى خيانة الثورة the revolution betrayed بحث عن أسباب فشل الثورة الروسية فى تحقيق أهدافها الأصلية ٠ ووصف فى مجال تلو الآخر المواقف التى اتخذ فيها البديل الخاطىء دائما ٠ ويعد هذا الأمر هاما وضروريا لأطروحته ، حيث أنه فى غياب البدائل الممكنة للفعل الاجتماعى لن يكون لكلمة خيانة أى معنى وعلى سبيل المثال ، لو لم يكن بامكان الاشتراكيين معارضة الحرب العالمية الأولى ، لن يصبح لاتهامهم بخيانة الاشتراكية أى معنى ولو لم يكن هناك بديل متاح أمام ستالين ، فلن يكون بمقدوره خيانة الثورة ورغم ذلك قدم تاروتسكى تفسيرا ماركسيا لقضية الخيانة ٠ فلقد أدى اليها نشوء البيروقراطية bureaucracy «الكفل الثقيل للبيروقراطية قد أثقل رأس الثورة» ولقد كان نشوء البيروقراطية بدوره نتاجا لا مفر منه لتخلف قوى الانتاج فى الاتحاد السوفيتى ٠ حقا انها لضرورة ملحة وصلدة ، أن تنبثق وتظهر البيروقراطية فى ظل مثل هذه الظروف الاقتصادية ٠ وهكذا سحب تاروتسكى البساط من تحت أقدام عريضة اتهامه فتبعا لرأيه ليست ثورة أكتوبر فقط هى الحتمية بل أيضا خيانة الثورة كانت حتمية واذا مافشلت الثورة ولم تقع فى الغرب ، سيصبح ذلك بالمثل حتميا ومع ذلك لم يظهر دليله الخاص ولم يوضح أن ثورة أكتوبر كانت حتمية ولا حتى تطوراتها اللاحقة ٠

٢ ـ الغايات والوسائل

أخذ تاروتسكى على عاتقه المهمة الصعبة فى الرد على تلك الاتهامات الموجهة للبلاشفة بالنزعة اللاأخلاقية من جانب الاشتراكيين والليبراليين ، وذلك بعد نفيه وقبيل اغتياله بأيدى أحد عملاء ستالين بوقت قصير ورغم أن تاروتسكى ذاته أصبح ضحية للارهاب الشيوعى البلشفى والذى يعتبر هو مسئولا عنه كأى شخص آخر ، فلقد دافع باصرار عن نظام الارهاب فى بحثه الموجز «أخلاقهم وأخلاقنا» متضمنا الدفاع عن أسر الرهائن وقتلهم ، الابادة الجماعية للبحارة الكروتستادات Kronstadt بعد استسلامهم وتصفية البوليس السرى وبدون ذكر اسم جون ديوى (١) صراحة فان هذا الكتيب الدعائى كان موجها ضده حيث كان يرأس اللجنة الدولية لتقصى حقائق محاكمات موسكو ولقد برأت اللجنة تاروتسكى من الاتهامات الموجهة ضده ولكن بناء على بحث وتقصى جون ديوى أكد أن شرعية هذه الاتهامات توجه منطقيا وتلزم عن الفلسفة الأساسية للبلشفية اللينينية •

عودا على بدء أقر تاروتسكى الموقف الذى دافع عنه فى حقبة مبكرة ولكن مع بعض الايضاحات الجديدة ، فى كتابه المعنون بـ الارهاب والشيوعية والذى وضعه ردا على كاوتسكى ويرتكز دفاع تاوتسكى على افتراضين الأول أن البديل الوحيد للأخلاق البلشفية هو أخلاق مطلقة فوق طبيعية super natural والتى وفقا لها تعد بعض الأفعال صحيحة أو خاطئة ضمنيا وذاتيا ومستقلة عن الزمان ، المكان ، الطبيعة

---

(١) جون ديوى (١٨٥٩ ـ ١٩٥٢) فيلسوف أمريكى ارتبط بالفلسفة البرجماتية ويعرف مذهبه بفلسفة الذرائع وله مؤلفات فى التربية وعلم النفس والسياسة ، ترأس لجنة التحقيق فى اتهام تاروتسكى ومحاكمته بموسكو عام ١٩٣٧ (المترجم) •

البشرية ، والمجتمع · ويبرهن تاروتسكى أنه ينبغى على أولئك الذين ينتقدون الأخلاق البلشفية ، الايمان بأن كل عنف خاطىء ، فليس من الصواب مطلقا أن تقتل وأولئك الذين يعارضون المخادعة البلشفية ينبغى أن يؤمنوا ليس من الصواب مطلقا التفوه والتحدث بغير الحقيقة ، وينبغى دائما اعلان الحقيقة أيا كانت النتائج وهذه هى مواقف كل من كاوتسكى وكانط Kant ومن السهل اثبات أن هذه الأخلاق المطلقة أيا كانت اما أنها متناقضة ذاتيا أو لايمكن تصورها أو تعلقها · فلو أن شخصا يرفض قتل أى شخص تحت أى ظروف ، عندئذ لو كان بمقدورنا قتل مجرم على وشك قتل أناس آخرين ، ولو أن قتله هو السبيل الوحيد لمنعه من ارتكاب جرمه ، عندئذ يكون رفض القيام بقتل هذا المجرم ليس فقط تواطؤا أخلاقيا وتحريضا على موت ضحاياه بل يضاعف عدد أولئك الذين يقتلون · ولهذا يعد دفاع تاروتسكى عن الارهاب مبررا أخلاقيا لانه الوسيلة الوحيدة لتحقيق الأهداف والغايات الاشتراكية التى هى الغايات الاخلاقية الاسمى للانسان ·

والافتراض الثانى فى برهان تاروتسكى ودفاعه عن الارهاب البلشفى ، هو أن السلوك الانسانى فى المجتمع يتحدد من خلال قانون مثل سلوك باقى الموجودات ، والقانون الاجتماعى الذى يحدد السلوك الانسانى بصرامة هو قانون الصراع الطبقى · وماهو مباح وجائز أخلاقيا يشتق فى النهاية من القانون الحتمى للصراع الطبقى وليس من الصعب اظهار زيف هذا الافتراض وعلى الأقل تعارضه مع الافتراض الثانى · فالبديل لوجهة النظر الأخلاقية البلشفية ليست أخلاقا مطلقة فوق طبيعية · وربما يكون المرء طبيعيا ، نسبيا ، انسانيا وفى نفس الوقت يرفض مبادىء الأخلاق

البلشفية ، مثلما فعل جون ديوى فى نقــده المهــذب ولكنه مدمر لموقف تاروتسكى • والأخلاق الانسانية هى مايدركه المرء من تعدد الغايات الانسانية • وهى تبرر أى فعل معين باظهار أن الوسائل المستخدمة لتحقيق نتائج خاصة تحققها بشكل أكثر فعالية من أى بديل ممكن • طالما أن الغايات غالبا ماتتصارع ، ويكون من الضرورى أحيانا استبعاد احــداها لصالح مجموعة من الغايات الأخرى التى يتم قبولها واقرارها بعد تفكير وروية • فالصدق وسلامة الطوية كلاهما غايات مقبولة ومرغوب فيها ، ولكن قلائل هم الذين يرفضــونها ، وكما قال كانط Kant انه سيرتكب قول الكذب غير الضــار لانقاذ حياة طفل من مجرم مهووس • وخلاصة القول لو لم يكن المرء ذا أخلاق مطلقة لن يكون لديه أى أســاس لادانة البلاشــفة ، وبذلك يكون تاروتسكى قد ترك المســألة دون حسم •

المواجهة والمناظرة الأخلاقية ضد الارهاب البلشفى تكمن فى اظهار نتائج وسائل الارهاب التى تتناقض مع الغــايات الاشتراكية التى أقروها ولكن ماهى هذه الغايات ؟؟ يؤكد تاروتسكى أنها «زيادة سيطرة وهيمنة الانسان على الطبيعة واضعاف سيطرة الانسان «فهل الوســائل التى اســتخدمها البلاشفة ــ الديكتاتورية التصفية الجسدية الارهاب الثقافى ــ كانت ضرورية لتحقيق هــذه الغايات ؟؟ كانت نتيجــة استخدام هذه الوسائل تبدو وكأنها ليست لتقليص سيطرة الانسان على الطبيعة ، أن يصبح من الضرورى اعطاء مزيد من القوة للحزب الشيوعى ولكى يمارس بها الحزب الشيوعى فى كل مكان أدت الى زيادة هائلة لسيطرة عدد قليل من الناس على جموع ضخمة من الشعب • ومن الحقيقى أن الشيوعيين لم يمكنهم اقناع أغلبية أى شعب ليفوزوا بحكمه ، حيث ان حكم

الحزب الشيوعى أمر ضرورى لزيادة سـيطرة الانسان على الطبيعـة وتقليص سلطة الانسـان عـلى الانسـان • بل ان الشيوعيين ينتزعون السلطة قهرا ويقيمونها بالارهاب ، ولم يفوزوا بها من خلال الحوار والاقناع •

وفوق ذلك ، يدرك الانسـان أنه ليس لكل القيم وزن متساو ومماثل فى الاقتصاد الأخلاقى ولقد أولى الاشتراكيون تأكيدا مبدئيا نحـو تحـرير الانسـان من الظلم والقهر ، وتقليص سلطة الانسان على الانسان وتعـد زيادة سـيطرة الانسان على الطبيعة احدى وسائل تقليص سلطة الاستبداد الانسانى ولكن الوقائع المقررة تؤكد أنالشيوعيين استخدموا زيادة سيطرة الانسان على الطبيعة كوسيلة لزيادة السيطرة وسلطة الأقلية وهيمنتها على الأغلبية ولن يحتـاج المرء اذن ليكون مؤمنا بالأخـلاق فوق الطبيعية كى يدين الارهـاب الشيوعى ، يحتـاج فقط لاسـتخدام عينيه وذكاء ملاحظته ويكون دافعه هو روح الشفقة من أجـل المعـاناة الانسانية الزائدة وغير الضرورية •

سخر تاروتسكى وهزأ من فكرة وجـود أى معـايير أو مبادىء أخـلاقية تكون «ملزمة للجميع» بل وأكد أن هـذه الفكرة محض تضليل «فمعايير الأخلاق الالزامية فى الواقع ذات مضمون طبقى عدائى ولذلك يرفض ادانة أى عمل حتى يعـرف ما اذا قد تم بأيدى الشـيوعيين ضـد أولئك غـير الشيوعيين أو قام به الآخرون ضد الشيوعيين• ويمكن مقارنة ذلك بموقف رفض ادانة ذبح الأطفال حتى تتبين وتتضـح ماهية سياسة آبائهم • ويفرض الصراع الطبقى والذى تعتبر الحرب الأهلية أعلى أشـكاله ، على الجمـاهير ويتطلب منها السلوك الضرورى الملائم لادارة الصراع ومواصلته • فهل

هناك ماهو أسهل على الانسان فى تقرير سلوكه بصرف النظر عما اذا كان ذلك السلوك بغيضا من أى شكل يتخذه السلوك فى صور الصراع الطبقى الضرورى ويعبر به عن نفسه ؟ وفقا لدفاع تاروتسكى عن الارهاب ، يعتبر من قبيل العاطفة المفرطة أو النفاق والرياء تأكيدا أن الحرب الأهلية التى يتم الانتصار فيها بوسائل ذبح الاطفـال والاسرى الابرياء أو باستخدام وسائل هتلر Hittler وستالين ، لاتستحق خوضها لانها لاتقود ولاتؤدى الى الاشتراكية بل الى مجتمع من نوع ذلك الذى أقامه هتلر وستالين ٠

ينكر تاروتسكى ساخطا ادعاء اعتقاد الشيوعيين بأن غاياتهم تبرر استخدام أية وسائل ورغم انكاره فان موقفه السابق تلزم عنه نتيجة مشابهة لهذا الادعاء ٠ لان الافتراض الثانى فى مناقشته ودفاعه عن الارهاب والعنف الثورى هو «التحرر الأخلاقى للبروليتاريا ٠٠ يستتبع قاعدة للسلوك تستمد من قوانين تطور المجتمع ، وبالتالى مبدئيا من الصراع الطبقى ، فهو قانون لكل القوانين» ٠

ولو كان ثمة صراع طبقى حتمى يمكن استنباط قاعدة للسلوك منه ، اذن ليس من الضرورى ارتباط هذه القاعدة بالغايات الاشتراكية ٠ زيادة السلطة على الطبيعة وتقليص السلطة على الانسان لان القانون الاجتماعى للصراع الطبقى لاتحكمه غايات أخلاقية بل يوجهه قانون بيولوجى للصراع من أجل البقاء ٠ ووفقا لتاروتسـكى وعلى النقيض ، فان محصلة الصراع الطبقى تحدد بالضرورة الغايات التى ينبغى الوصول اليها فالانسـان يفترض ولكن التـاريخ ـ والذى قانونه هو الصراع الطبقى ـ هو الذى يقرر ٠

ومن وجهـة النظـر الأخـلاقية ، فان محصلة الصراع

الطبقى ، مثل محصلة أى صراع آخر ، لاتحدد ماهو خاطىء بل تحدد ماهو قوى ، ولاتحدد من الذى يمتلك الحقيقة بل من يمتلك القوة وينبغى ملاحظة وادراك أن القانون الذى يبرر قاعدة للسلوك فى الصراع الطبقى هو جعل هذا الصراع الطبقى رحمة للمعايير الأخلاقية • ولربما يتم كسب المعركة وأيضا الحق ولكن أصبحت الغايات الاشتراكية غير ذات علاقة بالموضوع تماما ويعترف تاروتسكى نفسه بأن «الكذب والشر» جزء ملازم للصراع الطبقى حتى فى أكثر أشكاله البدائية» وفى كلمات أخرى ، توجد نقاط أقل بكثير لادانة الأشكال التى يعبر بها الصراع الطبقى عن نفسه من تلك التى تدان بها الاشكال التى تعبر بها القوانين الطبيعية الاجتماعية عن نفسها • ويكتب تاروتسكى الرجل الذى كان ضحية لاحدى مكائد ستالين والتى تغاضى عنها ضد المناشفة mensheviks «ان مكائد ستالين ليست ثمار النزعة اللاأخلاقية البلشفية ، لا ، فهى مثل كل أحداث التاريخ الهامة ، نتاج الصراع الاجتماعى الملموس ••» وهكذا ستذوب المسئولية الانسانية وتتحلل فى الضرورة التاريخية المشكوك فيها •

يتصف تاروتسكى بصدق وأمانة تميزه عن الشخصيات البلشفية الأخرى ، ولقد تمكن بهذا الصدق من استنتاج نتائج تتسق ومقدماته القدرية حتى عندما لايكون معنيا بمضامين تلك النتائج • لو اعتبر الانتصار فى الصراع الطبقى هو كل شىء والغاية النهائية للسلوك الشيوعى فان الهزيمة ستكون جريمة أخلاقية • وهذا سيجسد أخلاقيات محاكمات موسكو • وطالما أن الانتصار فى الصراع الطبقى يمكن بواسطة حزب منضبط وملتزم فانه لمن الواضح «أنه بالنسبة للبلاشفة يعتبر الحزب هو كل شىء» مدللا أنه حزب

حقيقى ويتحدد ذلك بانتصاره فى النضال ومثلما يمكن تفسير آيات السماء من خلال كنيسة حقيقية فقط ، فان قرارات الصراع الطبقى لاتفسر الا من خلال حزب حقيقى فقط • وينتقد نورمان توماس Norman Thomas لأن معياره الأخلاقى يوجد خارج الحزب» بينما بالنسبة للماركسى الثورى «لايمكن وجود تناقض بين الأخلاق الشخصية ومصالح الحزب، طالما أن الحزب يغرس فى وعيه أسمى المهام والغايات للبشرية» •

ولسوء الحظ لم يكن وعى تاروتسكى كذلك !! ولكن أيا كان وعيه ينبغى أن يؤسس موضوعيا فى حدود وسياق أنشطة الحزب نحو الغايات الاشتراكية ، وليس وفقا لحدود الضرورات المزعومة للصراع الطبقى • ومثلما فعل لينين ، وبعد استبعاد تاروتسكى للأغراض والدوافع الشخصية باعتبارها غير ذات صلة بالموضوع عندما يتعلق الآمر بأفعال الآخرين ، قدم تاروتسكى «وعيه بدوافعه الخاصة وأغراضه كدليل على خدمة الحزب للبشرية» وفى ضوء الصراع الطبقى تعتبر «البشرية» الانسانية مجرد تجريد ، فالطبقات هى الواقع الاجتماعى الحقيقة •

يصبح من الخطأ افتراض استعداد تاروتسكى للسماح للطبقة العاملة باختيار حرفى تحديد الكيفية التى يغرس بها الحزب الشيوعى الايمان بالمهام والأهداف الخاصة بالبشرية» •• لو أن ديكتاتورية البروليتاريا تعنى أى شىء آخر ، فهى تعنى اذن ، أن طليعة الطبقة مسلحة بوسائل وموارد الدولة لدرء الخطر بما فيه الخطر الذى ينبثق من المخابىء والمكامن الخلفية للبروليتاريا ذاتها» •

ولكن ماهى «طليعة الطبقة» ؟ انها الحزب الشيوعى •

وماهى «المواقع الخلفية للبروليتاريا ؟ انهم أولئك الذين لايوافقون على برنامج الحزب الشيوعى ·

والمخاطر التى يبرر الحزب الشيوعى استخدام سلطة الدولة في مواجهتها · بما تتضمنه من اختلاق التهم ، المكائد، التعذيب ، «الكذب ـ الاساءة» تشمل هذه المخاطر احتمال انكار وجحود الحزب الشيوعى من قبل أولئك الذين يزعم أنه يعمل لصالحهم · فلقد كان تاروتسكى متسقا فى اخضاعه عملية الديمقراطية وجعلها تابعة لبرنامج الحزب الشيوعى «بالنسبة للماركسى يبقى السؤال دائما : الديمقراطية من أجل ماذا ؟ لأى برنامج ؟ فالاطار العام للبرنامج هو فى نفس الوقت اطار العمل للديمقراطية» ·

رغم أن تاروتسكى أكثر اتساقا من لينين ، الا أنه سقط فى هوة خداع عميقة · فهو يقدم كخلاصة نهائية للأخلاق الشيوعية هذه القاعدة الأساسية «ان خير وصالح الثورة هذا هو القانون الأعلى» وفى الواقع الفعلى أن كلا من لينين وتاروتسكى جعلا خير وصالح الحزب الشيوعى هو القانون الاسمى · ولكن بالنسبة لمعظم الأجيال الاشتراكية السابقة ، ليس مصلحة وخير الثورة هو القانون الاسمى ولكنها الحرية وخير وصالح البشرية · ولم تمنح لهم حريتهم ورفاهيتهم تلقائيا من خلال مسار القوى الانتاجية بل كان عليهم أن يكتسبوها ويفوزون بها من خلال الوسائل التى تتلاءم فعليا مع تلك الغايات · والالزام الخلقى يعنى أن تكون مدركا وواعيا ببدائل الفعل ومقدرا بأعبائها وتكلفتها الانسانية ولكن الشيوعيين كانوا مصفدين بأغلال نظرية التاريخ وفقا لها سيتم انجاز المثل والغايات الاشتراكية حتميا كمحصلة للقانون الأساسى للتاريخ ، وهو الصراع الطبقى · هذا

الاعتقاد لن يشل فعاليتهم ونشـاطهم طالما أنهـم يطالعون ارادتهم فى التاريخ • وهـذا يزيدهم صـلابة ويجعلهم غير مبالين وغير مكترثين بالوسـائل التى يسـتخدمونها وتكون النتيجة ، رغم أنهم انطلقوا لبناء اقتصاد الحرية ، الا أنهم انتهوا الى مجتمع قد أصبح نموذجا لمزرعة حيوانات جورج أورويل (١٩٨٤) • George Korwell's animal farm (1984). (١)

---

(١) « ١٩٨٤ » رواية للكاتب الانجليزى جورج أورويل كتبها عام ١٩٤٨ على غرار جمهورية أفلاطون لكنها اتسمت بالتشاؤم والفزع ، يرى اورويل ان « ١٩٨٤ » ستكون آخر سنة ميلادية يعرفها البشر وتقوم حكومات استبدادية وينقسم العالم الى ثلاث دول أوشيانا (المحيطية ويقصد بها الولايات المتحدة الأمريكية ، يوراشيا الأوروبيـة اسيوية) يقصد بها الاتحاد السوفيتى وايستاشيا (آسيا الشرقية) يقصد بهـا الصين ، وتحكم الدولة سيطرتها على الأفراد حتى تلغى ارادتهم وتفكيرهم وتنشأ « شرطة التفكير » لاحكام الرقابة على اذهانهم والغاء ذاكرتهم وخضوعهم للحكم الشمولى الذى يفتقر للحريه والديمقراطية « لا ولاء فيه الا للحزب ولا حب الا للاخ الكبير الذى يقف على رأس الحزب » ورغم عدم تحقق نبوءة اورويل الا انها تعد صورة كاريكاتورية لما قد حدث ويحدث فى المجتمعات الشيوعية من سحق لفردية الانسان وتغييب لدور الشعب وتركيز للسلطات فى أيدى قادة الحزب الشيوعى (المترجم) •

الفصل السابع

روزا لوكسمبورج

١ ـ حياتها وأعمالها :

تعد روزا لوكسمبرج Rosa Luxemburg واحدة من أكثر الشخصيات البارزة فى الحركة الماركسية فلقد جمعت بين الحماس الثورى وذكاء متقد بالاضافة الى المامها بكل أبعاد القيم وأطيافها فى التجربة الانسانية واعتبرت نفسها ماركسية أرثوذكسية فى مواجهتها للتحريفيين المعاصرين على صعيد الفكر النظرى • واتسمت معارضتها لبرنشتاين بحدة ومبدئية أقوى من معارضتها لكاوتسكى • واتسم ايمانها بالماركسية الارثوذكسية بالطابع النقدى والاستقلالية ، فلقد أولت المبادىء احتراما وتقديرا ، ولم تعتبر الأشخاص أو المنظمات كأشياء مقدسة ، حتى الآباء المؤسسون للماركسية لم يحظوا بتقديسها • وروزا لوكسمبرج شخصية مثيرة للجدل ولكنها حظيت بمزيد من التقدير فى صفوف الحزب الاشتراكى الديمقراطى الالمانى ، وهى فى نفس الوقت شخصية فعالة فى محيط الحركة الاشتراكية البولندية والروسية • ولقد تعرضت للسجن بسبب معارضتها فى ألمانيا ابان الحرب العالمية الأولى وتعتبر رسائلها من داخل السجن وآساسا تلك البعيدة عن المسائل السياسية ضمن الكنوز الأدبية للعصر •

اتخذت كتابات روزا لوكسمبرج المتنوعة من مقالات وكتب موقفا مناوئا ومعارضا لكافة النزعات الاصلاحية

reformism بمختلف صورها ، فى فترة ماقبل الحرب العالمية الأولى • فلقد انتقدت بشدة مشاركةالاشتراكيين فى الحكومات الائتلافية ، ووضعت بيانات مؤثرة ضد كافة أشكال الاعداد للحـــرب ، دون انــكار أهميـــة وضرورة العمـــل البرلمانى parliamentary ناصرت بحماس العمل الجماهيرى ، وبشكل خاص الاضراب العـــام باعتباره أكثر الطـــرق الفعالة التى يمكن للبروليتاريا الحصول بها على السلطة • وتعـــد روزا شخصية أممية تتسم بصلابة الرؤية ، فلقد رفضت باتساق مع قناعاتها ، استبدال التحرر الوطنى بالتحرر الاشتراكى ، أو مجرد التوحيد بينهما والثورة الاشتراكية ستحل تلقائيا المشـــكلات الثقافية للاقليـــات القـــومية بروح ليبرالية • واتخذت روزا موقفا متميزا ومعارضا لرأى ماركس وانجلز بصدد المسألة البولندية ،حيث اعتبرت أن الشعار السياسى الذى أعلناه بحق تقرير المصير للشعوب خطوة متخلفة لأن المشكلة الاجتماعية هى التى تأتى فى الصـــدارة وستختفى المشاكل القومية فى الولايات الاشـــتراكية المتحدة لأوروبا وبعدئذ تختفى فى العالم بأسره •

دافعت روزا فى نفس الوقت عـــن النقـــد المـــاركسى للرأسمالية ، وطبقته بطـــريقة حيـــة واستخدمت نتائجـــه كمقدمات لرفضها الحلول الاصلاحية ومطالبتها باستراتيجية ثـــورية • وناقشت فى كتاباتهـــا تـــراكم رأس المـــــال The accumulationg of capital الذى نشر قبيل الحـــــرب العـــالمية الأولى ، ان الرأســـمالية بتطورها تتجـــه نحـــو التوســـع من قطر لآخر ، ومن رقعة لأخرى • ويتطلب التوسع الرأسمالى سوقا دائما للتوسع • حيث ان الســـوق الداخلى غـــير كاف للتوظيف المستمر لرأس المـــال وتراكمـــه لتحقيق ربحيـــة الانتاج ، ويؤدى هذا الى ضـــمور واضـــمحلال الرأسمالية

وانتقالها الى المناطق الغير رأسمالية فى العالم • ويتحتم على الرأسمالية القيام بذلك على الأقل لتدعيم قوة العمل الاضافية وتلافيا لفترات الكساد الرآسمالى ، ومن ثم ينتقد ماركس لفشله فى ادخال هذه النقطة فى غضون تحليله • وتبوء جهود الرأسمالية كى تصبح عالمية بالفشل لعدم قدرتها على حفظ توازنها الذاتى وهى تحتاج دوما لعوالم جديدة ليمضى دولاب عملها وطالما هذا محدود فان انهيار الرآسمالية مؤكد وضرورى منطقيا • وتعتمد اللحظة المحددة التى تتجسد عندها هذه الضرورة المنطقية فى ضرورة تاريخية على وعى العمال المؤهلين للنضال •

استنكرت روزا لوكسمبرج «الوطنية الاشتراكية» social patriotism عند اندلاع الحرب العالمية الأولى ، والتى تبناها الحزب الاشتراكى ـ الديمقراطى الألمانى بل وطالبت الأحزاب الماركسية باصدار منشورات وبيانات ثورية ضد الحرب والنظم الاجتماعية التى أفرضتها ورحبت روزا بالثورة الروسية فى بدايتها • ثم مالبثت أن كتبت نقدا حادا ، ولكنه غير عدائى ، للنظرية البلشفية وممارستها وتطبيقها ، ابان فترة وجودها بالسجن • ورغم عدم خلو تحليلها من التناقض ، الا أنه تحول الى اتهام خطير حول الكيفية التى ستتطور بها ثورة أكتوبر والتى أثبتت الأحداث فيما بعد صدق نبوءتها الخارقة •

نظمت روزا بعد اطلاق سراحها على يد الثورة الألمانية ١٩١٨ ، بالاشتراك مع كارل ليبنشت Karl Liebkneckt جمعية سبارتاكوس Spartacus (١) وحثت على العودة «لروح»

---

(١) كارل ليبنشت (١٨٧١ ـ ١٩١٩) زعيم اشتراكى المانى بارز ، اشترك مع روزالكسمبرج فى تاسيس « جمعية سبارتاكوس » لتقود المقاومة ضد اشتراك الشعب الالمانى فى الحرب الاستعمارية ، وأصبحت بعد ذلك نواة للحزب الشيوعى الالمانى •

البيان الشيوعى ورفض العقيدة الاشتراكية الديمقراطية باعتبارها نزعة تحريفية ليست أقل جمودا وجدبا من التحريفية المبكرة التى انتقدتها آنفا • وتمثلت استراتيجية روزا لانتزاع السلطة فى المطالبة والدعوة الى الاضراب الفعال فى مصنع تلو الآخر حتى تتراكم القوة الكافية لدى الجماهير وحتى تصبح المقاومة مستحيلة • ورغم ذلك بدأ وكأن الجمعية السبارتاكوسية قد تأثرت بالنموذج البلشفى أكثر من تأثيرها بتعاليم روزا • وخلافا لرأيها وضد مشورتها ارتفعت قبضة أعضاء الجمعية بالسلاح ضد النظام الانتقالى المؤقت والذى تربع عرش السلطة بعد تنازل القيصر • ولكنها وبالمثل رفيقها كارل ليبنشت التزما بقرار الجمعية وواجه كلاهما ميتة وحشية بشعة أثناء اقتيادهما للسجن • واكتسب نقد روزا للبلشفية تأثير متزايد فيما بعد موتها وعلى الحركة الاشتراكية فى الغرب ، ولم تحظ كتاباتها الأخرى بتأثير ملحوظ •

٢ ـ نقد الثورة الروسية :

رغم نقد روزا لنظرية لينين التنظيمية قبيل الحرب الا أنها تعاطفت مع برنامج البلاشفة والذى وضع الثورة الاشتراكية على جدول أعماله • فهى لم تكن معارضة لهدفهم فى الحصول على السلطة السياسية بل عارضت طريقتهم فى انتزاع السلطة ، والاسلوب الذى أقاموا به سلطتهم ، والمنهج الذى برروا به لأنفسهم القيام بكل ذلك • ولكنها بالغت كثيرا فى امتداحها لشجاعة البلاشفة وأيضا فى التماس العذر لهم والبحث عن ظروف مخففة لأخطائهم ومع ذلك أصرت على وجود هذه الأخطاء ، وعلى نتيجتها المأساوية المفجعة • وألقت بمسئولية هذه الأخطاء الأخلاقية فى النهاية على كاهل

كل الاشتراكيين الذين افتقدوا الوعى الكافى والشجاعة الأخلاقية والبدنية لايقاف الحرب وانجاز الثورة الاشتراكية فى البلدان الديمقراطية الغربية • واعتقدت ، بدون أى دليل على صدق اعتقادها ، ان ثورة أكتوبر طرحت بديلا واضحا بين أى من الديكتاتورية الثورية أو احياء الثورة المضادة ، ودون أن تحاول البحث حول مدى تغذية واسترفاد أى شكل من أشكال التطرف لنقيضه ، ادعت أن الاختيار الوحيد كان «اما كالدين Kaledin » (الجنرال القيصرى) أو «لينين» •

هذه الأنواع من النقائض anti-thesis من السهل انتاجها وكان على الغرب أن يسمعها فى اطار الثنائيات الزائفة مثل «أما الشيوعية أو الفاشية» والتى كان يعتقد فيها الشيوعيون والفاشيون فقط ، بحيث يصبح الحقيقى دائما بفضل هذا الاعتقاد حقيقيا • وفى حالة روزا لوكسمبرج ، أيا كانت النتائج المستخلصة فانها لاتستخلص لحد بعيد من تحليل الواقع العينى المتجسد بل من فلسفة معينة للتاريخ وطبقا لها يمكن الاحتفاظ بالاصلاحات الديمقراطية الأولية المكتسبة فى أى ثورة فقط من خلال توسيع هذه الثورة • ووفقا لهذه الرؤية تعد الفترة التاريخية الحرجة مثل منعطف جاد • والثورة الاشتراكية مجرد «قاطرة للتاريخ» يمكنها أن تنقلنا عبر هذا المنحدر وهذا هو السبب فى ضرورة سيرها بقوة تامة قدما نحو الأمام فلو اضطرب سيرها أو توقفت ، ستتهاوى حتما نحو القاع • ويتضح استخدام روزا للعديد من الاستعارات والتشبيهات المتنوعة للتعبير عن اعتقادها بعدم انطباق وملاءمة القواعد العادية للأفكار المشتركة السائدة فى الحياة السياسية على الفترات الثورية ، فالديمقراطيون الذين يتخيلون أن بوسعهم تطبيق «حكمتهم الشخصية

المستمدة من المعارك النيابية بين الضفادع والفئران فى مجال المناورات والتكتيكات الثورية tactics هؤلاء قرأوا التاريخ فقط لأهداف ضئيلة وليس بوسعهم ولن يحاولوا صنع التاريخ ٠

رغم تقدير روزا للبلاشفة باعتبارهم مقاتلين أشداء ذوى عزم وارادة صارمة ، أنقذوا شرف الثورة الروسية والحركة الاشتراكية العالمية ، كما ذكرت فى مقدمة وخاتمة كتابها الثورة الروسية ، الا أن الفكرة الرئيسية للكتاب تميل بشدة ضد البلاشفة وتتهم روزا سياسات البلاشفة بمساهمتها فى انهيار وتحطيم الاقتصاد الروسى ، وأن برنامجهم الزراعى اتسم بالغوغائية (الديماجوجية (demagogic وأدى بالتأكيد لمشاكل خطيرة ، وان موقفهم من المسألة القومية أفسح مجالا للثورة المضادة ، وان حلهم للمجلس التشريعى كان خيانة للتقاليد الديمقراطية للماركسية وبالمثل خيانة لشعاراتهم الدعائية وكشفها كرياء ونفاق سياسى وأن قيودهم على حق الانتخاب والحقوق المدنية الأخرى جعلت من «حكم العمال» اضحوكة وانهم حين أحلوا ديكتاتورية الحزب محل ديكتاتورية البروليتاريا انما أحلوا الارهاب محل الحوار والاقناع ، وان فرضهم الاشتراكية بمرسوم وقرار استبدل المثل الاشتراكية واختار بدلا منها نهج الانتهازية ، وفى النهاية ، وفوق كل ماسبق فان البلاشفة كانوا معصوبى الأعين عن حقيقة هامة وهى استحالة تحقيق الاشتراكية بدون ديمقراطية ٠

ويتبقى من كل الاتهامات التى وجهتها روزا للبلاشفة ، أخطرها وآخرها ٠

٣ ـ الديمقراطية فى مواجهة البلشفية :

اهتمت روزا لوكسمبرج كأى ماركسى أرثوذكسى (سلفى) بأبعاد وحدود الديمقراطية السياسية • ولكن لتميزها وانفرادها عن معظمهم ، لم تشجب الديمقراطية «الشكلية Formal باعتبارها صنما مقدسا ، ولم تتحدث باستخفاف واستهجان وعدم تبجيلها أمام مذبحها ولقد عارضت روزا كل «الاصنام» بما فيها صنم الاشتراكية ولم تتعبد بتقديم القرابين أمام مذبح أى منها ، ولذا لم تتعبد أمام محراب أى حزب • بل ورأت لو أن التعبير الديمقراطى لارادة الجماهير بدا وكأنه غير حكيم بالنسبة للاشتراكيين ، فالاستجابة ورد الفعل ينبغى ألا يكون قمعا بل تعليما ولجوءا متجددا لخبرة الجماهير السياسية •

ناقشت روزا فيما يتعلق بهذه النقطة ماقدمه لينين وتاروتسكى من أسباب لحل المجلس التشريعى وأعلنت أنها غير كافية للحل • فلقد ادعى البلاشفة أن أولئك الأعضاء المنتخبين للمجلس لايمثلون ولايعبرون لحد بعيد عن الحالة الحقيقية لعقل وفكر أولئك الذين انتخبوهم من شهور قليلة مضت • فكيف عرف البلاشفة ذلك ؟ حتى لو اعتقدوا فى صحة هذا الادعاء فلماذا لم يدعوا لاقتراع جديد ؟ فلو كان لدى البلاشفة ايمان حقيقى بالجماهير ، كما يدعون ربما اعتمدوا على مزاج الجماهير mood of masses واختياراتهم وجعلها تعبر بذاتها فى اختيارها لنوابها وممثليها ولكن البلاشفة اشتكوا من ميكانيزم (آليات mechanisms الجماهير ودوافع حركتهم المعوقة • ربما كان ذلك صحيحا ، ولكن الأصح أن البلاشفة لم يشتكوا من هذه المعوقات الجماهيرية ، عندما يكون الاقتراع لصالحهم •

رأت روزا أن تصحيح الاجراءات المعوقة يتم بالاعتماد على الحركة الجماهيرية الحية وضغطهم الغير متناهى ، لان أشكال الديمقراطية وصورها ربما تكون غير ملائمة لروح الجماهير ولان روح الجماهير كفيلة وقادرة على القيام بالاصلاح ، وليس الاصلاح بسوط الجلاد • وتقول روزا صراحة للبلاشفة ان عيوب الديمقراطية يمكن علاجها بالمزيد والأفضل من الديمقراطية •

ترى روزا من المؤكد أن المؤسسة الديمقراطية لها حدود ونقائص ، وهى الأشياء التى تشترك بها بلاشك مع باقى المؤسسات الاجتماعية الأخرى ، ولكن العلاج الذى اكتشفه لينين وتاروتسكى لهذه النقائص بالغاء الديمقراطية ذاتها ، يعد أسوأ كثيرا من المرض الذى يفترض آنه يعالجه ، لانه يعوق مجرى المنبع الحى الذى يتأتى منه فقط تصحيح كل النقائص المتأصلة فى المؤسسات الاجتماعية وهذا المنبع هو الحياة السياسية النشطة ، الغير مقيدة ، والفعالة لجماهير الشعب العريضة •

من الطبيعى أن يحتكم لينين وتاروتسكى آيضا ، الى «المشاعر الديمقراطية» للجماهير ، ولكن مالم تكن الآليات mechanisms التى تسجل هذه المشاعر متخصصة وما لم تصان ويتم حمايتها والعناية بها من سوء الاستخدام ، سيصبح ذلك مجرد كلام انشائى وتعرض روزا فكرتها فى غضون نقدها للقيود التى كبل بها البلاشفة عملية الانتخاب • فطالما أنه من المفروض اقامة الانتخاب على «منح صك العمل» والذى قيده البلاشفة ببساطة من خلال حرمانهم معارضيهم من التمتع بحق العمل • وحرمان قطاعات عريضة من المجتمع من حق التصويت ووضع البعض خارج نطاق القانون والبعض الآخر

خارج الاطار الاقتصادى للمجتمع ، لذا يمكن للبلاشفة بشكل استبدادى صياغة آى ادعاء يروق لهم عن المشاعر الديمقراطية كما يرونها هم لباقى أفرادالمجتمع وتستطرد روزا لوكسمبرج أنه حتى هذه الادعـاءات ، لايمكن أخـذها مأخذ الجـد بمصطلحاتهم ذاتها حيث لايعترف البلاشفة بحرية التجمهر والاجتماع والنشر لأولئك الذين يعارضون النظام السوفيتى، وبدون هذه الحريات «لايمكن تصور حكم الجماهير العريضة للشعب ككل» •

لقد شعر البلاشفة بمدى الالزام الذى يفرضه عليهم رجال الاعلام بالتظاهر بالديمقراطية نظرا للقيمة الدعائية لهم ، وبلاشك كى يؤدوا ممارساتهم لأنفسـهم فى ضـوء أفضل مايمكن فأحيـانا أنكروا وقائع الاضـطهاد وعنـدما لايمكنهم الانكار بشكل معقول ويمكن قبوله ، فانهم يبررون الاضطهاد كاجراء دفاعى ضد اعتـداء يشتبه آنه وشـيك الوقوع وفى طور الاعداد • وعندما يصبح ذلك أمرا مكشوفا وعار عن الصحة والحقيقة ، يدافعـون عن ارهـابهم المنظم كاجراء ثأرى وانتقامى ضد التجاوزات، سواء كانت حقيقية أو متوهمة من جانبهم • وعندما آصبحت سياسة الاضـطهاد دائمة وشديدة التوتر بتتابع الأعوام ، لجأ البلاشـفة بدون كامل وعيهم الى تقنيات الفسـاد ودلالاته والذى تجسد فى ممارسة منظمة فى ظل ستالين ، ثم هاجمه وانتقده اورويل» Orwell بوحشية هذه التقنيات تشخص وتحدد الاضداد العادية للكلمات من أجل اسـتغلال التـداعى الوجـدانى للكلمات الايجابية positive وبذا آصبح شـن الحـرب منهجا لنشر السلام ، وأصبح عهد الارهاب عهداً للحرية ، وأصبح خط الحـزب حقيقة عليا ، حتى عنـــدما يكون مبنيا على الكذب ويستمر نقد روزا لوكسمبرج ليخترق صميم خداعهم ، فى

تعليقها اللاذع بأن الحرية لايمكن أن تمنح كامتياز خاص للقلة • والحرية لأعضاء حزب واحد فقط ليست حرية على الاطلاق «الحرية دائما وعلى وجه الحصر للفرد الذى يختلف مع السلطة فى تفكيره» •

٤ ـ منبعا الايمان بالديمقراطية :

اشتقت روزا لوكسمبرج ايمانها العميق بالجماهير من منبعين تتفاوت قيمتهما لحد بعيد يتمثل المصدر الأول فى اقتناعها بأن قوانين التطور التاريخى ستتلف وتلغى قابلية النظم والمبادىء الرأسمالية للحياة • فالتحرر من كابوس نظام الفائدة ، سيجعل دوافع العمال الاولية متحررة وتبحث عن صور جديدة للتعبير • وينظم ويروض وعيهم وادراكهم من خلال تقلبات وتتابع الصراع الطبقى المحتوم • ليصبحوا فى النهاية مجبرين ومسوقين لاعتناق رؤية انسانية للعالم تتوافق مع الأسس الاجتماعية والاقتصادية للنظام الجديد الذى يحيك النظام القديم خيوطه الآن • ويتمثل المصدر الثانى لايمانها العميق بالجماهير وينبع من مصداقية العملية الديمقراطية ذاتها • فلقد كانت واثقة بأن التجربة الفعلية المباشرة للمشاركة الديمقراطية ومناقشات الرجال والنسوة العاديين فى أمور حياتهم اليومية وأعمالهم ستوسع أفق تفكيرهم ، وتجعلهم أكثر وعيا وفكرا ، وتطور حاجاتهم الجديدة المعقدة والمتميزة •

وتستخلص من المصدر الأول اعتقادها فى الانهيار التلقائى للرأسمالية ، وتوقعها لسخط وتمرد الجماهير العفوية وتطورها العارم نحو مستويات أعلى من الوعى الثورى • وتستخلص من المصدر الثانى ضرورة وجود تواصل وارتباط بين الوسائل والغايات الديمقراطية ، وسخطها الأخلاقى على

حائكى ومنظمى التلاعب بالاجماع والموافقة الجماهيرية ، وان عملية تعميم المنهج والاسلوب البلشفى لانتزاع السلطة وجعله نهجا عالميا ، كما فعل لينين وتاروتسكى هو محض خيانة للاشتراكية ويظهر من المصدر الأول رومانسية ثورية حالمة وصوفية متضاربة مع عقلانية ومثالية مرنة تتبدى فى المصدر الثانى . ومما يذكر لها آنها كتبت فى ملاحظاتها وتعليقاتها على الثورة الروسية ، كفرد ملهم ببصيرة ونفاذ رؤية أعمق كثيرا من تحليلها الاقتصادى الذى تجاوزته الأحداث تبعا لتنامى القوة السياسية والصناعية للعمال ذاتهم . وكتبت روزا باعتبارها تتفهم الكائن الانسانى وتعنى به وكأنها قد أدركت أن خاصية الخبرات والتجارب الشخصية والتى تجعلها المؤسسات الاجتماعية ممكنة هى المحدد النهائى لقيمة الأشخاص .

يكتسب الانجاز النقدى لروزا لكسمبرج آهميته الفعالة بوضع الوقت والظروف التى صاغت فيها أفكارها حول الثورة الروسية فى الاعتبار ، وتقدير رغبتها الحائرة فى ذكر كل شىء مرضى يمكنها قوله عن البلاشفة ، والذين مجدتهم ورفعت من شأوهم لمعارضتهم للحرب العالمية الأولى ولو قرأ نقدها على أنه تقييم للبلشفية فى آنقى صورها سيصبح أكثر تدميرا .

ينبغى التسليم فى النهاية بأن ايمان روزا لوكسمبرج بالعمال يستبق الدليل . فلقد آحلتهم بسهولة من مسئولياتهم عن تأييد الحرب والأحداث الأخرى التى اعتبرتها شائنة . ونظرت للعمال بعيون مثقلة بالاثم كشخص نشأ وترعرع فى بيئة رغدة مترفة . وحقيقة الأمر آن ملايين العمال الغربيين، حتى لو كانوا أقلية فقط ، لم يتأثروا بنقدها للثورة الروسية

وتابعوا لينين وستالين رغم تحقق أسوآ نبوءاتها وسلكوا مسلكا معاديا لتصورها التاريخى للبروليتاريا ٠

ورغم ذلك يظل نداؤها المقدس لهم بالاشتراكية والديمقراطية صادقا حتى اليوم وكما كان عندما صيغ لأول مرة ٠

ليست الديمقراطية الاشتراكية شيئا يبدآ فقط فى الأرض الموعودة بعد خلق واقامة أسس الاقتصاد الاشتراكى، فهى لاتأتى كنوع من هدايا الكريسماس christmas لأولئك الذين يستحقونها ، ويكونوا فى غضون ذلك قد آيدوا بولاء قبضة الطغاة الاشتراكيين لكن الديمقراطية الاشتراكية تبدأ متسقة ومتزامنة مع بدايات بناء وتشييد حكم الطبقة وبناء الاشتراكية ٠

الفصل الثامن

ستالين

ورث ستالين Stalin سلطة لينين بعد وفاته فى مطلع ١٩٢٤ ، بعد صراع قصير وعنيف على تولى كرسى الخلافة الرسولية • واستمر حكم ستالين قرابة الثلاثين عاما تحولت ابانها الحياة الروسية تماما • وتطورت لحد بعيد النظرية والممارسة البلشفية • وساعدت ظاهرة الهمجية الفاشية فى اوروبا واسترضاء الغرب لستالين بالاضافة لدهائه وصلابته على حصوله على مكاسب سياسية ضخمة • ومن ثم تغير ميزان القوى العالمية لصالح المعسكر الشيوعى ورغم احتمال ترحيب لينين بانجازات ستالين لو كان حيا ، الا أنه كان سيرفض الوسائل التى تحققت بها هذه الانجازات فلقد كانت وصية لينين للحزب الشيوعى هى ابعاد ستالين عن موقع سكرتير الحزب لانه كان «فظا جدا كطاه يعد وجبات حريفة لاذعة حتى بالنسبة لمعدة البلاشفة» •

اقتنع ستالين رغم ذلك بكونه تابعاً وحوارياً مخلصاً مطبقا للرؤية اللينينية للماركسية فى مرحلة تاريخية جديدة ويوجد بالفعل تواصل واستمرارية بين أفكارهما وأعمالهما، ولكن من نافلة القول ادعاء أن ستالين كان مجرد وريث للينيين وحسب • فمجمل أعمال لينين ككل لاتستوجب بالضرورة أعمال ستالين ، ولكن بدونها لم يكن بامكان ستالين النجاح فى تطوير الوجه القمعى للديكتاتورية البلشفية الى

نظام مكتمل من الشمولية فى التاريخ العالمى . ولقد تجسدت هذه التطورات على صعيد النظرية والمبادىء فى ظــل لينين بالابتعاد والتخلى عن التقاليد الديمقراطية لماركس ، وابتعاد البلشفية عن المدار الســياسى المــاركسى بحيث بدت وكأنها تطلبت واستلزمت مجموعة جديدة من المقولات والمصطلحات لفهم ماهو موجود ومايحدث في الاتحاد السوفيتي .

لاتعبأ المفاهيم الشعبية الدارجة للتاريخ بأية حال بدقة المعالجة المعجمية بل وتهزأ منها . فبتناول المصطلح «الماركسية» نجد أنه يستخدم ويوظف على أوسع مدى ليشير الى التعديلات التى أدخلها ستالين على تلك التى أدخلها لينين بدوره لرؤية ماركس . ولذا من الضرورى الاشارة الى طبيعة اسهامات ستالين النظرية والتنظيمية . وهى لاتتسم بالعمق ولا الابتكار الفكرى . ولكنها تعد تاريخيا صانعة عهد جديد .

١ ـ اقامة الاشتراكية فى قطر واحد :

قدم البلاشفة تبريراً أساسياً لتقلدهم السلطة وتربعهم على دستها فى بلد مثل روسيا يتسم بالتخلف الاقتصــادى ، وأقاموا تبريرهم على توقع حــدوث ثورات اشــتراكية فى الغرب . وحتى قيام هذه الثورة تكون مرحلة انبثاق وظهور التخطيط العلمى لاقتصاد العالم الاشتراكى . واذا مافشلت هذه الثورات ولم تتحقق ، يصبح أمامهم طريقان بديلان ، يتمثل الأول فى التمسك بالسلطة والحفاظ عليها ، والبحث عن تنظيم الثورات فى البلدان الأخرى من خــلال الدولية الشيوعية ، وأما الطريق الثانى أمام البلاشفة فهو تكريس الطاقات لبناء الاشتراكية فى الاتحاد السوفيتي والاحتفاظ بروابط التعاطف مع الحركات الثورية فى أى مكان . ولقد فضل لينين وتاروتسكى البديل الأول ، الا آن لينين فى أواخر

حياته بدا وكأنه يشير الى أن البديل الثانى ملائم ومعقول . وبعد وفاة لينين ، أيد ستالين البديل الثانى بكل جوانحه .

لايعد هذان البديلان ، صراحة ، جامعين مانعين (١) . ولكن السياسة فى الغالب مجال للتأكيد والحديث القطعى ، والحديث والتناول السياسى يعطى تأكيدا وتركيزا على جانب معين من السلوك أو نقيضه مباشرة ، فرغم تأكيد تاروتسكى على الثورة العالمية الا أنه اعتقد فى الوقت ذاته بضرورة تحرك الاتحاد السوفيتى نحو الاشتراكية وصياغة خطط طموحة للتصنيع . بل وأنكر فى النهاية امكانية اقامة الاشتراكية فى قطر واحد بمفرده ومن ناحية أخرى نجد أن ستالين باعتقاده فى التركيز والتأكيد على بناء الاقتصاد الاشتراكى ، تبنى برنامج تاروتسكى للتصنيع ، وضاعفه . بل وأنجز أيضا جماعية الزراعة Collectivization من القمة . والتى كان لها تأثير هائل على العلاقات الاجتماعية والحياة اليومية فان تأثير عملية انتزاع السلطة ذاتها .

اعتقد ستالين أن الاتحاد السوفيتى لو ترك وبأنه لأمكنه أن يطور اقتصاداً اشتراكياً مزدهراً معتمدا على موارده الأولية والبشرية الذاتية وتساءل ستالين «ما الذى نعنيه بقولنا أن انتصار الاشتراكية فى بلد واحد بمفرده أمر ممكن ؟؟ ويجيب على تساؤله «نحن نعنى أن تقلد البروليتاريا للسلطة فى روسيا السوفيتية يمكن توظيفه لاقامة وتشييد مجتمع اشتراكى تماما هناك» وهذا ماأنكره تاروتسكى بشدة . ولكن ستالين أيضا اعتقد بأن الاتحاد السوفيتى لن يترك وشأنه وقبل بناء الاشتراكية ، أكد ستالين أن القوى

---

(١) exhaustive جامع ، exclusive مانع ، التعريف الجامع هو أدق التعريفات المنطقية لاشتماله على كل أفراد الفئة المراد تعريفها ، وخلوه من تداخل أفراد أية فئة أخرى ، وذلك لاشتماله على أدق وألصق الصفات الجوهرية ـ (المترجم) .

الرأسمالية العالمية مسوقة بطبيعة اقتصادياتها للتوسع أو الفناء ، وهى ستختار التوسع بافتعال الحرب ضد الاتحاد السوفيتى وأيضا اعتقد لينين دائما أن الحرب بين النظام البلشفى والنظم الرأسمالية الغربية حتمية ان آجلا أو عاجلا، وبصرف النظر عن المدى الذى يتم به تطبيق الاشتراكية فى الاتحاد السوفيتى دون حدوث ثورات فى أى مكان آخر • فبامكان ستالين التحدث بنفس طريقة وأسلوب تاروتسكى بل وأكثر منه ، دون اقراره أو تبنيه لاستراتيجية تاروتسكى السياسية •

يتساءل ستالين «ماذالذى نعنيه بقولنا ان الانتصار النهائى للاشتراكية فى قطر واحد بمفرده أمر مستحيل ، وبدون انتصار الثورة الاشتراكية فى البقاع الأخرى ؟» «نحن نعنى أنه ما لم تنتصر الثورة ، على الأقل فى عدد من البلاد مالم تكن فى كل مكان ، لن يكون هناك أمان كامل ضد محاولات تدخل النظام البرجوازى bourgeois أو ضد محاولة اعادته مرة أخرى» •

ماهو اذن ، الاختلاف العملى pragmatic بين كل من موقف تاروتسكى وستالين ؟؟ هو ببساطة حيثما تتصارع مصالح حركة ثورية فى قطر ما مع المصالح الآنية للاتحاد السوفيتى ، سيضحى ستالين بمصالح الحركة الثورية فى القطر الآخر أما تاروتسكى فلسوف يضحى بمصالح الاتحاد السوفيتى الانية • وكان لموقف ستالين تأثير ضارب على طبيعة الأحزاب الشيوعية فى أى مكان • فلقد أصبحوا مجرد حراس حدود border guards للاتحاد السوفيتى وأصبح التزامهم المهيمن هو «الدفاع عن الاتحاد السوفيتى» وأصبح كل نشاط داخلى تابعا لهذا الالتزام اذا اقتضى الأمر • وهكذا ، لو تهدد

مصنع تجهيز المعدات لصالح الاتحاد السوفيتي بالاضراب ، فلسوف يدمر الشيوعيون مصالح العمال ، بصرف النظر عن كيفية استغلال العمال بأسوأ طريقة ، وذلك كي يمنعوا حدوث الاضراب أو ليوقفوه ، حتى لاتضعف قوة روسيا • وأولئك الذين تم تنظيمهم في الأصل لحل المشكلات الاجتماعية لبلدانهم من خلال انتزاع السلطة السياسية بالوسائل الشرعية أو اللاشرعية قد يتحولوا الى طابور خامس fifth columnist لصالح بلد آخر • فلقد أعلنت صيغة ماركسية مبكرة ترى أنه ليس هناك وطن للعمال سوى الكومنولث الاشتراكي الدولي international socialist commonwealth وتؤكد الصيغة الستالينية الآن أن وطن العمال هو الاتحاد السوفيتي ، والذى يكتسب بقاؤه واستمراره بأى ثمن ، أولوية وأسبقية حتى على حساب تدمير أقطارهم وأوطانهم الأصلية •

٢ ـ مبدأ التفاوت Inequality

أدى قرار اقامة الاشتراكية في بلد متخلف اقتصاديا ، وتحقيقها بأقصى سرعة ، الى تركيز خاص على الانتاجية • وساهمت عوامل الحالة البدائية للتكنولوجيا ، والافتقار لوجود كميات كبيرة رأس المال ، والرغبة في اللحاق بالدول الرأسمالية والتفوق عليها ، ساهمت في زيادة الضغط الرسمى على العمال كى ينتجوا المزيد • وكان بوسع البلاشفة ان يمدوا العمال والفلاحين بأقل وادنى السلع الاستهلاكية الضرورية فقط وبالخدمات حيث ان الموارد الرئيسية تصب في انتاج السلع الصناعية • ولذا بحثوا عن ايجاد حوافز لزيادة الانتاجية باستخدام الحيل والخدع التى استنزف بها العمال في المراحل المبكرة للرأسمالية نظم الاسراع في عملية الانتاج على حساب العمال المكدودين ، العمل بالقطعة piecework

العلاوات والمكافآت الخاصة للمدراء للاحتفاظ بأدنى تكاليف للعمل • وتم تدعيم ذلك بقوانين صارمة لتقييد حرية تغيير المهنة ، وفرض عقوبات قانونية على الغياب والتأخير بدون مبرر وأصبحت النقابات العمالية أحد أجهزة الدولة ، وأدوات دعائية لحث العمال على زيادة انتاجهم ، بدلا من حماية العمال أصحاب العمل ـ الدولة • وأصبح الاضراب جريمة رأسمالية •

وتجسدت نتائج هذه الأساليب فى التخلى عن المبدأ العام للمساواة فى الأجر المدفوع والذى أعلنته الثورة بفخر فى بدايتها • ولقد حيا ماركس وانجلز أولوية وأسبقية تحقيق المساواة فى الأجر على أيدى كوميونة باريس Paris - Commune كمحاولة لاعلان الديكتاتورية البروليتارية •

من المؤكد أن ماركس قد أدرك تماما أن تحقيق المساواة فى الأجر لايعنى تحقيق مساواة مطلقة نظرا لتنوع واختلاف الحاجات الانسانية • ولكن كان ينبغى على الاشتراكية أن تقترب من المساواة الاجتماعية بتقليل الفروق فى الدخل والامتيازات بين البشر • ولتشجيع تحقيق انتاج أضخم ، أعاد ستالين اعلان المبدأ الرأسمالى للتوزيع فى أكثر صوره فجاجة ـ ينبغى أن يحصل الرجال والنساء على أجورهم بشكل دقيق تبعا لما ينتجونه • بل ونقد ستالين بشدة أولئك الذين يؤيدون مبدأ المساواة حتى كفكرة مألوفة بل وأدينوا باعتبارهم منحرفين ، أعداء مغرضين للدولة السوفيتية • وأعلن ستالين عام ١٩٣١ «ينبغى ازالة المساواة فى الأجر» • «ليس بامكاننا أن نجيز الموقف الذى لاتحصل فيه اليد العاملة فى مصنع للصلب أكثر مما يكسبه عامل نظافة • ولايمكننا السماح بحصول سائق قاطرة على أجر مساو لما يحصل عليه

موظف» • ووفقا لهذا الرأى ينبغى أن يحصل المدراء وكبار الموظفين ، موظفى الدولة الرسميين ، رؤساء العمال على مكافآت أكثر من غيرهم • والأهم من ذلك ، أن الفروق والاختلافات فى الدخل المكتسب فى الاتحاد السوفيتى تفوق تلك الموجودة فى البلاد الرأسمالية وتتكون الاختلافات والتفاوت فى الموقع الاجتماعى من خلال الامتيازات الممنوحة من الدولة لقطاع ضئيل بينما تعانى جموع غفيرة وبشكل لايمارى من الحاجة الدائمة للطعام ، الكساء المأوى •

لقد تم الغاء الطبقات الاقتصادية ، شكليا ، وعلى الورق فقط ، طالما أن كل شخص يمتلك كل شىء • ولكن فى الواقع الفعلى ، وطالما أن التوزيع يتم وفقا للمبادىء الرأسمالية وحيث لاتوجد أية رقابة ديمقراطية على مايجب أن تكون عليه عملية انفاق الموارد الاجتماعية ، ستعاود الطبقات الظهور من جديد • فلقد حظى المسئولون الشيوعيون والموظفون البيروقراطيون bureaucrat سلطة أكبر بكثير من تلك التى كان يتمتع بها أى رأسمالى أو موظفوا الدولة الرسميون فى النظام القديم • وفى الواقع الفعلى ، استبدل العمال نظام أصحاب العمل المتعددين ــ صغار وكبار ، والذين يسود التنافس غالبا بين بعضهم البعض وكانت سلطاتهم محدودة بفاعلية نقابات العمال المستقلة والمتمتعة بحق الاضراب ، استبدلهم العمال برئيس واحد ضخم ، يمتلك سلطة مطلقة ، والذى يحدد ويقرر مستوى الأجور بشل نهائى غير قابل للمناقشة ، وبالمثل ظروف وأماكن العمل • وتغيرت وضعية العمال فى ظل ستالين من عمال أحرار نسبيا الى وضع هو فى الواقع نوع من العمل الاجبارى •

حرف ستالين الحقائق الجلية عن التفاوت الاقتصادى

economic inequality بصيغ بلاغية عن المساواة القانونية ·
فطالما أن الملكية الخاصة لن تدوم كثيرا ، فليس بامكان أى شخص أن يمتلك أى شىء أو استغلال أى فرد وبهذا الخصوص ، فان رأس السلطة فى الدولة مساو لخادمه · أما ليون تاروتسكى فقد قدم تعليقا مؤثرا على الطريقة التى تحجب وتخفى الصورة القانونية بها حقيقة التفاوت الطبقى فى الاتحاد السوفيتى · ويصدق ذلك على كل مجتمع جماعى (شمولى) يفتقر الى الديمقراطية ، بما فى ذلك الفترة التى كان فيها كل من لينين وتاروتسكى الطغاة الحكام فى الاتحاد السوفيتى ·

يقول تاروتسكى :

«لو أعلنت الملكية الجماعية لسفينة ، مع استمرار تقسيم المسافرين الى ركاب درجات الأولى والثانية والثالثة ، فمن الواضح أن اختلاف وتفاوت ظروف المعيشة بالنسبة لمسافرى الدرجة الثالثة سيكون فى النهاية أكثر أهمية من التغيير القانونى لشكل الملكية · وعلى الجانب الآخر ، سيقترح ركاب الدرجة الأولى وهم ينعمون بسيجارهم وأقداح القهوة، فكرة أن الملكية الجماعية هى كل شىء وأن الكابينة cabin المريحة ليست شيئا على أية حال» ·

٣ ـ ازدهار الدولة :

منذ وقت اعلان دستور ستالين الجديد عام ١٩٣٦ ، وستالين يعلن أن الاتحاد السوفيتى مجتمع لا طبقى classless society يتمتع باقتصاد اشتراكى فى مجمله · ومع ذلك أعلن بعد عدة سنوات أنه مازال يتحرك فى طريقه نحو الشيوعية · فلماذا اذن ، لم تختف الدولة كما هو

مفترض طبقا للنظرية الماركسية التقليدية ؟؟ وبعد كل ذلك، أشاد ستالين ذاته منزهوا بحقيقة أن نسبة ٩٩ر٤٪ ممن أدلوا بأصواتهم في الاقتراع قد أيدوا الحكومة • أى أنه لايوجد أى أعداء طبقيون داخل المجتمع ، ولايوجد أى آثار أو بقايا رأسمالية في ظل جيل ولد فى أحضان ديكتاتورية البلاشفة • أليس اذن وجود دولة قوية علامة على التخلى عن الماركسية ؟؟

كرس ستالين نفسه لهذه المشكلة بوجه خاص فى المؤتمر الثامن عشر للحزب الشيوعى السوفيتى وكانت اجابته على السؤال السابق ، أن تناول ماركس ، انجلز ، لينين لمسألة الدولة ومناقشتهم لها اقتصر «فقط على زاوية التطور الداخلى للمجتمع» • وفشلوا فى تناولها فى ضوء الموقف الناجم عن انتصار الاشتراكية فى بلد واحد فقط • حيث يقتضى الموقف مزيد من تدعيم قوة الدولة لا اضعافها ، لمواجهة الأخطار المنبثقة عن «الحصار والتطويق الرأسمالى حتى لو تحققت الشيوعية فى بلد واحد ستواجه الدولة وستبقى • ولكن عندما يستبدل «التطويق الرأسمالى» بـ «التطويق والحصار الاشتراكى ، ستبدأ الدولة فى التلاشى» •

يعد مصطلح «تطويق encirclement » أحد المصطلحات المطاطة فى مفردات البلاشفة يتبدل معناه وتتغير دلالته تبعا للوقت والهدف • حدده ستالين وعرفه فى البداية جغرافيا ولكن بعد الحرب العالمية الثانية ، وعندما أصبح الاتحاد السوفيتى قوة عظمى فى قارتى آسيا واوروبا ـ فلقد سحق أقوى أعدائها ، وطوقت الجيوش السوفينية ألمانيا والنمسا ، امتدت حدود الاتحاد السوفيتى لأبعد مما كانت فى أى عصر من تاريخ روسيا القديم ، وأصبح ينظر لقوتها خلف هذه

الحدود على أنها الأعظم فى مدار دويلات تابعة أصبح ستالين عنـدئذ يذكر أن «الحصـار والتطويق» الرأسـمالى حقيقة واقعية • لكنه لم يعد حقيقة جغرافية بل واقع سياسى ويعنى ذلك أن الدولة ستبدأ فى التـلاشى فقط فى عالم شـيوعى يقوده ويهيمن عليه الاتحاد السوفيتى •

بالاضافة للدلالة اللفظية المضللة لمصطلح « الحصـار والتطويق» توجد صعوبات عديدة فى تعديلات ستالين على النظرية الماركسية • الصعوبة الأولى تكمن فى عدم تفسير دفاع ستالين لتنامى قوة الدولة بدلا من تلاشيها فى الحيـاة الداخلية للاتحاد السوفيتى وفى كل بقعة من بقاع تلك الحياة من المصنع الى الاسرة ، من المزرعة الجماعية الى اسـتوديو الفن ، ففى الغالب يبرر الدفاع ضد التطويق والانتهاكات الخارجية وجود جيش هائل ، وذلك لايتعارض مع وجـود نظام ديمقراطى داخلى • ولكنه لايبرر ولايسـيغ وجـود معايير ارهابية للقمع الداخلى والتى يقاس مدى انتشارها وقوتها من خلال عمليات التطهير المستمر والمعسكرات التى يتركز فيها المواطنون ويتم حشدهم ، والتى قدرها كل من دالين ونيكولافسكى Dallin and Nicolaevsky بأنها ستبلغ فى عدة سنوات خمسة عشر مليونا من المواطنين •

توجد صعوبة أخرى خلقها ادعاء ستالين بأن الاتحـاد السوفيتى هو مجتمع اشتراكى تماما ، واعترافه بأنه يمكن الحفاظ على الاشتراكية فقط عندما يوجد «زيادة فى انتاجية العامل تفوق ماهو موجود فى النظام الاقتصادى الرأسمالى» ولكن الحقيقة التى لاجدال فيهـا فى الماضى والحـاضر ، أن العامل السوفيتى يقدم انتاجية عمـل أقل وليست أعلى من تلك فى البلدان الرأسمالية • فلو أن الاشتراكية غير موجودة

فى الاتحاد السوفيتى ، عندئذ لن يصبح وجـود دولة قوية مشكلة وحيث ان الدولة تمارس فى هذه الحالة ديكتاتوريتها على طبقة ما ، وطالما أنه تم تصفية طبقة الرأسماليين وكبار الزراع (الكولاك) kulaks ينبغى أن تصبح الطبقة المقهورة هى الطبقة العاملة أو بعض القطاعات العريضة بها • وهذا مالايمكن أن يسلم به ستالين • ولهـذا السبب يتحتم عليه التأكيد على وجود وقيام الاشتراكية ، رغم غياب الشروط التى يستلزم وجودها كمقدمة لتحقيقها ، والتى تنسب لوجود الدولة وتضفى عليه قوة وسلطة هائلة فى الحيـاة الداخلية للمجتمع ، والمقصورة على ضرورة الدفاع عن الاشـتراكية ضد التطويق الرأسمالى •

وتتمثل الصعوبة الثالثة لتفسير سـتالين فى فشله فى شرح المتغير الملازم والمصاحب لتنامى القـوة السوفيتية فى مواجهة بقية العالم وتنامى الملامح القمعية للنظام الداخلى • ويتوقع المرء تناقص حدة القمع للنظـام الداخـلى حتى فى تفسير ستالين ، لكنها تتزايد فى الواقع أما فى عصر لينين وعندما كان الاتحاد السوفيتى ضـعيفا لأقصى حـد وكانت الجيـوش الأجنبية رابضـة على ترابه الوطنى ، والممارسات بعيدة لحد ما عن القمع والاضطهاد • كان مسموحا ببعض الانتقادات داخل الحزب الشيوعى ، وازدهرت خارج الحزب حرية ثقافية ملحوظة فى الفنون والعلوم • ثم اختفى كل ذلك مع بزوغ الاتحاد السوفيتى باعتباره قوة عالمية • وبدلا من عملية تقليل القهـر والقمع ، كان النهج هـو تـزايد الممارسات القمعية والقهر • ولم يكن ذلك سوى محـاولة تصحيح للعناصر الطوبائية Utopian فى الماركسية واللينينية ، واللتين تخيلتا اختفاء الدولة وتلاشـيها • وتجسد بذلك تحويلا المجمل مفهوم المجتمع الاشتراكى الى مفهوم سياسة

تصنيعية للدولة ، وقنانة وعبودية تصنيعية والتى يشد وثاق العمال فيها لمصانعهم بلا آية سلطة فى تحديد ظروف العمل ، مكافآت العمل ، أو التوزيع الاجتماعى لمنتجات عملهم • وبذا تحول الحلم الاشتراكى عن المساواة والحرية الى كابوس مرهق للتفاوت والاستعباد •

٤ ـ من المادية الجدلية الى الارهابية الجدلية :

كما سبق أن رأينا ، لم تضع ماركسية غرب اوروبا فى الاعتبار الرؤية الأساسية للكون التى آرساها كل من ماركس وانجلز ، ولم تجعلها جزءا مكملا ومتمما لنظرياتها الاجتماعية والسياسية • أما بليخانوف وآيضا وبوجه خاص لينين فلقد أحييا واسترجعا آراء انجلز حول طبيعة الطبيعة nature of nature لمقاومة التطورات الفلسفية الحديثة • والتى يمكن أن تؤثر على امكانيات تحقيق المجتمع الاشتراكى • وفى ظل ستالين أصبحت المادية الجدلية الفلسفية الرسمية للدولة ، وزودت الدولة وأمدتها بالفرضيات التبريرية Justifying premises للتسييس politicalization التام لمجمل الحياة الثقافية بما فيها الأنشطة العلمية •

وترى المادية الجدلية أن العالم مجرد بناء متطور للقوى المادية ، والتى توجد مستقلة عن أى وعى سواء كان انسانيا أم الهيا • وهذه القوى المادية محكومة بقوانين أساسية خاصة تفسر علاقات الأشياء ، وأضدادها ، تطورها من مرحلة لأخرى ، من مستوى لآخر • وأن «التناقض» contradiction هو السمة الموضوعية للطبيعة والتاريخ ، وهو الذى يدفع ويحرك عملية التطور وعند وصول التطور للنقطة الحرجة critical تنبثق تغيرات كيفية جديدة • وبتطبيق مبادىء المادية الجدلية dialectical materialism على حقل الحياة

الاجتماعية تتكون المادية التاريخية historical materialism والتى تثبت أن الرأسمالية ستلقى حتفها والشيوعية آتية وحتمية ٠

تتسق النظرية مع أى معتقد تجريبى ، للمدى الذى تكون عنده مفهومة ويمكن ادراكها عقليا ، والذى يعنينا هو الاستخدام السياسى الذى وضعت من أجله النظرية فلقد أكد لينين تماما أن كل الماديين الجدليين اذا اتسقوا مع عقيدتهم ، ينبغى أن يكونوا شيوعيين وكل الشيوعيين ينبغى أن يكونوا ماديين جدليين ٠ وزعم فى ظل ستالين أنه لا أحد غير الماديين الجدليين يمكنه فهم مناهج وانجازات العلم فهما وافيا وصحيحا ، وسواء كان العلم الطبيعى أو الاجتماعى ٠ وأضيف لهذا الادعاء ، أنه لا أحد سوى أعضاء الحزب الشيوعى ، أو فى الحقيقة ، غير أولئك أصحاب الخط السياسى فى الحزب الشيوعى ، أى خط اللجنة المركزية central committee لا أحد سواهم يمكنه فهم المادية الجدلية فهما كاملا وصحيحا ٠ ويلزم عن هذه المقولات أن اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فقط هى التى تمتلك الفهم الصحيح لعالم الطبيعة ، المجتمع ، الانسان ، ورغم عدم ادعاء اللجنة المركزية لعصمتها المطلقة من الوقوع فى الخطأ ، الا أنها أكدت سلطتها العقلية العليا لتقرير ماهو حقيقى وماهو زائف ، الصادق أو الكاذب ، فى كل فرع من فروع المعرفة الفن ، الفضاء ، الاحياء ، الكيمياء ، الاقتصاد ، التاريخ ، الادب ، الموسيقى ، الطبيعيات ، وبالطبع الفلسفة ٠ بل وأصدرت اللجنة المركزية فى ظل ستالين قرارات تضبط وتتحكم فى عمل العلماء والدارسين فى هذه المجالات ، وأحيانا تفرض مسبقا تفاصيل حول ماينبغى اعتقاده وماينبغى طرحه خارج دائرة الاعتقاد ٠ ويفرض ذلك قسرا عن طريق التطهيرات

والوسائل المألوفة للقهر وأصبحت العلوم والآداب أمورا تتعلق بعمل البوليس بل وارتكزت نظرية لينين عن العضو الحزبى على عقيدة قطعية لايتطرق اليها الشك «لقد مزقت الماركسية اللينينية أوصال الرؤية العالمية (الكوزموبوليتان cosmopolitan حول العلم الفوق طبقى supra-class واللا قومى ، العلم العالمى ، بل وأثبتت أن العلم مثل أى ثقافة فى المجتمع الحديث ، قومى الطابع طبقى المضمون بل وأنكرت النزعة «الموضوعية» باعتبارها هرطقة خطيرة تهدد أمن الدولة .

تختلف شدة سيطرة الحزب ومداها من عصر لآخر . وحيث انه لايوجد فعليا أدنى ارتباط منطقى بين مبادىء المادية الجدلية كما هى فى صياغتها وبين تلك القرارات التى أصدرت باسمها ، فلاينبغى البحث عن أسباب التغير فى الحكم والخط السياسى فى اطار النظرية بل فى أشياء أخرى . بل وأحيانا كانت أذنى ستالين Stalin's ears كما هو فى مجال الموسيقى — هى العامل الحاسم . وبنفس الطريقة يتم تقرير الاعتبارات السياسية أيا كانت يبدو فى أحد الكتابات التى ظهرت باسم ستالين ، أنه يستثنى قواعد اللغويات linguistics وأيضا قوانين المنطق الصورى formal logic من تأثير النزعة الحزبية ، لاعداد الطريق لقبول لغة عالمية عندما تصبح الشيوعية حقيقة عالمية وتسود العالم . ولكن لم يستظل العلماء والباحثون السوفييت فى أى وقت باستقلال حقيقى ، ليتابعوا بحثهم بقيادة الدليل والبرهان ومنطق التحليل فقط . فقد تتراخى قبضة الحكم الحديدية وتشتد ولكن لم يتم التخلص منها أبدا .

٥ـ القومية :

فى ظـل لينين أصـبح نمط الاسـتراتيجية والتكنيك strategy and tactics الشـيوعى للصراع من أجـل السلطة السياسية روسى الطابع تماما russianized وفى ظل ستالين أصبح مجمل مضمون السياسة والثقافة السوفيتية روسيا ٠ ولقد ارتبطت وأوثقت قياد الأممية التقليدية بأفكار التفوق والامتيـاز أكثر من ارتباطها بالافتخار والزهـو بالسـمو والأولوية وارتبطت بالقيم الانسـانية والكونية أكثر من ارتباطها بالقيم القومية والطقوس الأبرشـية parachial ولقد أدينت هذه الأممية التقليدية ووصمت باعتبارها طموحاً للمجموعات العالمية المتعددة (الكوزموبوليتانية) المنبتة الجذور والمعادية للدولة السوفيتية وبالتالى للاشتراكية ولذا أعيـد كتابة التـاريخ الروسى لتمجيد الشـخصيات التاريخية فى عصور ايفان الثـالث Ivan the terrible وبطـرس الأول Peter the first ووصف جنرالات الجيوش القيصرية الذين كانوا دعامة الرجعية الاوروبية فى القرن التـاسع عشر ، وديجت عبارات متوهجة لاظهارهم وكأنهم الأسلاف المبشرون بهيئة جنرالات الجيش الاحمر ٠ وصـارت الاعتـداءات القيصرية وكأنها عملية لنشر الثقافة التقدمية على شعوب ترزخ تحت قيادة رجعية محلية ٠ بل تعـرض انجـلز ذاته للتوبيخ لافتراضه أن روسيا القيصرية كانت أكثر البلدان تخلفا من الوجهة السياسية والثقافية فى القرن التاسع عشر ٠ ومن ثـم بدأ التنقيب والبحث عن «الرواد» الروسـيين فى الاختراعات فى العلوم ، ووصل هذا البحث لأبعد الآمـاد هزلا واضـحاكا ٠ وتم احيـاء الفـكرة السلافية الشاملة pan-slavist بأن روسيا ذات رسالة ومهمة خاصة لهـداية

العالم وتغييره ، وظهرت الفكرة فى صيغ جديدة واكتسبت حماساً أشد ٠

لقد كانت مفخرة الاتحاد السوفيتي دائما أنه دولة متعددة القوميات multi national state أزيلت فيه كل العداوات والخصومات القومية ، حيث تعمل مختلف الشعوب متعاونة معا من أجل هدف عام للسلام والمساواة ٠ وعندما أصبح لدى ستالين التفويض لصياغة السياسة السوفيتية لمشكلة القوميات ٠ لم تفلح صياغاته أو معالجاته لثقافة الأقليات فى التوافق والانسجام مع السياسة السوفيتية المعلنة ٠ فادعاء أن «الثقافة السوفيتية قومية القالب والشكل ، واشتراكية المضمون» يشير تماما أن العامل القومى له مكانة شكلية وعرضية فقط ٠ أما الثقافة الحرة فتتطور شكلها وقالبها متكاملا ومتساوقا مع مضمونها ٠ ولذا فان التأكيد المسبق بضرورة كون الثقافة اشتراكية المضمون يعنى عملية فرض مبادىء واتجاهات معينة على الحياة الثقافية للشعب ـ فنونه ، أغنياته ، فولكلوره folklore ديانته ، آدابه ـ بدلا من تركهم للتعبير التلقائى عن مكنوناتهم واهتماماتهم ٠ وفى واقع الأمر ، لاتعنى الحرية الثقافية للأقليات شيئا سوى حرية مديح ستالين والهتاف له بكل اللغات عدا اللغة العبرية ٠

ويعد تاريخ ثقافات الأقليات فى الاتحاد السوفيتى تاريخ القمع المستمر للتراث والتقاليد الثقافية لهم ، باعتبارها انحرافات قومية «بل وتم تصفية مجموعات ثقافية وقومية بأكملها ، وكبحت موسكو زمام المجموعات الأخرى ، مثال فولجا الجرمانية Volga Germans ومستوطنى جمهوريات الحكم الذاتى ٠ وأزيلت مؤسسات ثقافية يهودية تماما ، بما

فى ذلك مطبعة يهودية مزدهرة ، ومسرح ومراكز دراسية • فمن الواضح أنه ، حيث يفتقد الانسان حق الاختلاف right to differ لايمكن أن توجد أية حرية ثقافية أو عرقية ethnic

يعد الاتحاد السوفيتى من الناحية الشكلية ، اتحاداً فيدراليا federation لجمهوريات اشتراكية متعددة تتمتع بحق الانفصال • ولكن هذا الحق كأى حقوق مدنية أخرى وردت فى دستور ستالين ، يعتبر حقا آكاديميا فقط academic فالكرملين Kremlin هو صاحب الحق فى تعيين واقالة كل قيادات الهيئات ومجالس السوفيت فى جميع الجمهوريات ، سواء كانت هيئات حكومية أو حزبية • ويعد قرار ورأى الكرملين قانونا تصاع له كل الجمهوريات السوفيتية وحتى آخر نقطة عند حدودها • والتنازل الوحيد الذى قدمه الكرملين مراعاة للمشاعر القومية للجمهوريات هو سماحه بترجمة قراراته ومرسوماته الى اللغات القومية فى الغالب لكى يفهمونها بشكل أفضل •

٦ ـ نظرية الفاشية الاشتراكية :

تعتبر نظرية ستالين الفاشية الاشتراكية social facism أحد اضافاته الهامة لتراث لينين • وقد لعبت دورا هاما فى تمزيق حركة الطبقة العاملة فى الغرب ، وساهمت بفاعلية فى انتصار الفاشية فى ألمانيا وأسبانيا • وبمجرد اعلان أن هدف الاتحاد السوفيتى الأولى هو «الاشتراكية فى قطر واحد» ، أصبح تجنيد العمال الغربيين كمدافعين عن الاتحاد السوفيتى ضد أى انتهاكات أو تدخلات خارجية ممكنة أمرا ذا أهمية أولية • ولهذا السبب ، أصدرت الأوامر للأحزاب الشيوعية خارج الاتحاد السوفيتى ، لتركيز

طاقاتها للسيطرة والهيمنة على الطبقة العاملة ، ولتنسيق نشاطاتها السياسية تبعا لمتطلبات السياسة الخارجية السوفيتية ، وكى يتم القيام بهذه المهام بنجاح ، كان ينبغى تحطيم تأثير المنظمات الاشتراكية • الديمقراطية social-democratic تذرعا باشتراكها أحيانا فى الحكومات الائتلافية الغربية • ورغم حقيقة أن الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية هى أحزاب الطبقة العاملة ، وأن الحركة الفاشية الصاعدة كانت تهديدا مميتا لكل أحزاب الطبقة العاملة ، أعلن ستالين أن الاشتراكيين الديمقراطيين هم «الجناح المعتدل للفاشية» • وأن تلك المنظمات (الفاشية ، الاشتراكية، الديمقراطية) لاتنفى وجود بعضها البعض بل يكمل كلاهما الآخر • وليسوا نقيضين بل هما توأم» •

أصبحت هذه النظرية هى النظرية الرسمية لكل الأحزاب الشيوعية فى الوقت الذى كان هتلر يلوح فى أفق اوروبا الغربية • وقلل ستالين من احتمال وصول هتلر للسلطة ، وتحسبا وضع فى الاعتبار مخاطرة وصوله للسلطة عندئذ سيقود ألمانيا لحرب ثأرية ضد فرنسا وحلفائها وهى الحرب التى لن يشترك فيها الاتحاد السوفيتى • وفى ظل درع النظرية الاشتراكية الفاشية ، أطلقت حملات رهيبة ضد الحزب الاشتراكى الديمقراطى فى ألمانيا وفى أى مكان آخر ، والتى جعلت من المستحيل تحقيق آية وحدة حقيقية للنشاط المواجه ضد خطر الفاشية المتصاعد بل وفى عديد من المناسبات الحاسمة ، مثال ، فى المذكرات الاستجوابية التى تقدم بها النازيون ضد الحكومة الاشتراكية فى بروسيا Prussia فى اضراب عمال الأنفاق ببرلين ، تعاون الشيوعيون صراحة مع النازيين • ساهم كل ذلك وبقوة فى انتصار هتلر Hitter وحتى بعد وصول هتلر للسلطة ظل الاشتراكيون

الديمقراطيون هم العدو الأساسى للشيوعيين ، وليس النظام النــازى أو الرأســمالى • ولم تجــدى المقــاومة البطولية للاشــتراكيين الديمقراطيين النمســاويين ضد الفاشـــية الاكليركية) clerical فى تغيير موقف الشيوعيين وظل الخط السياسى هو نفســه فى كل بلد ، حتى فى نيويورك خــرب الشيوعيون وفضــوا بعنف المؤتمر الاحتجاجى الذى فقــده الاشــتراكيون ضـــد قمع النظام الدميـــة doll fuss regime ولم يتغير موقف ستالين الا بعد أن أصبح واضــحا اعتزام هتلر الهجوم على الاتحاد السوفيتى فتخلى ستالين عن نظرية الاشتراكية الفاشية ، وأطلق الشــعارات من أجــل الجبهة الشعبية فى المؤتمر السابع للدولية الشيوعية • وقدم ستالين فى نفس الوقت ، وكشكل تأمينى ، عروضا سرية لنظـــام هتلر لاقامة علاقات ودية وتقارب قدر الامكان وبعد معاهدة ميونيخ Munich pact والتى أبعد منها الاتحاد السوفيتى ، أتت ثمار عروض ستالين ، فى معاهدته وهتلر عام ١٩٣٩ ــ وبقيام الحرب العالمية الثانية ، ورغم حياد ستالين فى هذه الحرب من الوجهة الفنية حتى غــزو هتلر لروســيا فى ٢٢ يونية ١٩٤١ ، الا أنه قد ساعد بفاعلية ألمانيا النازية Nazi بالتــأييد المــادى والمعنوى ، حيث شــجب بعنف القــوى الديمقراطية الغربية باعتبارها تجار حــروب وامبرياليين يتحملون مسئولية الصراع •

استخدم ستالين بعد الحرب العالمية الثانية الجيش الأحمر لاقامة الدولة الشيوعية التابعة لفلك الاتحــاد السوفيتى ، وفى قلب أوروبا ، ودمرت الأحزاب الاشتراكية فيها بشكل وحشى •

٧ ـ انتصار الستالينية :

كما سبق ورأينا ، تتضمن بعض نظريات وممارسات لينين رغم اظهاره عدم وعيه به ، مفهوما عن مجتمع شمولى totalitarian society يستحوذ عدد محدود من الأفراد على السلطة التنفيذية فيه ، وفى الواقع غير مسئولين أمام أى شخص سوى أنفسهم ، وتتركز فى قبضتهم احتكار مطلق لمجمل وسائل الانتاج ، التعليم ، الأجهزة والقوى القمعية ثم جسد ستالين طيلة سنى عهده ، هذه العوامل فى تعبير صريح، لكنه دمر فى نفس الوقت بعض ملامح اللينينية التى ربما تؤدى الى قدر أقل من الدكتاتورية •

لم يكن مسموحا حتى فى حياة لينين بأية معارضة سياسية من جانب آية مجموعة غير اشتراكية وبموت لينين . كان قد حرم جوهريا كل الأحزاب الاشتراكية الأخرى عدا الحزب الشيوعى طالما أن الحزب الشيوعى هو الذى يمكنه فقط ادراك المصالح الحقيقية للطبقة العاملة • والدفاع عنها فان برامج كل الأحزاب الأخرى للطبقة العامة ستقود بالضرورة الى كارثة • لذا يعدون جميعا ومن الناحية « الموضوعية » ثوريين مضادين counter-revolutionary ومع ذلك ، سمح فى وقت معين ببعض الخلافات فى الرأى داخل الحزب الشيوعى ذاته ورغم غياب الديمقراطية عن التنظيم الفعلى للحزب ، حيث انه يدار ويحكم من أعلى ، لم تكن حرية المناظرة والمناقشات الداخلية فى الحزب شيئا غير مألوف حتى فى أوقات الأزمة • وبمجرد اتخاذ القرارات (قرارات لينين فى الغالب) لم يتم اتخاذ أى اجراءات انتقامية ضد أولئك الذين شاركوا فى النقاش أو ضد عائلاتهم ولن تنتهى مهام أولئك الذين كانوا فى الجانب الخاسر فى أية

مناقشة أو مناظرة • وبالقدر الذى يصبح به الفصل والتفرقة بين الحزب الشيوعى والسوفيات soviet شكلا شرعيا وقانونيا، يصبح الطريق الوحيد الذى من خلاله يتم التعبير عن أى خلافات فى الرأى داخل الاتحاد السوفيتى هو الحزب الشيوعى •

بعد تدعيم سلطة ستالين اغلق هذا الطريق ولم تعد الاختلافات تسوى بالحوار والمناقشة بل بالأمر متبوعا بالاعتراف العلنى بالخطأ ، واجراءات التطهير ، ومحاكمات علنية أمام الجمهور (والتى يتنافس فيها المدعى عليهم على التأنيب والنقد الذاتى self-debasement والترحيل الى معسكرات الاعتقال الجماعية ، والاعدام • بل وصور كل القواد رفاق لينين الأحياء فيما عدا ستالين ، وكأنهم جواسيس ، مخربون ، ومخططون لاعادة الرأسمالية منذ البداية المبكرة لثورة أكتوبر (١) وصاحب كل ذلك حملات منظمة لايمكن مقارنتها حتى بأيام القياصرة ، والتى تعد أكثر الأشياء اثارة لبغض واستياء ستالين • بل وأرجع ستالين لنفسه كل التطورات الثورية فى كل الفنون والعلوم • ومنح فى الأعياد الدينية صفات مقدسة من العلم الكلى omni science والتنبؤ وبموت ستالين قد تحول الاتحاد السوفيتى الى دولة شمولية ، ونموذج تحتذى به كل الدول التى تدور فى فلكه •

٨ ـ انجازات ستالين :

وصل الاتحاد السوفيتى فى ظل ستالين للمصاف الاول لقوى العالم ، سواء كان ذلك خيرا أم شرا • ثم اصبح الاتحاد

---

(١) تقرير لجنة تقصى الحقائق التى ترأسها جون ديوى الفيلسوف الأمريكى ، حول محاكمات موسكو بعنوان غير مذنب Not guilty نيويورك ١٩٣٨ •

السوفيتى أحد أكثر البلدان المتقدمة صناعيا بعد أن كان أحد أكثر البلدان المتخلفة فى العالم • وتزايد الاعتماد على الانتاج الزراعى ، رغـم عـدم الزيادة الكبيرة فى الانتاج الزراعى ، رغم عدم الزيادة الكبيرة فى الانتـاج الزراعى للفرد عما كانت عليه قبل الثورة ، ولم يعد هناك مواسـم الحصاد العجاف لتسبب أى مجاعات وقطعت خطوات واسعة نحو الامية • وتقديم تسهيلات هائلة فى المجال التعليمى ، وأصبحت المهن والوظائف والنجاح متاحا لكل موهبة بصرف النظر عن الأصول والجذور الاجتماعية أو الوزن والمقدرة السياسية • وتحققت مساواة المرآة بالرجل حتى فى مجال أكثر الأعمال الشاقة فى المناجم والمصانع • وأصبح للجميع فرصا للعمل ، فيما عدا المواطنين الذين يتوجسون خيفة من البوليس السرى نتيجة لانتقاداتهم للنظام ، وفشلهم فى أداء المهام المنوطة بهم ، أو تبعا لأصولهم الاجتماعية وارتباطاتهم العائلية وعلاقاتهم بأولئك الذين أدرجوا فى قوائم مسبقة تبعا للمقولات السابقة لهم الحرية فى ابداء نقدهم لبعضهم البعض لأنهم لم يقوموا بأداء العمل اللازم • لكن ليس لهم الحرية فى نقد الحكومة •

لم ينم الاتحاد السوفيتى فى ظل ستالين اقتصاديا فقط بل ترامت حدوده الجغرافية أيضـا وتم القيـام بعمليات استثمار فعالة فى المناطق القطبية الشـمالية • وتم تعمـير الأراضى الجديدة بالاسرى ، واستؤصلت العناصر الوطنية من المناطق المحلية • وتزايدت مساحة ورقعة الاتحاد السوفيتى، وتزايد سكانه بشكل لم يحدث فى أى عصر سبق • وأصبح لديه أكبر قوة عسكرية على وجه الأرض • ولم يعد لديه أى خوف من أى تدخلات عسكرية خارجية وأصبح مجمل العالم الغير شيوعى يخاف من قوته العسكرية •

دفعت الشعوب السوفيتية ثمن هذه الانجازات بالدموع والدماء وفقدان حريتها بشكل أكبر كثيرا ولايمكن قياسه بأى ثمن دفعته أية أمة لتحديثها ٠

أما انجازات ستالين الفكرية فكانت أكثر تواضعا ، حتى بدون اثارة أية مشاكل حول أصالة انتساب الكتابات التى ظهرت باسمه له ٠ ورغم الدوافع السياسية الضيقة الأفق والتى تفسر مراجعاته وتعديلاته على الماركسية التقليدية ، الا أنه قد صحح لدى معين الأفكار الخيالية (الطوبائية) لماركس والمتعلقة بالدولة ووجود المجتمع اللاطبقى ومبادىء التوزيع الاشتراكى ٠ وفى كل قضية من القضايا السالفة ، تتجاوز تعديلاته ومراجعاته الواقعية المعتدلة المطلوبة للتوفيق بين الأفكار الاشتراكية الديمقراطية لماركس ووقائع الخبرة والتجربة ٠

ليس من قبيل المبالغة ، وبعد موت ستالين ، القول بامكانية تحقيق مجتمع ماركس اللاطبقى تقريبا فى ظل الرأسمالية ، بشكل أوسع من تحقيقه فى الاتحاد السوفيتى ٠ بل وبالعكس ، فان الظلم والتفاوت الطبقى والاستغلال المرتبط بالمجتمع الرأسمالى المبكر ، هى الثى تميز وتوصم جبين المجتمع السوفيتى المعاصر أكثر من التصاقها بالاقتصاديات المختلطة للغرب ٠

الفصل التاسع

الماركسية فى العصر الحاضر

يعتمد اطلاق وصف الدولة الماركسية على الاتحاد السوفيتى أو اعتبار الحركة الشيوعية حركة ماركسية على كيفية تعريف وتفسير كلمة «ماركسية» فاستخدام الكلمات فى القضايا الاجتماعية والشئون السياسية ليس استخداما صارما قاطع الدلالةوبعض الكلمات مسئولة عن تداعى معان متباينة بقدر ماتلعب دورا قويا فى الحياة الانسانية · فأولئك الذين ماتوا فى سبيل «الاشتراكية» أو «الحرية» ربما لم يكن موتهم فى سبيل ماتعنيه هذه المصطلحات بالفعل · ويصبح هذا أكثر صدقا خصوصا فيما يتعلق بالاتحاد السوفيتى والحركة الشيوعية ورغم الطابع الشمولى totalitarian الذى يتصفان به ، مازالوا يجمعون تحت رايتهم من خلال وصفهم لأنفسهم «كماركسيين» ، كثيرين ممن يشير مصطلح «ماركس» لديهم الى حركة ديمقراطية متأهبة للنضال لصالح المستغلين والمضطهدين فى كل مكان ·

تاريخيا ، يعد من الظواهر المألوفة أن يشير «حد مصطلح term» الى مجموعة وفئة معينة قد تكون الاختلافات بين أعضائها أوضح أو أكثر من الاختلافات الموجودة بينهم وبين أعضاء آخرين موجودين خارجها · فالاختلافات بين من يطلق عليهم «مسيحيون» تقريبا مثل تلك الموجودة بين من يدعون «ماركسيون» · وعلى سبيل المثال ، يعد كل من تولوستوى

وليولا Loyola أنفسهم كمسيحيين ٠ ومع ذلك Tolstoy يشترك تولستوى فى كثير من آرائه وقسماته مع غاندى Gandi وهو غير مسيحى ، أكثر مما يشترك فيه مع ليولا وكثير من المسيحيين الآخرين ٠ وبالمثل ، الاختلافات فى المطامح والمشاعر والمشروع الديمقراطى ، والتى يفترق بها ماركس ، انجلز ، كاوتسكى ، بليخانوف ، برنشتاين ، جوريس ، روزا لوكسمبورج عن لينين وستالين ، تبدو اختلافات واسعة بدرجة لا تقارن بتلك التى تفضل نظام ستالين عن نظم هتلر ، موسولينى Mussolini فرانكو Franco

لاتوجد أواصر قربى بين الماركسية والحركة الشيوعية المعاصرة على صعيد الفلسفة الاجتماعية ، بل على العكس فى مستوى النظرية التاريخية حيث توجد أكثر العلاقات اثارة للحيرة والتناقض بل والسخرية ٠ فكما سبق ورأينا ، رغم تعاويذ الشيوعيين بالنصوص الماركسية ، الا أنهم دحضوا النظرية الماركسية الارثوذكسية وفندوها على نحو قاطع ، وساهمت أعمالهم وانجازاتهم فى تفنيد النظرية المادية التاريخية والتى تعتبر نظرية التطور الاجتماعى جزء منها ٠

لمزيد من الالتزام بصدق التحليل ، وبصرف النظر عن مدى صحة ومصداقية نظرية ماركس وانجلز المسماة بالاشتراكية العلمية scientific socialism فان هذه النظرية الاشتراكية لاتوجه العمل الشيوعى فى الوقت الحاضر، ولم يسبق أن كانت بالفعل دليله ورائده ٠ لم يكن الشيوعيون تاريخيين historical بل ولم يكونوا جبريين اقتصاديين economic determinists وتلعب الماركسية فى الاتحاد السوفيتى الدور الذى حدده ماركس للايديولوجية ، أى ،

باعتبـــارها وعيـــا زائفـــا ومغـــلوطا false consciousness يحجب عن المناصرين لها أنفسهم أســـباب ودوافع وأســـاس فعلهم وحركتهم ٠

النظرية التى توجه النظام الشيوعى فى الواقع الفعلى، ليست أيديولوجيته الماركسية الرســـمية ، بل هى نـــوع من الطـــوبائيات المعـــاصرة latterday utopianism وتنظيم اجتماعى هندسى لاتحد أهـــدافه ســـوى حـــدود المستحيلات البيولوجية والفسيولوجية ، وترتجل وسائله بروح انتهازية ٠ وأهداف النظام الشيوعى الفعلية ثابتة ــ مجتمع عالمى ذو تنظيم هرمى ، تخطيط شامل ، وسلطة مركزية فى الكرملين Kremlin ومدفوعة بتعصب صارم ولاتخضـــع أبدا لاختبار نتـــائج وســـائلها المســـتخدمة لتحقيق غاياتها ٠ لذا يمكن التنبؤ بالسلوك السياسى الشيوعى أن يصبح أكثر دقة اذا كان مبنيا على النظرية الشيوعية والاســـتراتيجية والتكتيك الشيوعى للهيمنة العـــالمية world domination فأولئك الذين يعتقدون أن الشعارات الشيوعية «للتعايش الســـلمى» هى شىء أكثر من كونها خدعة لتهدئة العـــالم الديمقراطى فى شعور زائف بالامن ، بينما يستجمع الاتحاد السوفيتى والدول التابعة له قواهم من أجل توجيه الضربة النهائية ، ربما تمتد بهم الحياة ليدركوا خطأهم ٠

تتحـــدى الطبيعة الخـــاصة للنظام الاجتماعى للاتحـــاد السوفيتى التحليل فى اطار مفاهيم الرأسمالية والاشتراكية الكلاســـيكية ٠ ويصدق هـــذا لدرجـــة ملحـــوظة على النظم الاجتماعية لبريطـــانيا العظمى والولايات المتحـــدة ٠ ومع ذلك ، وللمدى الذى يمكن عنده تمييز اقتصـــاد الثقافة عن الصيغ والأشـــكال الســـياسية التى يعمل فى ظلها ، وحيث

لاتوجد ملكية فردية لوسائل الانتاج بل ملكية جماعية ، اذن يمكن اعتبار اقتصاد الاتحاد السوفيتى ـ قانونيا ـ اقتصادا اشتراكيا ، من وجهة نظـر التصنيف الماركسى الأرثوذكسى للثقافات • وكما أن مشكلة الشر توجد فقط بالنسبة لأولئك الذين يؤمنون بحكم الله للعالم ، بالمثل لاتوجد مشكلة الطابع الاشتراكى للاقتصاد السوفيتى الا لدى أولئك الماركسـيين الارثوذكس • أما بالنسبة للآخرين يمكن تصنيف الاقتصاد السوفيتى باعتباره اقتصادا شموليا ، مشيرا بذلك لعدم وجود تمييزات بين الاقتصاد ، الثقافة ، السـياسة فى مثل هـذا النوع من المجتمع ومن زاوية مايحدث فعلا فى هذا المجتمع ، لم يعد العامل «الرئيسى» أو «الأساسى» هو التنظيم الاقتصادى للمجتمع بل الطابع السياسى له •

رغم أن وجود الاتحاد السوفيتى فى حـد ذاته يقوض دعائم النظرية الماركسية للمادية التاريخية طالما أنالتغييرات الاقتصادية الأساسية قد تحققت من خلال العمل السياسى • ربمـا يطـرح للمناقشة بمعنى مبسط أن الوقائع المروعة للتجربة السوفيتية قد بررت الملمح الانسانى لفلسفة ماركس الاجتماعية فلقد أخطأ ماركس فى اعـلانه استحالة بنـاء اقتصاد اشتراكى فى غياب الشروط الموضـوعية • ولكن افترض مفهوم ماركس للانسان وجود حاجات أساسية معينة للانسان ، وقيم أخلاقية ينبغى أن توجه وتقود العمل السياسى فى المجتمع المتحضر ، وتحدد للانسان ماهو مؤهل للقيام به وعمله لغيره ، وما قد يجيزه بعضهم لبعض • وهنـا يكمن مغزى انسانية ماركس الاشتراكية ، انه ليس بوسع البشر بناء اقتصاد اشتراكى فى مجتمع متخلف الا بتكلفة محرمة أخلاقيا ـ لاتقـرها القيم الأخـلاقية للانسان كما تصوره ماركس وماينبغى أن يكون عليه انسان القرن التاسع عشر

ـ ولو لم تعنينا اشكاليات التضحيات الانسانية ولم نعبأ بمعاناة الانسان وكانت الضرورة الفسيولوجية والبيولوجية فقط هى التى تقرر وتحدد عملنا • ولأصبح بوسعنا جعل الصحراء القاحلة بستانا اذا ماكان لدينا استعدادا لتسميدها بالجثث الانسانية وريها بأنهار الدم •

لقد ساعد لينين ، ستالين ، وآتباعهم على تدمير الجبرية التاريخية التقليدية ، والتى لم تفسح الا هامشا ضيقا لما يمكن للارادة الانسانية أن تحققه ، وللعمل والجهد الانسانى أن ينجزه ولكنهم أظهروا تبعا لذلك ، أن للأفكار والمبادىء السياسية دورا مستقلا ، بل دورا له أولوية أحيانا ، فى المؤثرات التى تحدد وتقرر الحياة الاجتماعية ، كما أوضحت كل النظم الشمولية فى القرن العشرين ذلك بطرق مختلفة • وأوضح تاريخ الماركسية للمفكرين فى كل مكان مركزية الاختبار والمسئولية الأخلاقية فى المسائل التاريخية بشكل عام •

لايعنى هذا ضرورة التخلى عن كل شىء فى الماركسية ، كما أنه لايجب التخلى عن الحدوس الأساسية لداروين لان آراءه حول آليات التطور قد أبطلت انما يعنى آنه لم يعد هناك ثمة مبرر لاعتناق الماركسية بوصفها مدرسة فكرية أو نظرية خاصة • وبالإمكان دمج آى اسهامات فعالة لماركس فى تيار الدراسة العلمية المعاصرة للانسان والمجتمع •

وتتسم الاشتراكية باعتبارها فلسفة بشمولية واتساع نطاق أوسع من نظريات ماركس والماركسية حيث تعتبر زمرة من النظريات تتعلق بالظروف والشروط التى فى ظلها يمكن تحقيق الاشتراكية والوسائل التى تستخدم لذلك وبعد التخلى عن كثير من هذه النظريات فى ضوء النتائج التى أوصلت

اليها ، تدعى الاشتراكية فى الوقت الحاضر أنها كتيار فكرى تجسد حصيلة تفاعل الأفكار الديمقراطية الحديثة والتفكير العلمى الحديث ٠

تعتبر كل الحركات الاشتراكية المعاصرة والتى تختلف توجهاتها بوضوح عن توجهات الشيوعيين والأشكال الشمولية الأخرى ، تعتبر نفسها فى الأساس ذات طابع أخلاقى ٠ وتعتقد رغم عدم امكانية فصل «ماهو فردى» عن «ماهو اجتماعى» ان الشخصية الانسانية تكتسب أسبقية وأولوية على تراكز السلع والقيم المادية ، وانه ينبغى تقييم كل المبادىء الاجتماعية بما فيها تلك الاقتصادية من خلال تأثيرها على الحياة اليومية للأشخاص ، وانه ينبغى تبرير كل أطروحات التغيير الاجتماعى بتحديد نتائجها المثمرة بالمساهمة فى انماء الفرد واثراء مضمون التجربة الفردية فى الوقت الحاضر ٠ وتعتقد الحركات الاشتراكية المعاصرة بضرورة اتاحة الفرص للمواهب بصرف النظر عن العرق ، اللون ، الجنس ، والديانة ، وانه ليس لشخص قادر ولايقدم أى اسهامات للمجتمع أى حق معنوى فى التمتع بالسلع الاجتماعية والخدمات ، وبتبسيط أكثر ، لاينبغى أن يحيا أى شخص قادر على حساب عمل الآخرين ، بل وينبغى تأنيس العمل ذاته humanized ليس فقط بجعل ظروف العمل أقل ارهاقا ولكن بجعلها قدر الامكان وسائل للتعبير الخلاق عن الانسان ، أو اذا تعذر ذلك ، جعلها متبوعة بفترة راحة يستمتع فيها بكل ماهو جيد فى الفكر والفن ووسائل الترفيه ٠ وتعتقد أيضا فى أهمية المشاركة والادارة الديمقراطية القصوى للمؤسسات الاجتماعية فى كل المستويات ــ من أجل تأكيد وتقوية الحرية السياسية ، العقلية ، والثقافية ويعتقدون أنه ينبغى على المجتمع اعلان مساواة الفرص لكل الأفراد لتطوير

فروقهم الفردية ، الأمر الذى يعبر عنه فى استعداد كل المؤسسات للمساواة فى المعاملة • ويفسرون المساواة فى المعاملة ليس لتعنى الحقوق المكتسبة فى خدمات ومنافع متساوية للجميع وكما أن المساواة فى العلاج الطبى لاتعنى لديهم حقوق مكتسبة متساوية فى العقاقير للجميع ويبدو أنهم قد اتخذوا المبدأ الذى أعلنه جون ديوى حول التعليم كدليل لكل شىء آخر «ينبغى أن تكون علاقة الجماعة بأفرادها على نحو أفضل وأعقل ماتكون عليه علاقة الآباء بأطفالهم» •

فى ضوء هذه الأفكار أيدت الحركات الاشتراكية الديمقراطية برامج مخططة للعمالة الكاملة الاسكان الملائم ، التأمين الاجتماعى ، والاجراءات الأخرى لتحقيق الرفاهية العامة • وبشكل عام يبدو أنهم لم يضعوا فى اعتبارهم أى شكل خاص للملكية كشرط جوهرى لتحقيق أهدافهم بل وأعلن معظم روادهم الرسميون أن كل مايلزمهم من أى شكل من أشكال الملكية هو السماح بتحرر الطاقات الانسانية بدون جعل نوعية الحياة الانسانية تعتمد على القرارات الاستبدادية والقهرية • وهذا سبب اعتقاد الاشتراكيين فى ضرورة الديمقراطية كعهد مبدئى ولذا يعتقد الاشتراكيون أن المسألة الأساسية فى الفترة الحاسمة من التاريخ المعاصر للعالم هى نمط القرار السياسى وليس نمط الانتاج الاقتصادى •

قد يساهم انطلاق الطاقة النووية والاكتشافات التكنولوجية الأخرى فى حل مشكلة الفقر تحت أى نظام سياسى • لكنها لاتقدر على حل مشاكل الاحتفاظ بحرية المجتمع وهذه هى المهمة الأبدية التى نذرت الاشتراكية الحديثة نفسها للدفاع عنها كما يخبرنا الاشتراكيون الديمقراطيون •

ليس من قبيل الانصاف والالتزام بالحقيقة ، تأكيد أن أهداف الاشتراكية كما تم تصورها والتعبير عنها ، هى حكرا لاهتمام أولئك الذين يطلقون على أنفسهم «اشتراكيين» • ولذا فان الاشتراكية باعتبارها حركة أو حزبا سياسيا فى العملية الديمقراطية يمكن أن تميز ذاتها عن باقى الأحزات الديمقراطية من خلال البرنامج الخاص فقط والذى تفترضه لمواجهة مشاكل معينة • ويعنى هذا أن الاختلافات بينهم فى الدرجة وليست فى النوع •

سوف تستمر الصراعات الطبقية ، ويؤكد الاشتراكيون الديمقراطيون أنها لن تصبح حرفيا حروب طبقية طالما يتم حلها من خلال العملية الديمقراطية • والحرب الطبقية الوحيدة التى يستعدون لخوضها تماما هى الدفاع عن الديمقراطية ضد أعداء الحرية •

ينكر الاشتراكيون الديمقراطيون أن هذه الرؤية تعنى «افلاس» الحركة الاشتراكية بل على العكس يقولون انها تجسد انتشار وانتصار أفكارهم وفى رأيهم أن العوائق التى تنبع من نجاح حركتهم تسلك طريقين الصعوبة الأولى هى ذلك البرنامج الواضح القاطع المفهوم والذى لم يعد يفصلهم عن معارضيهم سابقا وهم مازالوا فى طليعة حركات الاصلاح الاجتماعى ، ولكن من الصعب بالنسبة لهم تحديد أين تنتهى وتقف الطليعة الاشتراكية ويبدأ الجسم الأساسى للرأى العام الغير اشتراكى • وتنبثق الصعوبة الثانية من حقيقة طرح شعارات قديمة وصيغ بالية فى مواقف تتطلب شعارات جديدة ــ فالاصلاحات والتعديلات الفورية التى أضيفت للبيان الشيوعى وذيل بها كبرنامج للعمل الاشتراكى قد تجاوزتها الأحداث حتى فى حياة مؤلفيه • وانهمك كل جيل

من المفكرين الاشتراكيين فى صياغة ووضع جدول للمعايير والمهام لاقرارها على أساس فهم مشترك لقبول القديم • أية نظرة على تاريخ أى بلد فى أى وقت معين تم حماية الحـرية السياسية فيه مع الاحتفاظ بالأشكال الرأسمالية ، تكشف أن أفكار الاشتراكية الديمقراطية هى التى صنعت هذا الطريق الرئيسى • بل ويؤكد الاشتراكيون الديمقراطيون ، ربما مع بعض المبررات ، انهم الهموا واوحوا بمهام واجـراءات اصلاحية ، حتى وسط المجموعاتالتى مازالت ترتعد وترتجف من ذكر اسم «الاشتراكية» وفى الوقت الحاضر ، وسواء كان الاقتراع هو مشاركة العمال فى الادارة وتوجيه الصناعة ، أو أجر سنوى مضمون ، ينسبه الاشتراكيون لمبدأهم بأنه أيا كان الشكل الذى تتخذه الملكية ينبغى التحكم فيها وتكون مسئولة عن طريق أولئك الذين تؤثر فيهم سلطتها •

يصر الاشتراكيون الديمقراطيون أنه بمجرد التخلص من القشرة البلاغية ، يمكن القول بصدق أكثر من أى وقت مضى اننا«جميعا اشتراكيون الآن» •وبالتخلص من الشعارات المطاطة والكلمـات الاكليشـيهية catch words لن تختصر الاختـلافات بين الأحـزاب الديمقراطية الى اما أن تكون اشتراكية أو رأسمالية بل تصبح اما أكثر اشتراكية أو أقل وبالمثل أكثر رأسمالية أو أقل • ولقد تشعبت برامج الدولية الاشتراكية المزدهرة حديثا بروح هذا الاتجاه •

من خلال تحول نظرى بدا وكأن النظـرية الماركسـية الارثوذكسية للمادية التاريخية ، قد أصـبح لها مشايعون وسط مجموعة صغيرة أكاديمية ذات روابط وثيقة ومتسقة من المعـارضين للاشـتراكية ، الذين استنتجوا بثقـة أن الاقتصاد الاشـتراكى المخطط ، أو أى نوع من الاقتصـاد

المخطط سيؤدى حتما الى فقدان الديمقراطية وظهور الشمولية • وتبعا لهذا الرأى ، فان نمط الانتاج الاقتصادى هو الذى يقرر بمفرده ويحدد النظام السياسى للمجتمع ، على الأقل فى المجتمع الاشتراكى • يفترض العمل السياسى أنه قادر على التأثير فى عملية اقتصاد السوق الحر ولكن العمل السياسى فى ظل اقتصاد مخطط غير وارد الا فى حالة كونه سوطا لفرض القرارات والمراسيم الصارمة لمجلس التخطيط ومع ذلك فان التنبؤ بأن تنامى التوجيه الاقتصادى المسئول والتخطيط سيقود بالتأكيد الى تآكل الحرية السياسية ، هو تنبؤ واستنتاج مشكوك فيه منطقيا وتاريخيا ، من الناحية المنطقية يتجاهل تعدد أشكال الادارة والرقابة السياسية التى تتسق مع أى نظام اقتصادى معروف • ومن الناحية التاريخية لم يعط وزنا كافيا لحقيقة أنه فى البلدان التى سار فيها التخطيط جنبا الى جنب مع الديكتاتورية ،كانت الديمقراطية قد تحطمت قبل أن يتم ادخال الاقتصاد المخطط وليس كنتيجة لادخاله وتطبيقه •

قد يبدو للبعض أن مجمل المحتوى التاريخى للحركة الاشتراكية التقليدية قد تحلل وأذيب فى التجريد الصورى للديمقراطية ولكن من وجهة نظر الحركة الاشتراكية الديمقراطية ولكن سيصبح ذلك خطأ فادحا ، لأن مثل هذا الاتهام يشخص الديمقراطية باعتبارها وحسب الآليات (ميكانيزمات) لتسجيل الاجماع والموافقة • ولكن عندما يتحدث الاشتراكيون الديمقراطيون اليوم عن «الديمقراطية» فانهم يشيرون الى ماهو أكثر من اجراءات الاقتراع ويعتقدوا أنها تتضمن فئات كاملة من الممارسات الدستورية المبدئية فى الحياة الاجتماعية ، العرفية ، القانونية ، والتعليمية ، بالاضافة الى لائحة واعلان حقوق فعال للدفاع عن الأقليات

ولقد اكتسب مصطلح «الديمقراطية» تبعا لذلك مفهوما ودلالة واسعة ، وثراء وتعقيدا لم يحرزه من قبل لم تعد الديمقراطية ترمز الى اجراءات انتخابية بل ترمز لطريقة حياة • ففى القرون الغابرةلم يكن مفهوما تعبير «الديمقراطية كطريقة للحياة» • بل ومازال غامضا حتى الآن ولكن مضمونه من الوضوح كى يفترض اتجاها ان لم يكن برنامجا خاصا للنشاط والعمل ويؤكد الاشتراكيون الديمقراطيون أنه لايوجد أى مطلب اشتراكى فعال ويستثنى أو يستبعد من مفهوم الديمقراطية كطريقة للحياة •

ماذا لو أن الاشتراكيين الديمقراطيين استبدلوا أحد أشكال الطوبائيات بآخر ؟ ماذا لو أنهم تخلوا عن معتقداتهم القطعية dogmas عن حتمية القرن التاسع عشر ، التى كانت تتميز علي الأقل بالتماسك ، لصالح التجريد الفج عن الديمقراطية ، ولصالح تمجيد أفكار ومثل غير مفهومة ؟ ينبغى الاعتراف بأن المبادىء الديمقراطية فى اتون الممارسة قد قصرت عن بلوغ المثل الديمقراطية وبرغم كل نقائصها أثبتت المبادىء الديمقراطية أنها وسيلة أكثر ملاءمة مما قد افترضه الماركسيون فى الماضى • ولقد قدم العمال اجابتهم المؤكدة على السؤال التحريفى «هل يمكن للعمال أن يأكلوا ديمقراطية ؟» ومن خلال تجربتهم الخاصة لان التجربة قد أوضحت أنه فى ظل حكومة تقوم على مبدأ الحرية الفردية ، لم يحتفظ العمال فقط بحريتهم ويوسعوها، بل أصبح العامل يأكل أفضل كثيرا مما هو قائم فى أى مجتمع تحكمه الديكتاتورية وخاصة عندما تحكم باسمه • وأوضحت التجربة مصالح العمال الراسخة فى الديمقراطية بل وتتعدى مصالح الحكومة فوجود النقابات الحرة فى ظل الديكتاتورية أمر مستحيل طالما أن الادارة قادرة على التفاهم مع من بيدهم

زمام السلطة بل وحتى الضمانات الضئيلة التى وعدت الدولة الشمولية العمال بها ، تعتمد على النزعات البيروقراطية bureaucratic ويتم مصادرتها فى حالة اظهار أى نقد مستقل • وفى مثل هذه الدول حيث يتم التنكر لحرية العمال التى اكتسبوها فى المجتمع الديمقراطى ، يصبح الأمن عبودية ، والشعور بالواجب يصبح عملا اجباريا ، والعزلة تصبح تخفيا ، والأسرة قفص للتهذيب والمدرسة تصبح مخفرا أماميا للدولة ، الذكاء الاجتماعى تكنيكا للعقلانية ، الفن ومعرفة القراءة والكتابة تصبح أسلحة لفرض الخضوع والامتثال ، وأصبح الفرد موضوعا• وهذه حقيقة مستقلة عن أشكال علاقات الملكية ـ ومستقلة عما اذا كانت تسمى اشتراكية أو رأسمالية أو اقطاعية أو بيروقراطية •

يستنتج الاشتراكيون الديمقراطيون فى ضوء كل هذه الاسباب ، ان مايتبقى من التراث الغامض للماركسية . ومايبقى صحيحا وأبديا هو تفانيها وتكريسها للروح العلمية والايمان الديمقراطى • وأنكر أولئك الذين تقبلوا الرأسمالية كفلسفة اجتماعية هذه الروح ، بل ويؤكدون أن كل أشكال الاشتراكية ستقود ان عاجلا أو آجلا الى الحرمان من الحرية ـ ويجيب الاشتراكيون على هذا الادعاء ، بأن مثل هذه النظرية تعتبر نظرية وغير عملية ، بل وتشارك فى تدعيم قوى الشمولية المعارضة ليس فقط للديمقراطية الأمريكية بل للمجتمع الحر فى أى مكان •

الكلمة الأخيرة فى هذا الجدل والحوار المستمر لم تكتب بعد • فمن المؤكد أن الأحداث التاريخية لعصر علمى جديد ستتعارض وتتحدى الحلول التى ظهرت ملائمة للمشاكل

العلمية والنظرية فى مرحلة مبكرة ولذا ينبغى على كل قارىء أن يقوم بتفسير تراث ماركس والماركسيين لنفسه سواء كان برفضه أو بتقبله أو يقوم بتعديله ، فان قراره الشخصى لن يصبح قرارا حكيما مالم يكونه بنفسه وهدف هذه الدراسة الوحيد كان مساعدة القارىء فى صياغة قرار حكيم ٠

الباب الثانى

قراءات مختارة

قراءة رقم (١)

«ماركس وانجلز : البيان الشيوعى»

«يعتبر البيان الشيوعى (١٨٤٨) فى نظر الأصدقاء والأعداء على حد سواء ، واحدا من أكثر المنشورات المكتوبة فعالية وتأثيرا سياسيا ويبدو ماركس فى أفضل صوره كمفكر وكاتب ورجل أحداث من خلال سياق البيان وأسلوبه ، وحماسه النبوئى المتقد ..» .

● انطلقت صيحات التحذير من الشبح الذى ينتاب اوروبا ـ شبح الشيوعية . بل ودخلت كل قوى اوروبا فى حلف مقدس لطرد هذا الشبح - البابا والقيصر ، مترنيخ وجيزوت ، الراديكاليون الفرنسيون وجواسيس البوليس الألمانى (١) .

ألم يدان أى حزب معارض واتهم بالشيوعية من جهة خصومه فى السلطة ؟ ألم تتنصل أحزاب المعارضة الوئيدة الطيعة من وصمة عار الشيوعية ، فى مواجهة أحزاب المعارضة الأكثر جسارة ونضالية ، وبالمثل فى مواجهة الخصوم الرجعيين .

ينتج عن هذه الحقيقة أمران :

---

(١) ترجمة صمويل مور ومراجعة فردريك انجلز .

١ ــ اعتراف كل القــوى الاوروبيــة بالقــوة الذاتية للشيوعية ٠

٢ ــ ان الوقت المنــاسب قد حــان ليصــبح لزاما على الشيوعيين أن يواجهوا العالم ككل صراحة وينشروا آراءهم وأهدافهم واتجاهاتهم وليواجهوا هذه الحكاية الطفولية عن شبح الشيوعية باصدار بيان للحزب الشيوعى ذاته ٠

١ ـ البرجوازيون والبروليتاريون :

يعد تاريخ كل المجتمعات التى كانت قائمة فى الماضى وحتى الآن ، هو تاريخ الصراع الطبقى ٠

حيث يقف في تعارض دائم الرجــل الحــر في مواجهة العبد ، الشريف في مواجهة العامى الســيد ازاء الخــادم ، العامل فى مواجهــة صاحب العمل ، وفى كلمــة واحــدة المضطهدون فى مواجهة المضطهدين ٠ بل ويمضى تعارضهم فى اقتتال وتصارع مستتر تارة ، وصريح تارة أخــرى ٠ الاقتتال الذى قد ينتهى مرة وفى أشد صورة باعادة البنــاء الثورى للمجتمع ، أو الى تدمير شامل لكل طبقات المجتمع ٠

نجد فى الفترات المبــكرة من التــاريخ ، تنظيم معقد للمجتمع فى أشكال متنوعة ، وتنظيم طبقى متدرج رئيسى وحيث نجد فى روما القــديمة طبقة الأشراف والنبــلاء ، الفرسان ، العامة ، العبيد ، ونجد فى العصــور الوســطى النبلاء الاقطاعيين ، الأتبــاع ، رؤســاء طــوائف التجارة والصناعة ، العمال المهرة الصبية الحرفيين ، الاقنان ، ويوجد فى معظم هذه الطبقات تسلسلات وتقسيمات طبقية فرعية ٠

لم يتخلص المجتمع البرجوازى الحديث الذى نبت من حطام المجتمع الاقطاعى من التناقضات الطبقية ، لكنه أسس

طبقات جديدة ، ظروف جديدة للقهر وأشكال جديدة للصراع مكان تلك القديمة ٠

ويتسم عصرنا ، عصر البرجوازية بطابع مميز محدد : توسيع التناقضات الطبقية واكسابها المزيد من الوضوح فانشطر المجتمع ككل الى معسكرين عدائيين كبيرين . الى طبقتين تواجه كل منهما الأخرى مباشرة : البرجوازية والبروليتارية ٠

لقد لعبت البرجوازية دورا ثوريا متعاظما من الناحية التاريخية ٠

عندما كان للبرجوازية اليد العليا ، وضعت نهاية العلاقات الاقطاعية العشائرية Patriarchal الريفية ٠ ومزقت بعنف أشلاء العلاقات الاقطاعية المتناقضة التى كانت تكبل الانسان بأغلال «أسياده الطبيعيين» ولم تدع أية رابطة بين الانسان وباقى البشر سوى رابطة المصلحة الشخصية المجردة ، والعائد المادى الصرف ٠ بل وأغرقت معظم المباهج السماوية والعاطفة الدينية ، والحماس الفروسى ، والنزعة العاطفية القديمة ، أغرقت كل ذلك بالماء البارد للحساب الأنانى والنظرة الفردية الضيقة ٠ وحولت القيمة الشخصية الى قيم المقايضة والتبادل وأرست حرية التجارة محل حريات عديدة لايمكن الغاؤها دستوريا وفى كلمة واحدة استبدلت الاستغلال المرقع والمحجب بالأوهام الدينية الخادعة والمقنع بالأوهام السياسية باستغلال صريح فج مباشر ووحشى ٠

جردت البرجوازية كل المهن من وقارها والتكريم الذى كانت تحاط به وحولت علماء الطبيعة المحامين القساوسة الشعراء ورجال العلم حولتهم الى مجرد عمال مأجورين ٠

بل ونزعت عن الأسرة خمارها العاطفى ، وضاءلت من شأن العلاقات الأسرية الى مجرد علاقات مالية فقط ٠

كان البرجوازيون أول من أوضح مايمكن للطاقة الانسانية تحقيقه ٠ أنجزوا العجائب التى تفوقت على الأهرامات المصرية ، القنوات الرومانية ، الكاتدرائيات القوطية ، وقاد البرجوازيون حملات عسكرية تضاءل بجوارها كل الهجرات السابقة للأمم والغزاة ٠

لايمكن للبرجوازية أن توجد بدون تثوير دائم لأدوات الانتاج ، وأيضا علاقات الانتاج ومجمل العلاقات القائمة فى المجتمع ٠

يطارد البرجوازية ويلهب ظهرها سياط الحاجة للتوسع الدائم لسوق توزيع منتجاتها عبر سطح الكرة الأرضية ينبغى عليها أن تسعى لكل مكان ، تستقر أينما حلت لتؤسس مراكز للعمل ٠٠

خلال فترة حكم البرجوازية القليلة لمائة عام ، خلقت قوى انتاجية أكثر ضخامة من كل ما أوجدته كل الأجيال السابقة معا من اخضاع القوى الطبيعية للانسان ، الميكنة ، وتطبيق الكيمياء فى الصناعة والزراعة ، الملاحة البخارية ، سكك الحديد ، البرق الكهربائى ، تطهير كل الأرض واعدادها للزراعة ، شبكات القنوات والأنهار ، وتساءل كل سكان الأرض هل تصور أو حتى توقع رجال أى عصر مضى أن مثل هذه القوى الانتاجية قد تهجع فى كنف العمل الاجتماعى ؟

ونرى بالتالى : أن وسائل الانتاج والتبادل التى قامت عليها البرجوازية قد أنتجت فى المجتمع الاقطاعى ، وعند درجة معينة فى تطور هذه الأدوات الانتاجية والتبادلية التى

ينتج ويتبادل المجتمع الاقطاعى فى ظلها ، مثل التنظيم الاقطاعى للزراعة والانتاج الصناعى أى العلاقات الاقطاعية للملكية لم تعد متسقة مع القوى الانتاجية التى تطورت كلية ، بل وأصبحت علاقات الملكية الاقطاعية قيودا وأغلالا ، لذا كان ينبغى تحطيمها وتمزيقها الى أشلاء ، ولقد تحطمت ٠

وأقيم مكانها علاقات المنافسة الحرة ويصاحبها تكوين اجتماعى وسياسى ملائم لها ، ونفوذ اقتصادى وسياسى للطبقة البرجوازية ٠

وكانت تجرى حركة مشابهة بعيدا عن أعيننا المجتمع البرجوازى الحديث بعلاقاته الانتاجية علاقات التبادل ، الملكية ، المجتمع البرجوازى الذى استحضر مثل هذه الوسائل الهائلة للانتاج والتبادل أصبح كالساحر الذى لم يعد بامكانه أن يسيطر على تلك القوى الخفية التى استحضرها بسحره ٠

ولعهود مضت كان تاريخ الصناعة والتجارة هو ثورة القوى الانتاجية الحديثة ضد الظروف الحديثة للانتاج وضد علاقات الملكية التى كانت شروط وجود البرجوازية وحكمها ٠ يكفى أن تتذكر الأزمات التجارية ومراحلها المتعاقبة الدورية والتى ضاعفت من شدة هذه الأزمات ، وأصبحت مهددة فى كل وقت لوجود البرجوازى ككل ٠ حيث تم تدمير قطاع كبير من قوى الانتاج الجديدة والموجودة من قبل أيضا ، تم تدميرها على دورات ٠ واندلع ابان هذه الأزمات وباء وفرة الانتاج الذى بدا فى كل مراحله المبكرة وكأنه نوع من اللامعقول ٠ وفجأة وجد المجتمع نفسه وقد تراجع الى حالة من البربرية الخاطفة التى حلت به تبدو كما لو كانت مجاعة ، أو حرب دمار عالمية ، قطعت امداد كل وسائل العيش والبقاء ، وكأن

الصناعة والتجارة قد دمرت ، ولماذا ؟؟ لانه يوجد المزيد من وسائل التمدن ، مزيد من وسائل العيش ، مزيد من الصناعة والتجارة ووفرة فى كل شىء • فلم تعد القوى الانتاجية تعنى بتعزيز وتطوير أوضاع الملكية البرجوازية فى عملية تنظيم المجتمع ، على العكس ، أصبحت القوى الانتاجية متعاظمة القوة ازاء هذه الأوضاع ، والتى كانت تقيدها وتكبلها بأغلالها ، وبمجرد قهرها لهذه الأغلال تحدث الفوضى والاضطراب فى المجتمع البرجوازى ككل وتهدد وجود الملكية البرجوازية وتعتبر أوضاع وظروف المجتمع البرجوازى لصيقة بدرجة يمكن مقارنتها بالثروة التى خلقتها فكيف تتغلب البرجوازية على هذه الأزمات ؟ من جانب بتقوية عملية تدمير وتحطيم القوى الانتاجية الضخمة ومن جانب آخر بغزو أسواق جديدة ، بالمزيد من استغلال تلك الأسواق الجديدة ، أو على الأصح ، بتمهيد الطريق أمام المزيد من الأزمات المدمرة والمتصلة وتقليل وسائل الانتاج اذا لم تقع الأزمات •

تحولت الأسلحة التى أسقطت بها البرجوازية النظام الاقطاعى وطرحته أرضا ، تحولت ضدها بل وارتدت الى صدر البرجوازية ذاتها •

لكن لم تصنع البرجوازية وتصيغ الأسلحة التى ستموت بها فقط ، بل دفعت الى السطح الرجال الذين سيستخدمون هذه الأسلحة ليصيبوا البرجوازية فى مقتل ، على يد البرجوازية كان ميلاد الطبقة العاملة الحديثة ــ البروليتاريا •

مرت البروليتاريا بمراحل تطور عديدة ويبدأ بمولدها صراعها مع البرجوازية فى البدء كان النضال يتم من خلال

عمال أفراد ، ثم عمال المصنع ، ثم فاعلية نقـابة فى اقليم محلى واحد ، ضد البرجوازى الفردى الذى يستغلهم ٠

مع تطور الصـناعة تزايد عـدد البروليتاريا أصبحت مركزة فى مجموعات ضخمة ، متنامية القوة وازداد شعورها بقوتها ٠ وأصبحت مصالح وظروف الحياة آكثر تقاربا داخل الطبقة البروليتارية ، بل تم طمس مميزات العـامل كفرد ازاء الآلة ، وتم تخفيض الأجور الى نفس المستوى الأدنى فى كل مكان ٠٠ بدأ العمـال فى تكوين تنظيماتهم (النقابات العمالية) ضد البرجوازية ، تعاونوا معا من آجل الحفاظ على مستوى الأجور ، أسسوا جمعيات دائمة لعمل إسـتعدادات مسبقة لتلك التمردات الطارئة ٠ بل واندلع فى كل مكان نضال وانتفاضات ٠

منذ ذلك الوقت ويبدأ انتصـار العمـال ، لكن لوقت ولفترة فقط ٠ فالثمرة الحقيقية لنضالهم لاتكمن فى النتيجة الفورية ، بل فى اتحادهم المتوسع دوما ووحـدة العمـال الدائمة ٠

فى النهـاية ، حتى عنـدما يقترب الصراع الطبقى من ساعته الحاسمة ، تستمر عمليةالانحلال داخل الطبقة الحاكمة، فى الحقيقة داخل الاطار العام للمجتمع القديم ، يتخذ هذا الانحلال طابعا غاضبا عنيفا ، لدرجـة آن قطاعا صغيرا من الطبقة الحاكمة يترك عواهنه تحت رحمة الأحداث بلا هدف، ويلتحق بالطبقة الثورية ، الطبقة التى تمده بزمام المستقبل فى يديها ٠ تماما كما حدث فى فترة سابقة عنـدما تحـول قطاع من النبلاء وانضم الى البرجـوازية بالمثل يتحول الآن قطاع من البرجوازية لينضم الى البروليتاريا ، خصوصا قسم من المنظرين الايديولوجيين ideologicalists البرجـوازيين ،

الذى ارتفعوا نظريا بأنفسهم ليصبحوا المتفهمين والواعين بالحركة التاريخية ككل ٠

لقد بحثت كل الطبقات السـابقة وهى تتبوآ عـرش السلطة عن تحصين وضعها المكتسب من خلال اخضاع المجتمع بأجمله لأوضاع ملكيتهم الخاصة ولن يمكن للبروليتاريين أن يصبحوا سادة القوى الانتاجية مالم يقولوا بالغاء نمط الملكية السـابق ، وبالمثـل كل نمط سـابق للملكيـة فليس لدى البروليتاريين أى شىء كى يحصنوه ويحموه ، وسألتهم هى تدمير كل ضمانات وتحصينات الملكية الفردية السابقة ٠

لقد كانت كل الحركات التاريخية السابقة مجرد حركات أقليات أو للدفاع عن مصالح الأقليات لكن الحركة البروليتارية حركة واعية بذاتها ومستقلة معبرة عن الأغلبية العـريضة ولن يمكن أن تنشط البروليتاريا وهى الطبقـة الدنيا فى المجتمع القائم ولن ترتفع بذاتها دون أن تتطاير شظايا الطبقة العليا الفوقية للمجتمع الحاكم فى الهواء ٠٠

نتتبع فى وصف الأدوار العامة لتطـور البروليتاريا ، حروب أهلية كامنة ، تثور داخل المجتمع القائم ، وبوصولها لنقطة اندلاعهـا فى ثـورة علنيـة ، حيث يطيح العنف بالبرجوازية يتم اقامة حكم البروليتاريا ٠

كما رأينا ، وحتى الآن ، يقوم شكل المجتمع وتنظيمه على التناقض والعداء بين الطبقة الحاكمة المضطهدة والطبقة المقهورة ٠ ولكن اضطهاد طبقة يتطلب تأكيدا على شروط معينة يمكن فى ظلها استمرار وجودها العبودى ٠ فالعبد فى مرحلة العبودية ، ارتفع بنفسه لمصاف عامة الشعب ، بالمثل رتب البرجوازى الصغير نفسه فى ظل الاستبداد الاقطاعى ليتطور الى برجوازى ٠ العامل الحديث ، على النقيض ، بدلا

من الارتفاع مع تقدم الصناعة يغرق نحو أعماق القاع الآدنى من شروط البقاء والعيش الملائم لطبيعته الخاصة . يصبح فقيرا معوزا ، ويتطور الفقر والاملاق بأسرع من تطور الثروة وزيادة السكان . ويصبح ذلك دليلا على عدم صلاحية البرجوازية وملائمتها لتكون الطبقة الحاكمة فى المجتمع ، وحتى تفرض شروط وجودها كقانون مسيطر على المجتمع . وهى غير صالحة للحكم لانها لم تعد تقنع بالوجود تحت استعبادها من خلال عبوديته ، ولانها لم تعد تقدر على تركه يغرق لمثل هذه الحالة ، حيث ينبغى عليها اطعامه بدل أن يطعمها العامل . لم يعد المجتمع قادرا على أن يحيا فى ظل هذه البرجوازية ، بكلمات آخرى لم يعد وجود البرجوازية متسق مع المجتمع .

الشرط الجوهرى لوجود ولحكم الطبقة البرجوازية ، هو تكوين وزيادة رأس المال وشرط وجود رأس المال وزيادته هو العامل المأجور وبقاء العامل المأجور فى منافسة مع العمال بشكل عام والدافع الثورى لتطور الصناعة وهو البرجوازية، أحل بدلا منه انعزالية العمال وتفرقهم نتيجة لمنافسة اتحادهم الثورى وتجمعهم . ولذا ، فان تطور الصناعة الحديثة ، هو الذى سحب البساط من تحت أقدام البرجوازية، والقاعدة التى تدور عجلة انتاجها فوقها وتتجمع ملكية البرجوازية لها . فما تنتجه البرجوازية فوق كل شىء . هو أولئك الذين يحفرون قبرها . وكما آن انهيار البرجوازية حتمى ، فان انتصار البروليتاريا حتمى .

قراءة رقم (٢)

كارل ماركس : المادية التاريخية

«هذا هو عرض ماركس الأصلي حول كيفية توصله للمادية التاريخية ، وتلخيصه لهذه المسألة» (١) ٠

● كانت الدعاوى القضائية التي رفعت في Rhenish Landtag ضد سرقات الأخشاب ، وتقسيم ملكية الأراضي ، والجدل الرسمي الذي أثاره الهر فون سكابر Von schapar مسئول مقاطعة الراين ، ضد جريدة راينيج ذايتونج Rhenish Zeitung حول وضعية فلاحي منطقة الموزيل واختتمه بمناقشة التجارة الحرة واجراءات الحماية الاقتصادية (الجمارك) كانت هي فرصتي للانشغال بالمسائل الاقتصادية وعلى صعيد آخر عندما كانت تحركني رغبة حسنة في ذلك الوقت للمضي قدما نحو تحصيل معرفة ذات وزن حول الموضوع ، كان هناك صوت مسموع في جريدة راينيج ذايتونج للاشتراكية والشيوعية الفرنسية ميسومة بمسحة فلسفية باهتة ٠ فأعلنت رفضي لهذه الهواية ولكنني اقتنعت صراحة وفي نفس الوقت في مناظرة في جريدة زايتونج بأن دراستي السابقة لاتسمح لي بمغامرة الحكم على مضمون الاتجاهات الفرنسية ٠ بدلا من ذلك فهمت جيدا خداع

---

(١) من مقدمة للاسهام في نقد الاقتصاد السياسي (١٨٥٩) ٠

مديرى جريدة راينج زايتونج الذين اعتقدوا أن بامكانهم من خلال صياغة اتجاه ضعيف فى جزء من الصحيفة . حماية وتأمين اغفال حكم الموت الذى صدر ضدها ، كى ينسحبوا من الاطار العام للدراسة . ولذا شرعت فى حل الشكوك التى انتابتنى بمراجعة نقدية لفلسفة الحق الهيجلية ، وهو العمل الذى ظهرت مقدمته عام ١٨٤٤ ونشر بباريس . أدت استنتاجاتى أنه لايمكن ادراك العلاقات القانونية وبالمثل أشكال الدولة وفهمها من ذاتها ولا من خلال مايسمى بالتطور العام للعقل الانسانى بل من خلال الوصول لجذورها فى الظروف المادية للحياة وأن الجوهر Sum total الذى جمعه هيجل متبعا المفكرين الانجليز والفرنسيين فى القرن الثامن عشر ، تحت اسم «المجتمع المدنى civil society يمكن البحث عن هذا الجوهر فى تحليل وتشريح المجتمع المدنى فى الاقتصاد السياسى ، والأبحاث التى بدأتها فى الاقتصاد السياسى ابأن اقامتى بباريس مضيت فى الاستمرار فيها ببروسل Brussels ابان هجرتى تبعا لأمر بطردى أصدره جيزو M. Buizot.

يمكن توظيف النتيجة العامة التى توصلت اليها كخيط رفيع موجه لدراساتى ، ويمكن صياغتها كالتالى : يدخل البشر خلال انتاجهم فى علاقات محددة للانتاج تتوافق مع الدرجة والمرحلة المحددة لتطور قواهم المادية الانتاجية . والنتيجة الكلية لهذه العلاقات الانتاجية تكون وتشكل البناء الاقتصادى للمجتمع ، والأساس الواقعى والتى يقام عليه البناء الفوقى super structure القانونى والسياسى والتى يتماثل معها أشكال محددة للوعى الاجتماعى . ان نمط انتاج الحياة المادية هو الذى يقرر عملية الحياة الاجتماعية ، السياسية والعقلية بوجه عام . ليس وعى الأفراد هو الذى

يحدد وجودهم بل على العكس ، ان وجودهم الاجتماعى هو الذى يحدد وعيهم وعند مرحلة معينة من تطورهم تدخل القوة الانتاجية المادية للمجتمع فى صراع مع علاقات الانتاج القائمة ، أو فى تعبير قانونى تدخل فى صراع مع علاقات الملكية التى كانت تعمل فى اطارها حتى الآن من أشكال تطور هذه القوى الانتاجية تتحول هذه العلاقات الى أغلال تكبل تلك القوى عندئذ تبدأ حقبة الثورة الاجتماعية • ومع تغير الأساس الاقتصادى يتحول مجمل البناء الفوقى بسرعة أو ببطء واذا أخذنا فى الاعتبار مثل هذه التحولات ينبغى التمييز بين التحولات المادية فى الظروف الاقتصادية للانتاج والتى يمكن تحديدها بدقة العلم الطبيعى ، وبين التجولات فى الصيغ القانونية ، السياسية ، الدينية الأخلاقية أو الفلسفية باختصار ، الصيغ الايديولوجية التى يصبح الناس فيها على وعى بالصراع ويحسموه بالقتال تماما كما رأينا أن الفرد ليس هو مايرتئيه ويعتقده أنه هو ، بالمثل لايمكن الحكم على مثل هذه المرحلة من التحولات من خلال وعيها ذاته ، على العكس ، ينبغى تفسير هذا الوعى على الأصح من تناقضات الحياة المادية ، من الصراع القائم بين القوى الانتاجية الاجتماعية وعلاقات الانتاج لايفنى أبدا أى نظام اجتماعى قبل كل القوى الانتاجية التى بالنسبة له تعد بمثابة الغرفة التى بداخلها قد تطور ، ولن تظهر أية علاقات انتاجية أرقى قبل أن تنضج الشروط المادية لوجودها فى رحم المجتمع القديم ذاته • ولذا ينبغى على الانسانية أن تنذر نفسها فقط لمثل هذه المهام بقدر مايمكنها حلها بينما بمزيد من الاقتراب من المسألة ، نجد دائما أن المهمة ذاتها تبزغ فقط عندما توجد الشروط المادية لحلها تماما أو على الأقل فى طور التكوين • وفى خطوط عريضة يمكن تصنيف أنماط الانتاج الآسيوية

القديمة ، الاقطاعية والبرجوازية الحديثة كمراحل تقدمية فى التكوين الاقتصادى للمجتمع · ان علاقات الانتاج البرجوازية هى الشكل الأخير العدائى للعملية الاجتماعية للانتاج ـ عدائية ليس بمعنى العداء الفردى بل بمعنى منبثق من الشروط الاجتماعية لحياة الأفراد ، فى نفس الوقت فان تطور القوى الانتاجية فى رحم المجتمع البرجوازى يخلق الشروط المادية لحل هذا العداء · لهذا السبب فان هذا التكوين الاجتماعى يوضح تماما مرحلة ماقبل التاريخ بالنسبة للمجتمع الانسانى ·

قراءة رقم (٣)

كارل ماركس : تقديس السلعة ولغزها

«هذا هو أحد موضوعات ماركس الرئيسية فى تفسيره السسيولوجى sociological للمقولات الاقتصادية والتى يبحث فيه كى يبرهن على كون السلع منتجات لأيدى الانسان، وهى تتبوأ مركز سلطةوسيطرة وتقود الانسان تبعا لقوانينها الخاصة (١)» ٠

● تظهر السلعة للوهلة الأولى شيئا عاديا عابرا ومفهوما بذاته ويوضح تحليلها أنها شىء معقد جدا ، يعج بالالغاز الميتافيزيقية والاحاجى الثيولوجية theological ٠ لا يوجد أى شىء غامض او ملغز عنها للمدى الذى تكون فيه ذات قيمة فى الاستعمال ، سواء تظهر اليها من زاوية قدرة خصائصها على اشباع الرغبات الانسانية أو من زاوية ان خصائصهامن نتاج العمل الانسانى ومن الواضح كوضوح شمس الظهيرة ، ان الانسان من خلال عمله التصنيعى يغير من أشكال المواد التى تخرجها الطبيعة ، لتصبح ذات نفع وفائدة له ٠ على سبيل المثال ، يتغير شكل الخشب بتصنيع منضدة منه ٠ ومع ذلك تظل المنضدة بالنسبة للجميع ذلك الشىء المألوف الذى يرى كل يوم وهو الخشب ٠ ولكن بمجرد

(١) من رأس المال مج ١ باب فصل ٤ الترجمة الانجليزية (ارنسست أونرمان)، شيكاغو ١٩٠٦ ٠

أن تصـــبح كســلعة ، تتغير الى شيء متعـــال transcendent
فهى لم تقف بقدميهـا فقط على الأرض ، بل بعلاقتهـا مع
باقى الســلع الأخرى ، تقف على رأســها ، تطلق من مخهـا
الخشبى أفكارا غريبة وخيالية أشد غرابة ودهشة من عملية
(تصنيع المنضدة) ذاته ٠

لا يتبدى الطابع الوثنى للسلع لهذا السبب . فى قيمة
استعمالها ٠ وبقدر ضئيل تنبع من طبيعة العوامل المحددة
للقيمة ٠ ولذا يأتى فى المقام الأول أيا كان تنوع الأنواع
المفيدة للعمل ، او الانشطة الانتاجية فهى حقيقة فسيولوجية
physiological أنها وظـائف للكائن الحى . وكل واحدة
من هذه الوظائف مع تعدد طبيعتها وشكلها تعتبر فى الأساس
استهلاكا للمخ البشرى ، الأعصاب ، العضــلات وفى المقام
الثانى وفيما يختص بالقاعدة والأساس للتحديد الكمى للقيمة
اســميا هو مدة هذا الاســتهلاك (للمخ) او كمية ومقدار
العمل ، فمن الواضح تماما وجود اختلاف ملموس بين كمية
العمل ونوعيته ٠ ينبغى أن تكون مدة العمل المستهلكة لانتاج
وسائل الحياة المعيشة موضع أهتمام البشرية فى كل حالات
وأوضــاع المجتمــع ، ومع ذلك لاتحظى بنفس القــدر من
الأهتمام فى المراحل المختلفة للتطور ٠ وختاما ، يتخذ عمل
الأفراد صــيغة اجتماعية من اللحظة التى يعمل فيها أحدهم
لحساب الأخر ٠

من أين اذن ينبثق الطابع المبهم لنتاج العمل ، بمجرد
اتخاذه شكل السلع ؟ ينبثق بوضوح من شكل السلعة ذاته ٠
حيث يعبر عن نوعية كل صنوف العمل الانسانى موضوعيا
عن طريق كون جميع منتجاتها ذات قيمة متساوية ، ولكن
قياس جهــدة وقوة العمــل المســتهلكة من خــلال مدة ذلك

الاستهلاك تتخذ شكل القيمة الكمية لمنتجات العمل ، وفى النهاية ، تتخذ العلاقات المتبادلة بين المنتجين والتى يؤكد الطابع لعملهم ذاته فى اطارها ، تتخذ شكل العلاقة الاجتماعية بين المنتجات •

لهذا تعد السلعة شيئا غامضا مبهما ، حيث يتبدى فيها الطابع الاجتماعى لعمل الأفراد كطابع موضوعى مطبوع على منتجات عملهم ولان علاقة المنتجين بالنتيجة الكلية لعملهم الخاص تتمثل لهم باعتبارها علاقة اجتماعية موجودة وقائمة بين نتاج عملهم وليس بين الأفراد المنتجين أنفسهم وهذا هو السبب كى تصبح منتجات العمل سلعا ، أشياء اجتماعية وفى نفس الوقت من المحتمل ادراك خواصها وربما عدم ادراكه بالحواس • بنفس الطريقة تدرك الضوء الصادر من آى هدف ليس بوصفه منبها ومثيرا ذاتيا لعصبنا البصرى ، بل كشكل موضوعى لشىء ما خارج العين ذاتها ولكن فى عملية الرؤية، يوجد فى كل الأحداث ، مسار فعلى للضوء من شىء لآخر ، من الموضوع الخارجى الى العين • فهناك علاقة فيزيائية بين الأشياء الفيزيائية لكن الأمر مختلف مع السلع فوجود الأشياء بوصفها سلعا وعلاقة القيمة بين نتاجات العمل والتى تطبع وجودها باعتبارها سلعا ليس لها مطلقا آية رابطة بخواصها الفسيولوجية وبعلاقاتها المادية المنبثقة منها • بل ان وجود علاقات اجتماعية معينة بين الأفراد ، هو الذى يفترض لديهم الشكل الخيالى Fantastic لوجود علاقة بين الأشياء • ولكى نجد نظيرا لذلك ، ينبغى اللجوء الى تلك المناطق ذات السديم المعتم للعالم الدينى حيث تظهر فى ذلك العالم نتاجات المخ البشرى باعتبارها موجودات مستقلة وتنفخ فيها الحياة ، وتدخل فى علاقات مع بعضها البعض بل مع الجنس البشرى وهكذا الحال فى عالم السلع مع نتاجات أيدى الانسان • وهذا

ماأسميه تقديس الذى يرتبط بمنتجات العمل ، حالما تنتج كسلع ، والذى يكون متلازما مع انتاج السلع ولايمكن انفصاله عنها ·

وهذا التقديس للسلع له مصدره ، كما أوضح التحليل السابق ، فى الطابع الاجتماعى الخاص للعمل الذى ينتجهم ·

وعلى سبيل الحكم العام ، تصبح الأدوات والأشياء المستعملة والمفيدة سلعا ،فقط لأنها منتجات عمل أفراد معينين او مجموعات من الأفراد الذين يقومون بعملهم بشكل مستقل أحدهما عن الأخر · والنتيجة اجمالية لعمل كل هؤلاء الأفراد المعينين تشكل العمل الكلى للمجتمع وطالما لا يدخل المنتجون فى ارتباط اجتماعى مع بعضهم البعض حتى يقوموا بتبادل منتجاتهم ولا يوضح الطابع الاجتماعى لعمل كل منتج ذاته الا فى فعل المبادلة والمقايضة · وفى كلمات أخرى ، يؤكد عمل الفرد ذاته كجزء من عمل المجتمع فقط بوسائل العلاقات التى يؤسسها فعل التبادل مباشرة بين المنتجات ، وغير مباشرة من خلالها بين المنتجين · وبالنسبة للمنتجين لذا تظهر العلاقات التى تربط عمل فرد واحد بعمل باقى الأفراد ليس كعلاقات اجتماعية مباشرة بين الأفراد فى العمل ولكن كما هى حقيقة علاقات مادية بين الأفراد وعلاقات اجتماعية بين الأشياء وتكتسب منتجات العمل بوصفها قيما فقط منخلال تبادلهالها ومضلعااجتماعيا موحدا ومتميزا عن أشكالها المختلفة ووجودها كموضوعات للانتفاع والاستخدام · وهذا التقسيم للشىء المنتج الى شىء مفيد والى قيمة يصبح مهما فقط عندما يكتسب التبادل مثل ذلك الامتداد بأن الأدوات النافعة يتم انتاجها بغرض تبادلها ، وطابعها كقيم ينبغي اذن ان يوضع فى الاعتبار

مسبقا ابان عملية انتاجها ومن هذه اللحظة يكتسب عمل الفرد المنتج طابعا مزدوجا اجتماعيا يتمثل الجانب الأول لهذا الطابع فى ضرورة أشباعه لحاجة اجتماعية محددة باعتباره نوعا مفيدا ومحددا من العمل ،وبذا يتخذ وضعه كجزء وقسم من مجمل عمل الجميع ، وكفرع من التقسيم الاجتماعى للعمل والذى ينبثق تلقائيا • والجانب الثانى ، هو امكانه اشباع الحاجات المتنوعة للفرد المنتج نفسه ، فقط بالقدر الذى يصبح عنده التبادل المشترك لكل أنواع العمل الخاص المفيد حقيقة اجتماعية راسخة ولذا يصطف العمل الخاص المفيد لكل منتج فى مساواة مع عمل الآخرين • ويمكن فقط ان تصبح معظم أنواع العمل متساوية كنتيجة لاستخلاصها وتجريدها من التفاوتات وعدم المساواة ، او لاختزالها لقاسمها المشترك اى ، استهلاك قوة العمل الانسانية او العمل الانسانى كشىء مجرد ويظهر هذا الطابع الاجتماعى المزدوج لعمل الفرد بالنسبة له عندما ينعكس فى مخه. فقط تحت تلك الأشكال التى تلتصق بالعمل فى الممارسة اليومية من خلال عملية تبادل المنتجات وبهذه الطريقة يتخذ الطابع الذى يكتسبه عمله الخاص بكونه مفيدا ونافعا اجتماعيا يتخذ صيغة الشرط بأن الشىء المنتج لاينبغى أن يكون مفيدا ونافعا فقط بل مفيدا للآخرين ، والطابع الذى يتصف به بكونه مساويا لكل الأنواع الأخرى الخاصة للعمل ، يتخذ صيغة آن كل الأدوات المختلفة ماديا physically والتى هى منتجات العمل، لها كيفية واحدة مشتركة ، أى ، أنها ذات قيمة •

اذن ، عندما ندخل نتاجات عملنا فى علاقة مع بعضها البعض باعتبارها قيما ، ليس لاننا نرى فى هذه الأدوات الأوعية المادية للعمل الانسانى المتجانس • بل العكس تماما ، كلما سوينا من خلال التبادل بين منتجاتنا المختلفة باعتبارها

قيما وبين الاخرى الفعالة ، فنحن نوازى أيضا ونسوى كعمل بشرى بين الأنواع المختلفة للعمل المستهلكة لانتاجها • ونحن لانلتفت أو نهتم بذلك ، رغم اننا نقوم به ولهذا فان القيمة لاتتباهى بملصق يصف ماتكون هى بـل تكمن قيمتها على الأصح فى تحويلها كل شيء منتج الى هيروغليفية اجتماعية •

ثم نحاول بعد ذلك اكتشاف هذه الطلاسم وحل رموزها، لاكتشاف لغز وسر منتجاتنا الاجتماعية ووصف الشيء المنتج الذى تستخدمه واعتباره قيمة ويعد بالتالى نتاجا اجتماعيا تماما كما يحدث مع اللغة • والاكتشاف العلمى الحـديث ، بأن نتاجات العمل بقدر ماتكون ذات قيمة ، فهى تعبيرات مادية عن العمل الانسانى المستهلك لانتاجها ، فهى تميز فى الواقع حقبة من تاريخ تطور الجنس البشرى وعلى أية حال تبدد الضباب الذى يظهر خلاله الطـابع الاجتماعى للعمل ويتبدى لنا باعتباره طابعا موضوعيا للمنتجات ذاتها • فى الحقيقة فى الشكل الخاص للانتاج الذى تتناوله ، وهو انتاج السلع فان الطابع الاجتماعى المميز للعمل الخاص الذى يتم بشكل مستقل ويتكون من مساواة كل نوع من أنواع ذلك العمل تبعا لاعتباره عملا انسانيا ، لهذا السبب يتخذ هـذا الطابع شكل القيمة أثناء الانتاج تتبدى هذه الحقيقة للمنتج دون الاشارة واعتبار الاكتشاف السابق لها واعتبارها حقيقة نهائية ، كما أن مع اكتشاف العلم للغازات المكونة للهواء ، يبقى الجو كما هو دون تغيير •

والذى يهم المنتجين ويعنيهم أولا وفوق كل شيء عندما يقومون بتبادل ومقـايضة منتجاتهم هو السـؤال ، ماكمية المنتجات الأخرى التى يحصلون عليها مقابل منتجاتهم الخاصة؟ بأى نسبة تصبح المنتجات ممكنة التبادل ؟ وعندما تحصل هذه

النسب والكميات من خلال العرف على استقرار وثبات ، يبدو وكأنها تستنبط من طبيعة المنتجات لدرجة أنه على سبيل المثال ، يظهر كشيء طبيعي أن طنا واحدا من الحديد يساوى فى قيمته اونزتين (*) من الذهب ounce وكما أن مقدار رطل من الذهب ورطل من الحديد رغم خواصهما الفيزيائية والكيميائية المختلفة يظهر آنهما ذو وزن متساو • عندما تستحوذ المنتجات على طابع القيمة ، يكتسب هذا الطابع ثباتا واستقرارا من خلال فاعليتها والفاعلية المتجددة لكل منها ازاء الآخر باعتبارها مقادير وكميات من القيمة وتتنوع وتختلف هذه الكميات باستمرار وبشكل مستقل عن ارادة ورؤية وعمل أولئك الذين أنتجوها بالنسبة لهم يتخذ عملهم الاجتماعى الخاص شكلا وصورة عمل الموضوعات التى تتحكم فى المنتجين بدلا من تحكمهم هم فيها • فهى تتطلب انتاجا متطورا تماما للسلع وينبثق من غضون الخبرة التراكمية بمفردها الاقتناع العلمي بأن كل الأنواع المتعددة للعمل الخاص ، والتى يتم القيام بها مستقلة عن بعضها البعض ، أو حتى كفروع متصلة التطور للتقسيم الاجتماعى للعمل ، يتم اختصارها دوما الى نسب ومقادير كمية يتطلبها المجتمع فلماذا ؟ لانه وسط كل العلاقات التبادلية العرضية والمتقلبة دوما بين المنتجات يؤكد وقت العمل الضرورى اجتماعيا لانتاجها ، يؤكد ذاته بقوة باعتباره قانونا مهيمنا من قوانين الطبيعة • مثل قانون الجاذبية الذى يؤكد ذاته عندما يسقط منزل على مرأى منا ولذا فان تحديد آهمية القيمة باستخدام وقت العمل يعد لغزا ، مختبأ خلف التموجات والتقلبات فى القيم النسبية للسلع ومع ذلك فان اكتشافه بازالة مجمل المظهر العرضى عن تحديد آهمية ومقدار القيمة للمنتجات ،

(*) أونزة وحدة موازين تساوي ٢٨٫٣٥ جرام (المترجم) •

لايغير النمط الذى يتبدى من خلاله هذا التحديد والتعريف ٠

يتخذ تفكير المرء فى صور وأشكال الحياة الاجتماعية ، وبالتالى تحليله لها ، يتخذ مسارا معاكسا مباشرة للأشكال والصيغ التى تتخذها فى تطورها التاريخى الفعلى ٠ فالمرء يبدأ حيث تنتهى بعد انقضائها ، ونتائج عملية التطور فى متناول يده ٠ فالخصائص التى تميز المنتجات كسلع والتى يعد تأسيسها أمرا ضروريا ومبدئيا لتداول السلع ، قد اكتسبت الثبات والاستقرار كأشكال طبيعية ومفهومة بذاتها للحياة الاجتماعية ، والانسان لايبحث عن كشف وحل غموض طابعها التاريخى لانها راسخة وثابتة أمام ناظريه ، بل يبحث عن مغزاها ٠ بالتالى فان تحليل أسعار السلع هو فقط الذى يقود الى تحديد حجم القيمة ، ولقد كان التعبير الشائع عن كل السلع بالنقود هو الذى قاد الى اقامة طابعها باعتبارها قيما ٠ وعلى أية حال فان الشكل المطلق للنقود الذى يتخذه عالم السلع هو الذى يحجب فعليا الخاصية الاجتماعية للعمل الخاص بدلا من اظهاره ، والعلاقات الاجتماعية بين الأفراد المنتجين وعندما تقرر أن المعاطف والأحذية على علاقة مع خيوط الكتان ، لانها التجسيد الكونى للعمل والجهدالانسانى المجرد يظهر عدم معقولية هذه العبارة بذاته ٠ ومع ذلك عندما يقارن المنتجون للمعاطف وللاحذية أدواتهم بالكتان ، أو أى أدوات مماثلة للذهب أو الفضة ، باعتبارها مرادف كونى ، فانهم يعبرون عن العلاقة بين عملهم الخاص والجهد الجمعى للمجتمع فى نفس الشكل اللامعقول ٠

تتكون مقولات الاقتصاد البرجوازى من قبل هذه

الأشكال • فهى صيغ للتفكير تعبر بمصداقية اجتماعية عن ظروف وعلاقات نمط انتاج محدد تاريخيا ، أى انتاج السلع • فالغموض الكلى للسلع والطابع الوثنى الذى يكتنف منتجات العمل بمجرد اتخاذها شكل السلع ، يختفى لهذا السبب حالما تصل الى أشكال أخرى من الانتاج •

قراءة رقم (٤)

كارل ماركس : النزعة التاريخية للتراكم الرأسمالى

«يجسد هذا النص تنبؤ ماركس بالتطـور الاقتصادى للمجتمع انتاج السلعة ومحصلته النهائية (١)» ٠

● ما الذى يتحول اليه التراكم البدائى لرأس المـال بذاته ، أى أصوله وبذوره التاريخية ؟ بقدر ما أن تحول العبيد والأقنان الى عمـال مأجـورين ليس تحـولا فوريا ومباشرا ، لذا فانه مجرد تغيير فى الشـكل ، ويعنى فقط مصادرة والغاء المنتجين الحاليين ، أى تصـفية الملكية الخاصة القائمة على عمل مالكيها ٠

تعد ملكية العامل الخاصة لوسائل انتاجه هى الأسـاس الذى تقوم عليه الصناعة الصغيرة والصناعة الصغيرة بدورها شرط جوهرى لتطور الانتاج الاجتماعى والفردية الحـرة للعامل نفسه وبطبيعة الحال ، يوجـد هـذا النمط الصـغير للانتاج فى ظل الرق ، القنـانة Serfdom وحـالات التبعية الأخرى ٠ ولكنها تزدهر ويطلق عنان مجمل طاقتها فقط حيث يكون العامل هو المالك الخاص لوسائله الخاصة للعمل والتى يعمل بها بنفسه : الفلاح مالك للأرض التى يفلحها ، الحرفى

(١) رأس المال مج ١ ق ٣٢ الترجمة الانجليزية ٠

مالك للأدوات التى يتعامل معها كفنان · يفترض هذا النمط للانتاج مسبقا توزيع وتقسيم الأراضى ، وأيضا الوسائل الأخرى للانتاج ·· وعند مرحلة معينة من التطور ينتج القوى المادية التى ستؤدى الى تخلل هـذا النمط ذاته ينبثق من هذه اللحظة قوى جديدة وميـول جـديدة وسط المجتمع ، لكن تكبلهـا وتقمعهـا التنظيمات الاجتمـاعية القديمة · لذا ينبغى ابادتها وقد ألغيت بالفعل ·

والغاؤها ، بتحـويل وسـائل الانتـاج الفردية المبعثرة والمفتتة الى أخـرى ذات تركيز اجتماعى وبتحـويل الملكية القزمية للأغلبية الى ملكية ضخمة للأقلية ، وبتجريد الجموع الواسعة من الشـعب من أراضـيها ، ومن وسـائل العيش والعمل ، يشكل هذا التجريد والمصادرة المؤلمة الرهيبة لجموع الشعب فاتحة وبداية لتاريخ رأس المال · فلقد استأصلت جذور الملكية الخاصة التى تتكسب بذاتهـا ، القـائمة على انصهار العامل المنعزل المستقل مع ظروف عمله كما يقال ، وخلفتها الملكية الخاصة الرأسمالية ، التى تتكىء على استغلال العمل الحر للآخرين شكليا أى تعتمد على العمل المأجور ·

بمجرد أن تعيد عملية التحول هذه تركيب وبناءالمجتمع القديم كلية ومن القمة للقاع ، وحـالما يتحـول العمال الى بروليتاريين Proletearlan وتتحول وسائل عملهم الى رأس مال Caplral ويقف نمط الانتـاج الرأسـمالى على قدميه ، عندئذ يتخذ شـكلا جـديدا التأميم الأوسـع مدى للعمـل Socialisation والتحويل الأعمق للأرض والوسائل الأخرى للانتاج ، بالاضافة الى المصادرة للملكيات الخاصة ، والذى سيصادر هنا ليس بحال العامل الذى يعمل لحسابه الخاص ، بل الرأسمالى الذى يستغل العديد من العمال · وتنفذ هذه

المصادرات بفعل القانون الاصيل للانتاج الراسمالى ذاته من خلال تركيز رأس المال • دائمـا يغتال رأسـمالى واحـد الكثيرين •

ويتطور الشكل التعاونى لدولاب العمل فى مدار دائم الاتساع يدا بيد مع ذلك التركيز والتجريد والمصادرة للعديد من الرأسماليين على أيدى قلة منهم ، والتطبيق التكنولوجى للعلم وجعل كل وسائل الانتاج ذات طابع اقتصادى باستخدام العمل الاجتماعى المعقد ، وتوريط كل الشـعوب فى شرك السوق العالمى ، بالاضافة لهـذا الطـابع العـالمى للنظـام الرأسمالى •

وبمحاذاة الاضمحلال المتصل لعدد وحجم أقطاب الرأسمال، الذين يغتصبون ويحتكرون كل مزايا وثمار عملية التحول هذه ، يتزايد حجم وأعداد البؤساء المضطهدين ، ويتسع نطاق العبودية ، الانحلال والتفسخ ، الاستغلال ، ولكن ينمو معها أيضا الروح الثورية للطبقة العاملة التى تتزايد دوما فى تعدادها ، التزامها ، وحدتها ، وتنظيمها من خلال آليات mechanism عملية الانتاج الرأسمالى ذاته • ويصبح احتكار رأس المال قيدا وأصفادا لنمط الانتاج ، والذى نشأ وانبثق وازدهر بجواره وفى ظله وكنفه • ويصل تمركز وسـائل الانتاج وتأميم العمل فى النهاية الى نقطة يصبح عندها غير متسق مع الغلاف الرأسمالى لها ويتمزق هذا الغلاف اربا • ويقرع ناقوس الملكية الرأسمالية الخاصة • ويتم تجـريد أولئك المستغلين من ملكياتهم •

قراءة رقم (٥)

كارل ماركس : الدين والاقتصاد

«يطبق ماركس فى هذا النص المادية التــاريخية على الدين» •

● العالم الدينى هو مجرد انعكاس لعالم الواقع ، لهذا فان المجتمع القائم على انتاج السلع ، والذى يدخل المنتجون فيه وبشكل عام فى علاقات اجتماعية مع بعضهم البعض من خلال التعامل مع منتجاتهم باعتبارها سلعا وقيما ، ووفقا له يتم اختزال عملهم الفردى واختصاره مستوى العمل الانسانى المتجانس homogeneous تعتبر المسيحية أكثر الأشكال الدينية ملاءمة لهذا المجتمع ، بعبادتها للانسان المجرد ، وبوجه خاص فى تطوراتها البرجوازية ، البروتستانتية (١) Protestantism الربوبية beism • نجد فى نمط الانتاج الآســيوى القديم وأنماط الانتاج القديمة الأخرى أن تحول الأفراد الى منتجى سلع يحتل موقعا ثانويا ، وتتزايد أهميته باقتراب الجماعات البدائية من انحلالها • حيث تتواجد الأمم التجارية ، تسمى كذلك تقريبا ، فى العالم القديم بين ثناياه وغضاريفه فقط،

---

(١) يجدر الاشارة لمحاولة ماكس فيبر (١٨٦٤ ـ ١٩٢٠) عالم الاجتماع فى دراسته (الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية) حيث حاول ربط النظام الاقتصادى الرأسمالى بالمسيحية فى ثوبها البروتستانتى ويربط بين التحرر الدينى الذى تجسده البروتستانتية والتحرر الاقتصادى الذى تجسده الرأسمالية وكونها محاولة اصطنعت بالصفة العلمية لا يؤدى للتعامل معها بكونها علما وبالمثل تتصف بمحاولة ماركس (المترجم) •

مثلما يوجد الهة الابيقوريين Epicurus فى انترموندىا Intermundia (٢) ومثلما يوجد اليهود فى مسام المجتمع البولندى • تعتبر هذه النظم الاجتماعية القديمة للانتاج متعاظمة البساطة بمقارنتها مع المجتمع البرجوازى بل وغاية فى الوضوح • ولكنها تقوم على التطور الفج للانسان فرديا حيث لم ينزع بعد الحبل السرى الذى يضمه لأقرانه فى الجماعة القبلية العشائرية البدائية أو تقوم على العلاقات المباشرة للتبعية والخضوع ويمكن أن تظهر وتوجد فقط عندما لايتجاوز تطور القوى الانتاجية للعمل المستويات الدنيا ، ولهذا تكون العلاقات الاجتماعية داخل اطار الحياة المادية لصيقة لدرجة التطابق بين الانسان والانسان ، بين الانسان والطبيعة • وينعكس هذا التقارب اللصيق فى العبادة القديمة للطبيعة ، وبعض الملامح الأخرى فى الديانات الشعبية • يمكن أن يختفى نهائيا الانعكاس الدينى للعالم الواقعى ، فقط عندما لاتقدم العلاقات العملية للحياة اليومية للانسان شيئا أكثر من تلك العلاقات المفهومة والتى يمكن تعقلها فيما يتعلق بعلاقاته بأقرانه وبعلاقته مع الطبيعة •

ولن تتجرد عملية حياة المجتمع القائمة على عملية الانتاج المادى ، ولن ينزع عنها غلالتها وخمارها الصوفى حتى تعامل باعتبارها من انتاج البشر المرتبطين معا بشكل حر ، وتسير منتظمة انتظاما واعيا بأيديهم وفقا لخطة مقررة ويقتضى ذلك للمجتمع ايجاد قاعدة عمل مادية خاصة أو مجموعة من شروط الوجود والتى بدورها هى نتاج تلقائى لعملية تطور طويلة شاقة ومؤلمة •

---

(٢) مذهب دينى ظهر فى القرن ١٨ يؤمن بالله ويدعو للتأكيد على القيم الأخلاقية ويعتمد على العقل دون الوحى •

قراءة رقم (٩)

كارل ماركس : فى التقاليد الشخصية الفردية ، والقوى الطبقية

«النص التالى أجد الموضوعات الرئيسية القليلة من كتابات ماركس التاريخية ، ١٨ برومير لويس نابليون بونابرت ، يطبق فيه نظريته التاريخية على حدث معاصر هام • اقتبس القسمين الأول والثانى من مقدمة الطبعة الثانية ، والجزء الباقى من نص الكتاب ذاته» •

● يوجد من بين الكتابات المتعلقة بنفس الموضوع الذى أتناوله وفى نفس الحقبة التاريخية التى يبحث فيها كتابى تقريبا ، يوجد فقط عملان يستحقان الاشارة والتنويه عنهما ، كتاب فيكتور هوجو Victor Hugo نابليون الصغير Napoleon The Little وكتاب برودون Proudon الانقلاب coup d'etat

أغرق هوجو نفسه فى تيار قدح لاذع وبارع ضد الناشر المسئول عن كتاب الانقلاب • ولكن الحدث ذاته ظهر فى كتابه باعتباره مفاجأة مذهلة ، ورأى فيه مجرد العمل العنيف لشخص بمفرده • ولم يدرك أنه يجعل بذلك هذا الفرد عظيما بدلا من جعله صغيرا حيث يعزو اليه قوة المبادرة الفردية كما لو لم يكن له نظير فى التاريخ العالمى وبحث

برودون من جانبه لتصوير الانقلاب كنتيجة لتطور تاريخى سابق دون ملاحظة كيف أن تفسيره للانقـلاب يتحـول الى تبرير تاريخى لبطل الانقلاب وكهذا وقع فيما نسميه خطأ المؤرخين الفرديين • ولكننى على النقيض من ذلك برهنت كيف أن الصراع الطبقى فى فرنسا خلق الظروف والعلاقات التى جُعلت بامكان أصحاب القدرة المتوسطة والمهرجين القيام بدور البطل •

ذكر هيجل فى موضع من احدى كتاباته أن جميع الأحداث والشخصيات ذات الأهمية العظيمة فى تاريخ العـالم تحدث وكأنها تتكرر مرتين • وقد نسى هيجل أن يضيف : فى المرة الأولى كمأساة ، والثانية كملهاة • كوسيدير caussidlere فى دور دانتون ، لويس بلانك فى دور روبسبير • جبل (١) عام ١٨٤٨ ـ ١٨٥١ فى دور جبل (يسار) ١٧٩٣ ـ ١٧٩٥ وابن الأخ فى دور العم (٢) وتحدث نفس الصـورة الهزلية (الكاريكاتورية Caricature) فى الظروف المتعلقة بالطبعة الثانية من برومير الثامن عشر •

البشر يصنعون تاريخهم ، لكنهم لايصنعوه كما يريدون تماما ، فى ظل الظروف التى يختـارونها بأنفسـهم ، بل يصنعوه فى ظل ظروف وأوضاع معطاة مباشرة وموروثة من الماضى ومتسامية عليهم • وتثقل كاهلهم تقاليد وأعراف كل الأجيال المندثرة كأحلام الليل فى مخ الانسان عند المنام تماما عندما يبدو أنهم مستغرقون فى تثوير أنفسـهم والأشـياء المادية ، وخلق شىء لم يوجد من قبل ، بالتحـديد فى تلك

---

(١) كتلة يسار الثورة الفرنسية ، وأكثر كتلها جذرية (المترجم) •

(٢) ابن الأخ هنا هو لويس بنابرت حملته الأحداث التى تتالت عقب ثورة ١٨٤٨ الى منصة الحكم رغم هزلية شخصيته ، العم هو نابليون بونابرت الشخصية التى صانت منجزات الثورة الفرنسية • (المترجم) •

الفترات من الأزمة الثورية يستحضر البشر بشغف أرواح الماضى لتكون فى خدمتهم ، مستعيرين أسماءها ، شعاراتها ، أزياءها ليعرضوا المشهد الجديد لتاريخ العالم بهذا الزمن المقنع المبجل وبهذه اللغة المستعارة ، هكذا ارتدى لوثر قناع الرسول بولس ، وارتدت ثورة (١٧٨٩ ـ ١٨١٤) على التوالى قناع الجمهورية الرومانية ثم الامبراطورية الرومانية، ولم تتعلم ثورة ١٨٤٨ سوى المحاكاة الهزلية ، تارة لثورة ١٧٨٩ ، وأخرى لتقاليد الثورة أعوام ١٧٩٣ حتى ١٧٩٥ • وهكذا فان المبتدىء بتعلم لغة جديدة يترجم تعبيراتها دائما الى لغته الأصلية ، لكن يمكنه استيعاب روح اللغة الجديدة واستخدامها بطلاقة فقط عندما يشق طريقه فيها دون الرجوع الى لغته القديمة • بل وعندما ينسى لغته الأصلية أثناء استعمال اللغة الجديدة •

يكشف فحص هذه التوسلات الى موتى تاريخ العالم عن اختلاف بارز • فكاميل دى موليات ، دانتون ، روبسبير ، سان جوست ، نابليون ، والأبطال وكذلك الأحزاب وجماهير الثورة الفرنسية الأولى قد أنجزوا مهمة عصرهم وهم يرتدون أزياء رومانية ويستخدمون عبارات رومانية ، مهمة المجتمع البرجوازى الحديث والمتحرر والصاعد • فاذا كان الأوائل قد مزقوا الأساس الاقطاعى لاشلاء ، واجتثوا الرؤوس الاقطاعية التى نبتت عليه • فان نابليون قد أوجد من جانبه والآخرين داخل فرنسا ، الظروف والأوضاع التى فى ظلها فقط يمكن تطوير المنافسة الحرة ، واستثمار الملكية المفتتة للأرض ، وتوظيف القوى المنتجة الصناعية الصاعدة للأمة وخارج الحدود الفرنسية جرف فى كل مكان المؤسسات الاقطاعية بعيدا ، بقدر ماكان ضروريا لاعداد بيئة وأحوال ملائمة دوما في القارة الاوروبية للمجتمع البرجوازي في

فرنسا • بمجرد اقامة شكل المجتمع الجديد . توارى عمالقة الزمن القديم ومعها تلك الرومانية المنبعثة من قبورها ـ أقران بروتوس ، القديسون المدافعون عن العامة ، سادة المنابر أبطال الوطن أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى ، ويوليوس قيصر نفسه ، وأنجب المجتمع البرجوازى فىواقعه الرصين المعبرين الحقيقيين عنه والناطقين بلسانه ، أمثال ، ساى ،كموزات ، رويا ـ كولار، بنيامين كونستانت جيزوت• وكان قادته العسكريون الحقيقيون يجلسون خلف مكاتب المحاسبة وكان لويس الثامن عشر براس خنزير وغرائزه هو القائد السياسى لذلك المجتمع البرجوازى • وهذا المجتمع الذى استغرقه تماما انتاج الثروة وصراع المنافسة السلمى، لم يعد يدرك ان انتاج الثروة وصراع المنافسة السلمى لم يعد يدرك ان أشباح العصر الرومانى تسهر بجانب مهده • ورغم عدم بطولية هذا المجتمع كأى مجتمع برجوازى ، الا ان ولادته ووجوده اقترن بالبطولة ، التضحية الارهاب ، الحرب الأهلية ، الحروب الخارجية من أجل الشعب • ووجد مصارعوه المستعبدون Gladiators فى التقاليد الكلاسيكية الصارمة للجمهورية الرومانية المثل والصيغ الفنية واوهام خداع الذات الذى هم بحاجة اليها ليحجبوا ويخفوا عن انفسهم القصور البرجوازى لمضمون صراعاتهم وللاحتفاظ بحماستهم عند مستوى عال من المأساه التاريخية • وعلى هذا النحو وعند مرحلة أخرى من التطور ، قبل قرن ، استعار كرومويل Cromwell والشعب الانجليز من العهد القديم اللغة ، الاهواء الضرورية لثورتهم البرجوازية وعندما تحقق الهدف الحقيقي واكتمل التحول البرجوازى للمجتمع الانجليزى ،

انتزع لوك (١) Locke مكانة (٢) حبا فوق وخلفه فى دوره ٠

انطلقت الثورات البرجـوازية كتلك التى فى القــرن الثامن عشر ، بسرعة عاصفة من نجاح تلو الآخر ، وتتابعت نتائجها المثيرة العاصفة ، بدا الناس والأشياء وكأنهم تتوهج ثناياهم ينتشون ببهجة غامرة ، لكن سرعان ماتخبو وتنطفأ حالما تصل لذروتها ، فتكتنف المجتمع حالة احباط قبل أن يتعلم بامعان وهدوء كيف يتمثل ويستوعب دروس ونتائج فترة هياجه وانتفاضته ٠ وعلى الجانب الآخر ، فان الثورات البروليتارية ، كتلك التى فى القرن التاسع عشر ، تنتقد ذاتها دائما ، تتعرقل فى مسارها بنفسها وتضـــع المصاعب أمامها ، لتعاود اجتيازه بوضوح ولتبدأ الكرة ثانية ، تهزأ بقسوة من نقائص وضعف وخواء محاولاتها الاولى ، ويبدو أنها تطرح عدوها أرضا فقط حتى يستمد قوة جـديدة من الأرض وينبعث أكثر عنفـوانية في مواجهتها تتراجــع بين الفينة والأخرى من قوة أهدافها اللانهائية ، حتى تتمكن من ايجاد وخلق المواقف التى تجعل التراجع أو التحول عنهــا مستحيلا وحتى تصيح الظروف والأوضاع ذاتها :

«هذه هى رودس وهنا ينبغى أن تقفز» (٣)

الدستور ، المجلس القومى ، الأحزاب الملكية dynastic الجمهوريون المحافظون والثوريون ، أبطال افريقيا ، الوعود الرعدية للبرامج ، الصفحات البراقة للصحف اليومية ، مجمل الآداب ، الأسماء السياسية ، المكانة العقلية ، القانون المدنى

---

(١) جون لوك (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) فيلسوف انجليزى تجريبى وله نظرية علمية فى المعرفة ومن مؤلفاته « محاولة لدراسة العقل البشرى » ٠

(٢) حباقوق أحد أنبياء اليهود الثانويين عاش فيما بين (٦٥٠ ـ ٦٢٧ ق٠م) المترجم ٠

(٣) مثل لاتيني مؤداه التأكيد على اثبات القدرة على الفعل والحسم في اللحظة الحاضرة ٠

وقانون العقوبات ، الحرية المساواة والاخاء Liberté, ecalitè, Fraternite والأحـــد الثـــانى من مايو ١٨٥٢ ـ اختفى كل ذلك كسراب وأشباح قبل انقضاء سحر ذلك الذى لم يبرهن حتى لاعدائه أنه ساحر • ويبدو آن النـــداء الكونى يدوم فقط للحظة كى يخط بيده ارادته الأخيرة ووصيته على مرأى من العالم أجمع ليعلن باسم الشعب نفسه كل مايوجد يستحق أن يفنى •

لايكفى هذا لان تقول كما يفعل الفرنسيون ، ان أمتهم أخذت بغتة وعلى غرة • فلن يغفر للأمة أو يصفح عن المرأة لحظة غفلتها وعدم احتراسها مما عجل باغتصابها لأول مغامرة ولن تحل طلاسم اللغز بمثل هذه الصيغ البيانية ، بل يصاغ وحسب بشكل مختلف • ويبقى أن نفسر كيف أن آمة مكونة من ٣٦ مليون فرد يمكن أخذها بغتة واستسلامها بلا مقاومة واحكام قبضة ثلاث محتالين من الطـــراز الأول على زمـــام أمرها •

وفى ظل الملكية المطلقة ، ابان الثورة الأولى تحت قيادة نابليون ، كانت البروقراطية مجـــرد أدوات اعـــداد الطبقة الحاكمة للبرجوازيين ، وفى ظـــل عودة الملكية بقيادة لويس فيليب وفى ظل الجمهورية النيابية أصبحت البروقراطية أداة للطبقة الحاكمة ، تحـــاول جـــاهدة لكسب الســـلطة لحسابها الخاص •

حتى سلطة الدولة لم تعد هائمة فى القضاء ، حيث يمثل بونابرت طبقة ، أوسع طبقة فى المجتمع الفرنسى آنذاك ، طبقة المزارعين أصحاب الملكيات الصغيرة ••

مزارعوا الملكيات الصغيرة من الجموع الضخمة ، والتى يعيش أعضاؤها تحت ظروف متشابهة لكن بدون ارتباطهم

بعلاقات متنوعة مع بعضهم البعض • فلقد عزلهم نمط انتاجهم عن بعضهم البعض بدلا من ربطهم بعلاقات متبادلة • وتزايدت العزلة تبعا لوسائل الاتصال الرديئة فى فرنسا ونتيجة لفقر المزارعين• ولم تسمح حقول الانتاج، والملكيات الصغيرة بأى تقسيم للعمل فى زراعتها ، ولا بتطبيق العلم ، ولذا لم تتح أى تنوع فى تطورها ، ولا وجود مواهب متنوعة وافتقرت لثراء العلاقات الاجتماعية • وتعد أسرة كل مزارع مكتفية بذاتها غالبا ، حيث تنتج مباشرة الجانب الأعظم مما تستهلكه وتتكسب وسائل معيشتها بالتعامل مع الطبيعة أكثر من التبادل والتواصل مع المجتمع • تتراص مزرعة صغيرة ومزارع وأسرته بجوار مزرعة آخرى صغيرة وفلاح آخر مع أسرته وتتشكل القرية من مجموعة صغيرة منهم ، ومجموعة من القرى تشكل مقاطعة وبهذا المنوال تتكون الجموع الضخمة للمجتمع الفرنسى باضافات بسيطة لمجموعات متماثلة ، فى عملية أكثر شبها بتعبئة البطاطس فى كيس لتشكل من البطاطس • بقدر ما تعيش ملايين من الأسر تحت ظروف اقتصادية واوضاع معيشية تفصل ويفترق بها نمط ومصالحهم وثقافتهم عن الطبقات الأخرى ، وتضعهم فى تناقض عدائى مع بقية الطبقات ، بقدر ما يشكلون طبقة • وبقدر ما تكون روابطهم مكانية فقط ، ولا تؤدى هوية مصالحهم واهتماماتهم الى ولادة جماعة ما ، او ايجاد اى رباط قومى او اى تنظيم سياسى بينهم ، فانهم بذلك لا يشكلون طبقة • وبالتالى فهم غير قادرين على فرض مصالحهم الطبقية بأنفسهم ، سواء من خلال المجلس النيابى أو عبر الأعراف المجمع عليها • وهم لايستطيعون تمثيل أنفسهم • ينبغى أن يمثلهم غيرهم وينبغى فى نفس الوقت أن يظهر ممثلوهم باعتبارها أسيادهم ، كقوة مهيمنة عليهم ، كسلطة حكومية غير محددة

تحميهم من الطبقات الأخرى ، بل وتمنحهم المطر وأشعة الشمس من ملكوتها العلوى · لذا يجد التأثير السياسى للمزارعين أصحاب الملكيات الصغيرة تعبيره النهائى فى السلطة التنفيذية[1] التى تخضع بقية المجتمع لهاوتجعله تابعا لسلطتها·

كانت التقاليد التاريخية باعثا على أعتقاد الفلاحين الفرنسيين فى المعجزة التى تتحقق على أيدى رجل يدعى نابليون والذى سيعيد لهم كل مجدهم · او على ايدى اى فرد يظهر ويعلن أنه هو لانه يحمل اسم نابليون ، وبالتالى يحمل سر نابليون ، ويعلن أن «البحث عن البطل لم يعد مسموحا به» «Larechecĥe de La Paternite est interdite»

بونابرت الملكى لايمثل الفلاح الثوى بل ذلك المحافظ ، الذى يقبع خلف ظروف وجوده الاجتماعى ، الملكية الصغيرة، ولايمثل الريف الشعبى المرتبط بالمدينة ، والذى يريد أن يحطم النظام القديم بطاقته الذاتية ، بل على العكس يمثل أولئك الذين يهيمون فى عزلتهم وخدرهم فى اطار هذاالنظام القديم ، ويريدون أن يروا آنفسهم وملكياتهم الصغيرة محمية ومصانة وممجدة على لسان مارد الامبراطورية[1] · فهى لاتمثل التنوير ، بل التعتيم وتجهيل الفلاح ، لاتمثل انصافه بل اجحافه وظلمه لاتمثل مستقبله بل ماضيه وغابره ··

قراءة رقم (٧)

فردريك انجلز : الاشتراكية العلمية في مواجهة الاشتراكية الطوبائية

«يقدم هذا النص عرضا أكثر تفصيلا وواقعية لبعض أفكار ماركس الرئيسية من جانب إنجلز مع اشارة خاصة لما يميز تفكير ماركس وانجلز عن كل الطوابائيين بنوعياتهم المختلفة» •

● ظل نمط التفكير الطوبائي يسيطر لمدة طويلة على الأفكار الاشتراكية في القرن التاسع عشر ، ومازال يهيمن على البعض منها • وحتى وقت قريب كان كل الاشتراكيين الفرنسيين والانجليز ينضوون تحت لوائه وكانت الشيوعية الالمانية المبكرة بما فيها شيوعية ويتلنج weitling من نفس المدرسة الفكرية • بالنسبة لكل هؤلاء تعتبر الاشتراكية التعبير عن الحقيقة المطلقة ، العقل ، العدالة ، وينبغي الكشف عنها فقط لتغزو العالم بقوتها هي • وكما ان الحقيقة المطلقة مستقلة عن الزمان ، المكان ، وعن التطور التاريخي للانسان ، فهو مجرد شيء عرضي معرفة متى وأين اكتشفت ومع كل ذلك تختلف الحقيقة المطلقة ، العقل ، العدالة لدى مؤسس كل مدرسة مختلفة • وكل نوع خاص من الحقيقة

(١) ماركس وانجلز أعمال مختارة ، الترجمة (دار المنشورات الأجنبية) موسكو ١٩٥٠ المجلد ٢ ص ١١٧ — ١١٨ ، ١٢٥ — ١٢٦ ، ١٣٧ — ١٣٨ •

المطلقة العقل العدالة بدوره مشروط بفهم صاحبه الذاتى ، ووضعيات وجوده ، معايير معرفته ودرايته العقلية ، وليس هناك نهاية وحد آخر ممكن فى هذا الصراع من الحقائق المطلقة سوى أن كل منها يجب أن يستبعد الأخرى وبالمثل ولذا لن ينبثق منها سوى نوع من الاشتراكية الانتقائية المتعادلة التكوين ، وهيمنت فى الواقع وحتى العصر الحاضر على عقول معظم العمال الاشتراكيين فى فرنسا وانجلترا • وهكذا يتكون خليط يتسع لكل الأطياف المتعددة للرأى ، خليط من تلك القضايا الشائكة ، وتصورات مجتمع المستقبل لدى كل أصحاب النحل والملل المتباينة ، كما أنه لايثير الا قدرا ضئيلا من المعارضة ، ويتشكل مثل ذلك الخليط بسهولة بالغة ولذا تتآكل الجوانب الحادة من المقومات الفردية فى غمار المناقشة كما تتآكل جوانب الحصى فى تيار ماء الغدير •

ولكى تنجز علم الاشتراكية ، ينبغى أولا وضعها على قاعدة واقعية •

يبدأ المفهوم المادى للتاريخ من قضية أن انتاج الوسائل اللازمة للحياة الانسانية ، وبعد الانتاج تبادل الأشياء المنتجة هى قاعدة كل البناء الاجتماعى ، وانه فى كل مجتمع قد ظهر عبر التاريخ ، تعتمد الطريقة التى توزع بها الثروة وينقسم بها المجتمع الى طبقات أو نظم تعتمد على مايتم انتاجه ، وكيفية تبادل هذه المنتجات ومن وجهة النظر هذه ينبغى البحث عن العلل النهائية لكل الثورات السياسية للتغيرات الاجتماعية فى التغيرات فى النمط ، الانتاج والتبادل وليس فى عقول البشر ولا فى الرؤية الأفضل للانسان حول الحقيقة والعدالة الأبدية ينبغى البحث عنها ليس فى الفلسفة بل فى الاقتصاد الخاص بكل حقبة • ويصبح الادراك المتنامى بأن الاسس

الاجتماعية القائمة هى غير معقولة وغير عادلة وان ماهو عقلانى أصبح غير عقلانى والصواب أصبح خطأ ، الدليل الوحيد بأن التغيرات الحادثة فى نمط الانتاج والتبادل والتى تتحقق فى صمت قد أصبح معها النظام الاجتماعى الملائم لظروف اقتصادية سابقة غير ذى فاعلية ولم يعد بحاجة الى التمسك به والحفاظ عليه • ويستنتج من ذلك أيضا أن وسائل التخلص من المتنافرات وعدم الاتساق القائمة ستكون موجودة أيضا ، فى ظروف أقل أو أكثر تقدما فى غضون أنماط الانتاج المتغيرة ذاتها ولا ينبغى اختراع هذه الوسائل بالاستنباط من المبادىء الأساسية بل ينبغى اكتشافها فى الوقائع الصلبة لنظام الانتاج القائم •

فما هو اذن موقع الاشتراكية الحديثة فيما يتعلق بهذا ؟؟

التركيب الحالى للمجتمع ـ ومن المسلم به الآن عموما ـ هو خلق الطبقة الحاكمة الحالية للبرجوازية • ونمط الانتاج الخاص بالبرجوازية ، ومن المعروف منذ ماركس ، كما أن نمط الانتاج الرأسمالى غير متسق ومتعارض مع النظام الاقطاعى ، مع الامتيازات الممنوحة للأفراد ، ومجمل الطبقات الاجتماعية والتنظيمات المحلية ، فهو متعارض بالمثل مع الروابط الموروثة للتبعية والتى يؤسس الاطار العام للتنظيم الاجتماعى للمجتمع الاقطاعى ولقد حطم البرجوازيون وأسقطوا النظام الاقطاعى وشيدوا على أنقاضه النظام الرأسمالى للمجتمع ، مملكة المنافسة الحرة والحرية الفردية المساواة أمام القانون لكل أصحاب السلع وكل النعم الاخرى للرأسمالية • من ذلك الحين فصاعدا يمكن لنمط الانتاج الرأسمالى أن يتطور بحرية طالما أن البخار ، الآلية ، وصناعة الآلات آليا حولت الانتاج القديم الى صناعة حديثة تطورت

القوى الانتاجية التى تدار بقيادة البرجوازية بسرعة ومعدل لم يذكر من قبل • ولكن تماما كما آن الانتاج القديم فى عصره والحرف اليدوية ، آصبحت أكثر تطورا فى ظل تأثيرها ، ووصلت الى التصادم مع القيود الاقطاعية لطوائفها، فالآن ، الصناعة الحديثة بتطورها التام وصلت الى تصادم مع الحدود التى يقيد نمط الانتاج الراسمالى نفسه داخلها •

ولقد تنامت القوى الانتاجية الجديدة بحيث لم تعد تسمح باستخدام النمط الرأسمالى لها • وهذا الصراع بين القوى الانتاجية وأنماط الانتاج هى صراع يحدث فى عقل الانسان مثل ذلك الصراع بين الخطيئة الأصلية والعدل الالهى • بل يوجد هذا الصراع فى الواقع موضوعيا ، خارج ذواتنا وتستقل عن الارادة وعمل حتى آولئك الذين حدثوه ليست الاشتراكية الحديثة شيئا سوى انعكاس فى التفكير لهذا الصراع فى الواقع ، وانعكاسه النموذجى فى الأذهان آولا فى ذهن الطبقة التى تعانى مباشرة فى ظله ، الطبقة العاملة ••

طالما أن نمط الانتاج الرأسمالىيحول أكثر فأكثر الغالبية العظمى من البشر الى بروليتاريين ، فهو بذلك يخلق القوى التى تحت لواء القصاص لدمارها تكون مجبرة على القيام بالثورة طالما أنه يجبر أكثر فأكثر تحويل مجمل وسائل الانتاج ، ويؤممها تماما تصبح ملكية دولة لتعلن ذاتها أنها الطريق لتحقيق الثورة يتسلم البروليتاريون ويقبضون على زمام السلطة ويقومون بتحويل وسائل الانتاج الى ملكية دولة •

ولكن ، بقيامها بذلك ، تلغى ذاتها بوصفها طبقة بروليتارية ، وتلغى كل التحديدات الطبقية والعداوات الطبقية ، وتلغى الدولة بوصفها دولة • لان المجتمع القائم

على التناقضات والعداء الطبقى كان يحتاج للدولة فالدولة ، مجرد تنظيم لطبقة معينة كانت مؤقتا الطبقة المستغلة ، تنظيم بغرض الاحتفاظ قهرا بالطبقات المستغلة تحت وطأة ظروف القهر تبعا لانماط انتاج معينة (العبودية ، القنانة ، العمل المأجور) وتعـد الدولة التمثيل الرسـمى للمجتمع ككل ، تجميعه معا فى تجسيد مرئى • ولكنها تظل هكذا فقط بقدر ماتكون دولة تلك الطبقة التى تمثلها بذاتها ، وتكون فى نفس الوقت ، المجتمع فى مجمله : فى العصور القـديمة ، دولة المواطنين الذين يمتلكون العبيد ، فى العصور الوسطى ، الأمراء الاقطاعيين وفى عصرنا البرجوازيين وعندما تصبح الدولة فى نهاية المطاف التمثيل الحقيقى لكل المجتمع تجعل من ذاتها غير ضرورية •وبمجرد ألا توجد أية طبقة اجتماعية كى يتم اخضاعها ، وبمجـرد آن حـكم الطبقة ، والصراع الفردى من أجل الوجود المبنى على فوضوية الانتاج الحالية ، مع التصادم والتجاوزات المنبثقة عن هذا الوضع ، بمجرد أن يزال هذا ، فلايبقى أى شىء كى يقهر ، يصبح الأمر بغير ذى حاجة لقوى قمعية ولاتعد الدولة ذات ضرورة • فالعمل الأول والذى بفضله تقيم الدولة ذاتها الممثل للمجتمع ككل ــ امتلاك وسـائل الانتـاج باسم المجتمع ــ هو ، فى نفس الوقت ، عملها المستقل الأخير بوصفها دولة • ويصبح تدخل الدولة فى العلاقات الاجتماعية ، فى ميدان تلو الآخر ، غير ضرورى وعندئذ يتخلى عنها ، ويحل محل حكم الأشخاص ادارة الأشـياء ، وبسـلوك عملية الانتـاج لم «تلغ» الدولة بل تلاشت •

قراءة رقم (٨)

كارل كاوتسكى : تأثير نمط الانتاج*

«يدافع كاوتسكى هنا عن المادية التاريخية موضحا افتراضاتها الأساسية خصوصا مقولة أن نمط الانتاج ــ البناء التحتى Sul structure يحدد فى النهاية أو «فى التحليل الأخير» أيديولوجية المجتمع ــ البناء الفوقى «superstructure»

● فى حنايا أفكار أى جيل معين ينبغى التمييز بين الأفكار القديمة التى توارثها عن أسلافه وبين تلك الجديدة التى ولدت على يديه · وليس ضروريا أن تنعطف الأفكار الجديدة بعيدا عن تلك القديمة · بل بامكانها التكيف مع الأفكار الجديدة واثراء الحياة الروحية · وليس كل مافكر فيه الأجداد وعرفوه نعتبره خطأ · حيث يبقى كثير من الأفكار القديمة خصبا معافا · لكن فقط تلك التى تكون متسقة على الأقل ولمدى معين مع الأوضاع الجديدة · أما تلك التى تتعارض مع الواقع الجديد فلن يكون بمقدورها اطلاقا أن تحتفظ بذاتها لتبقى ، ولسوف يتخلى عنها صراحة أو فى الواقع الفعلى المعاش وهذا مايدفع للقول ، بأنها ستفتقد لممارسة أى تأثير عملى على سلوك الانسان ، ولذا لن يقتضى الأمر اعلان انكارها رسميا ·

(*) النص مجزأ من تاريخ المادية طبعة برلين ١٩٢٧ م· مج ١ ص ٨١٨ ــ ٨١٩ و ص ٨٣٠ ــ ٨٣٦ ·

ويعد انبثاق أفكار جديدة فى ظل ظروف مادية جديدة، والصراع ضد الأفكار القديمة التى أظهرت عدم اتساقها مع الظروف الجديدة ، وتلاشيها النهائى ـ يعد ذلك مضمون الصراع الروحى لكل جيل ، والذى يظهر فيه تقنية جديدة أو اقتصاد جديد · وتستمد هذه الحركة دافعها من الاقتصاد ويقتصر عليه وحده · وتلحق به الايديولوجية بعد بعض التوانى ·

لكن ، كى نفهم الأفكار التى توارثها جيل معين من عصر سابق ، لاينبغى فقط استقصاؤها وبحثها بل ينبغى بحث وتناول الحقبة السابقة ·

ينبغى تحديد الجديد من القديم فى مجال الأفكار وسوف نجد على الأكثر آن جزء منها فقط كان بمثابة تطور جديد · وهذا الجزء فقط يمكن تفسيره فى حدود العلاقات الاقتصادية للعصر · ومن اجل تفسير باقى الأفكار الاخرى ينبغى الرجوع بعيدا نحو أغوار الماضى · وبنفس الطريقة ، كى نتفهم الايديولوجية الشاملة لعصرنا ، ينبغى العودة للمراحل التاريخية السابقة · وبامكاننا بتلك الطريقة فقط النجاح فى الكشف عن أحوالها الاقتصادية · ولكن سنجد دوما لو تعمقنا فى البحث ، أن كل الأفكار ذات جذور فى العلاقات الاقتصادية ·

وهنا ، يكمن معنى الاستعارة البلاغية فى تعبير البناء التحتى sul structure والبناء الفوقى superstructure والعلاقة بين كلا البنائين ليست بسيطة كما يبدو للنظرة الأولى ·

دعنا نتناول المسيحية كنموذج ايضاحى للمقولة السابقة فمازالت المسيحية ذات دلالة كبيرة ضمن الأفكار التى تقرر

وتحدد الحياة الروحية لعصرنا ·· ورغم ذلك سيكون من غير المجدى تماما محاولة اشتقاق أفكار المسيحية من الأوضاع الاقتصادية الراهنة · فلو أردنا تفهم المسيحية ينبغى الرجوع للوراء للعصر الذى ظهرت فيه فى تاريخ العالم باعتبارها ظاهرة جديدة · ينبغى البحث عن أصولها ابان القرون الأولى لتاريخنا عندما انهارت الديمقراطية القديمة وظهرت أقوى القيصريات · والبحث عن العلاقات الاقتصادية للعصر ونتائجها ، وعملية افقار الجماهير ، لتركيز الثروة فى أيدى الأقلية ، تناقص عدد السكان ، قيام الحرب الأهلية المتصلة بين أصحاب السلطة الذين بفضل تراكمات أسلابهم وغنائمهم أمكنهم تدعيم جيوش ضخمة ، توقف كل الانشطة السياسية بين الجماهير ، ونظرا لكون الجماهير الفقيرة أصبحت مشوهة بالفساد وأمكن شراؤها بينما اغرق الأثرياء أنفسهم فى المباذل والملذات ـ كان ذلك هو الأساس الواقعى الذى انبثقت منه المسيحية وهو مايجعل تفسيرها أمرا ممكن التحقيق ··

لكن ،مايميز المسيحية بشكل تام ويعدأمرا جديداوخاصا بها هو النزعة نحو السلام ، احتقار العالم الدنيوى ازدراء الحياة الدنيا ، فقدان المرء لثقته بنفسه ومحيطه الخاص ··· الخ ···

بالاضافة لهذه الملامح تتضمن المسيحية آفكارا أخرى عديدة ، لم تقدمها هى باعتبارها أفكارا جديدة ، بل وجدت مهيمنة ولزمن طويل ، ثم تناولتها المسيحية والتقطتها من واقع الحياة التى انبثقت فى اطارها ·

لقد رأينا أن المرحلة التى تتحدد فيها العناصر الجديدة والقديمة مع الأيديولوجية السياسية ، الفلسفية ، الدينية ،

والفنية للطبقة أو للحزب فى حقبة تاريخية معينة ، يمكن أن تختلف كثيرا تبعا لاختلاف البيئات ٠

لايمكن بناء أى أيديولوجيةحتى أكثرها جذرية وثورية، فقط بالاعتماد على العناصر الجديدة ٠ ذلك لان من المستحيل تماما لأى شخص أن يواصل سيره على أكتاف أجداده بعد أن تعـلم منهم ، وغالبا ، بل ومن المحـزن أن يقـول ، ليس كافيا ٠٠٠

وان تاريخ أفكار المرحلة المكتوب من وجهة نظر المفهوم المادى للتاريخ ، ينبغى ألا يقصر نفسه على ادخال هذه الأفكار فى علاقة ولتصبح عـلاقات اقتصـادية معينة ٠ ولن ينجح المفهوم المادى للتاريخ فى تفسـير مجمل الحيـاة الروحيـة والثقافية للعصر فى حدود اقتصاد المرحلة ٠

كما أعلن انجلز مكررا أن العـلاقات الاقتصـادية هى العامل الحاسم فى تاريخ العالم عنـد التحليل النهائى فقط ٠٠٠ هذا صحيح ولكن ينبغى أن يضاف اليه ادراك ضرورة التمييز والتفرقة بين ماهو مكتسب وموروث من الأسـلاف وماهو منتج حـديثا ضمن شرائع ، وأشـكال القـانون ، والنظريات ٠٠ الخ لمرحلة معينة فى التاريخ ٠

الأفكار الجديدة فقط هى التى ترتكز على الظـروف الاقتصادية الراهنة للعصر ٠ ومن جـانب آخـر لاتنتمى الأشـكال الثقافية التقليدية الى النتـائج ، ولا الى البنـاء الفوقى ، بل تنتمى الى الأوضاع ذاتهـا ، الى البناء التحتى للاقتصاد الجديد تماما كما تنتمى الأشكال الجـديدة للوعى والتى تنسجم وتتوافق مع هذا الاقتصاد ٠٠ دعنا ألا ننسى : أن تعتبر فقطفى التحليل النهائىمجمل المركب الايديولوجى، السـياسى ، التشريعى ، تعتبره بنـاء فوقيا فوق الأسـاس

الاقتصادى • وليس ذلك ملزما بالنسبة لأية ظاهرة فردية فى التاريخ ، سواء كانت اقتصادية ، أيديولوجية ، أو من أى نوع آخر • فهى تعمل وتؤدى دورها فى بعض الأحيان باعتبارها بناء تحتيا ، وفى البعض الآخر باعتبارها بناء فوقيا •

يعد الافتراض الماركسى حول العلاقة بين البناء التحتى والبناء الفوقى صحيحا بشكل غير مشروط فقط بالنسبة للظواهر الجديدة فعلا فى التاريخ •

قراءة رقم (٩)

جورج بليخانوف : الفرد فى التاريخ

«يكمن هنا دفاع بليخانوف المحنك والارثوذكس أيضا عن التفسير الواحدى للتاريخ monistic والذى يقرر فيه نمط الانتاج الاقتصادى التاريخ فى النهاية وليس الفرد بصرف النظر عن مدى تميزه وتفوقه • وبهذا الخصوص ينبغى الرجوع لمناقشة الفصل الخاص بكاوتسكى فى المجلد الثانى من عمله «التفسير المادى للتاريخ «(١)» ، ومناقشة تاروتسكى فى «تاريخه للثورة الروسية» (المنشور عام ١٩٣٢ م •) فى مجلده الأول • وأيضا الرجوع للفصل الخامس من كتابى (هوك) «البطل فى التاريخ : دراسة فى الحدود والامكانيات» ، وذلك للنقد» •

● اعتقد سانت بوف saint-Beuve أن هناك مايكفى من الأسباب الثانوية والخفية من النوع الذى ذكره ، لجعل محصلة الثورة الفرنسية نقيضا لما قد عرف أنها ستنتهى اليه • ويعد هذا خطأ جسيما • وبصرف النظر عن كيف تختلط العوامل وتتداخل الأسباب السيكولوجية والفسيولوجية الثانوية بشكل معقد يند عن التحليل ، فلن يمكنها فى ظل أى

---

(١) جورجى بليخانوف ـ دور الفرد فى التاريخ (١٨٩٨) الترجمة الانجليزية (دار نشر اللغات الأجنبية : موسكو ١٩٤٤م •) ص ٣٧ ـ ٤١ •

ظروف أن تمحو او تتجاهل الحاجات الاجتماعية الجسيمة التى أدت لحدوث الثورة الفرنسية وكلما ظلت هذه الحاجات بدون اشباع كلما استمرت الحركة الثورية فى فرنسا • ولكى تجعل محصلة هذه الحركة عكس ما قد كان ، ينبغى أن تكون الحاجات التى أدت لحدوثها عكس ماقد كانت عليه ، وهذا بالطبع مالايمكن حدوثه اطلاقا ، تحت أية مجموعة من الأسباب الثانوية •

تعتمد أسباب الثورة الفرنسية على طابع العلاقات الانتاجية ، آما الأسباب الثانوية التى افترضها سانت بوف يمكن أن تعتمد فقط على الصفات الشخصية للأفراد • والسبب النهائى للعلاقة الاجتماعية يعتمد على وضعية القوى الاجتماعية •

ويعتمد ذلك على صفات الأفراد ، ربما فقط ، بمعنى أن هؤلاء الأفراد يمتلكون موهبة عالية أو أدنى للقيام بعمل تحسينات فنية (تقنية) أو اكتشافات واختراعات ، ولم يضع سانت بوف هذه الخصائص فى اعتباره • حتى الخصائص الأخرى أيا كانت لاتمكن الأفراد من التأثير مباشرة فى حالة القوى الانتاجية ، وبالتالى ، على العلاقات الاجتماعية التى يقررها ، مثال ، العلاقات الاقتصادية المعينة للقوى الانتاجية • ولكن الخصائص الشخصية للأفراد تجعلها أكثر أو أقل ملاءمة لاشباع تلك الحاجات الاجتماعية التى تنشأ من العلاقات الاقتصادية المعينة ، أو تمنع وتحول دون ذلك الاشباع • فلقد كانت الحاجة الاجتماعية الملحة لفرنسا فى نهاية القرن الثامن عشر هى استبدال المؤسسات السياسية القديمة بأخرى جديدة يمكن أن تتطابق أكثر مع نظامها الاقتصادى القائم • وأكثر الشخصيات العامة لذلك العصر نفعا وتميزا هى التى كانت أقدر من غيرها على المساعدة فى

اشـباع هذه الحـاجة الملحة • ولسـوف نفترض أن ميرابيو Mirabeau روبسبير Robespierre ونابليون Napoleon كانوا رجالا من هذا الطـراز • فما الذى قد حـدث ليعجل بموت موارببيو وليس ابعاده عن المسرح السـياسى ؟ ولقد حافظ الحزب الدستورى الملكى على سلطته الملحوظة لوقت طويل ، ولذا ستكون مقاومته للجمهوريين أكثر فعالية • ولكن فوق ذلك ، فلا ميرابيو كان بامكانه فى ذلك الوقت تفادى انتصار الجمهوريين • حيث كانت سلطته تسـتند كلية على تعاطف وثقة الشعب ، ولكن الشعب آنذاك كان يريد الجمهورية ، رغم أن الهيئة التشريعية آغضبت الشعب بدفاعها العنيد عن النظام القديم • وطالما أصبح الشعب مقتنعا بأن ميرابيو لم يتعاطف مع نضالاتهم الجمهورية ، توقفوا عن التعاطف معه ، وعنـدئذ سيفقد الداعيـة الكبير كل تأثيره ، وعلى الأرجح سيسقط ضحية للحركة التى حاول عبثا آن يكملها • يمكن أن يقال نفس الشىء تقريبا عن روبسبير • دعنا نفترض أنه كان قوة لا غنى عنها مطلقا فى حزبه ، ولكنه لم يكن فى كل الأحداث القوة الوحيدة • فلو آن سقوطا عرضيا لحجـر قد قتله ، مثلا ، فى يناير ١٧٩٣ م • سوف يحتل موقعه بالطبع، شخص آخر غيره ، ورغم أن هذا الشخص ربما يكن أدنى منه فى جميع الوجـوه ، مع ذلك ، سوف تتخذ الأحـداث نفس المسار كما كانت عندما كان روبسـبير حيـا • وعلى سبيل المثال ، حتى فى ظل هذه الظـروف فمن المحتمل آلا يتجنب الجيروند Gironde الهزيمة ، بل لمن الممكن أن حزب روبسبير قد يفقد السلطة مبكرا لحد ما ، وسوف نتحدث الآن ليس عن رد الفعل الترميدورى Thermidor بل عن الازدهار والانتعاش ورد الفعل الميثادورى Messidor ربمـا يقـول البعض ان روبسبير بارهابه الصارم ، لم يؤخر السقوط المفاجىء لحزبه

بل عجل بوقوعه · لن نتوقف هنا لمناقشة هذا الافتراض ، بل نتقبله كما لو كان صحيح تماما · فى هذه الحالة ينبغى افتراض أن حزب روبسبير لم يسقط فى طور التروميدور بل فى الفريكتودور Fructidor أو فى البرومير Brumaire والفندمير Vendemaire · وباختصار فانه ربما يسقط عاجلا أو آجلا ، ولكن من المؤكد أنه سيسقط وينهار ، لان قسما من الشعب والذى ساند حزب روبسبير ، لم يكن معدا ومهيأ تماما لاستلام السلطة لمدة طويلة · وفى كل الأحداث ، أنه لمن غير الوارد أن تصبح النتائج على النقيض لتلك التى انبثقت من أعمال روبيسبير الفعالة ·

ولايمكن اثارة هذه القضية ، لو افترضنا أن بونابرت قد قتل برصاصة فى معركة أركول Arcol أو أن ماقد قام به فى حملته العسكرية على ايطاليا وحملاته الأخرى قد قام به الجنرالات الآخرون · فمن المحتمل ، أنهم لن يظهروا نفس الموهبة التى أظهرها بونابرت ولن يحققوا مثل تلك الانتصارات التى أحرزها ، ومع ذلك فلقد خرجت الجمهورية الفرنسية منتصرة من الحرب التى خاضتها فى عصرها لان جنودها كانوا الأفضل فى أوروبا بلا منازع · وفيما يتعلق ببرومير الثامن عشر وتأثيره على الحياة الداخلية لفرنسا ، هنا أيضا وفى الأساس ، من المحتمل أن يكون المسار العام ونتائج الأحداث هى ذاتها كما كانت فى ظل نابليون · ولقد جرحت الجمهورية على نحو مميت بأحداث الترميدور التاسع ، وأصبحت تموت ببطء · ولم يكن بامكان القواد احياء النظام الذى خلصت البرجوازية نفسها من حكم الطبقات العليا ، والآن ترغب معظمها · ولكى تحيى وتستعيد النظام فان المطلوب هو «سيف صارم» ، كما عبر عنه سايس sieyes فى البداية كان يعتقد أن الجنرال جوبرت Joubert سيقوم

بهذا الدور الفـاضل ، ولكن عنـدما قتل فى نوفى Novi أصبح يذكر أسماء موريو Moreau وماكدونالد Macdonald وبرنادوت Bernadotte وذكر اسـم بونابرت مؤخرا : واذا ماقتل مثل جوبرت ، لم يعد يذكر على الاطلاق ، بل وشهرت سـيوف أخرى فى المقدمة أنها تذهب بدون قول أن الفرد الذى يرتفع بأعماله لمنزلة الديكتاتور ينبغى أن يتوق دوما لتقوية ذاته ، وبقسوة وصرامة ينحى جانبا كل من يقف فى طريق مطامحه - فلقد كان بونابرت رجلا ذا ارادة حديدية وصارما فى سعيه لهـدفه • ولكن لم يكن بواره قليـل من الذوات الطموحة والموهوبة والفعالة فى تلك الأيام • والموقع الذى نجح بونابرت فى احتلاله من المحتمل ألا يبقى شاغرا بعده • وهنا نفترض أن الجنرال الذى كان يحمى هذا الموقع كان أكثر سلما من نابليون ، أو أن نابليون لم يسـتثير كل أوروبا ضده شخصيا ، ولهذا ، كان قد مـات فى تولوريس Tuileries وليس كما حدث ومات فى جزيرة سانت هيلانه St. Helena فى هذه الحالة لن يرجـع البوريون Bourbons لفرنسا على أية حال ، وبالنسبة لهم ، مثـل هـذه النتيجة ستكون بالتأكيد «نقيضا» لما هو حادث بالفعل • وفى علاقتها بالحياة الداخلية لفرنسا كلها ، أيا كانت ، ستكون هذه النتيجة مختلفة قليلا عن النتيجة الفعلية • وبعد أن يعيد «السيف الصارم» النظام ويعزز سلطة البرجوازية ، سـوف تتبرم البرجوازية حالا من عادات ثكناتها ومن الاستبداد • وستظهر الحركة الليبرالية شبيهة بتلك التى نشأت بعد العودة والاحياء ولسوف يندلع القتال تدريجيا ، ولان «السيوف الصارمة» غير متميزة بطبيعتها المرنة والطيعة ربما يرتقى لويس فيليب Louis Philippe المنتصر عرش خلصائه المحبوبين فى ١٨٢٠ أو فى ١٨٢٥ وليس فى ١٨٣٠ • وربما أن كل هذه التغييرات

فى مسار الأحداث ستؤثر ، ولمدىمعين ، فى النتائج السياسية ومن خلالها فى الحياة الاقتصادية لاوربا · ومع ذلك ، فلن تكون النتيجة النهائية للحركة الثورية «نقيضا» لما قد كان فى ظل أى ظروف · ويمكن للأفـراد المؤثرين من خـلال تمتعهم بصفات خاصة وعقل راجح وشـخصية مؤثرة ، أن يغيروا من السمات الفردية للأحداث وبعض نتائجها الخاصة، لكنهم لن يقدروا على تغيير اتجاهها العام الذى تقرره قوى أخرى ·

قراءة رقم (١٠)

دانيل دى ليون : النقابية الصناعية والجمهورية الاشتراكية *

« هذا هو مفهوم دانيل دى ليون البسيط والمباشر عن الهدف ـ الجمهورية الأمريكية الاشتراكية ـ والوسيلة التى يتحقق بها هذا الهدف» ٠

● الرأسمالية هى التعبير الأخير عن حكم الطبقة ٠ والملكية الخاصة لمتطلبات الانتاج وضرورياته هى الأساس الاقتصادى لحكم الطبقة ٠ والبناء الاجتماعى أو الزى الذى يتخذه حكم الطبقة هو الدولة السياسية ـ ذلك البناء الاجتماعى الذى تعتبر فيه الحكومة أداة منفصلة وبعيدة عن الانتاج ، ليس لها وظيفة حيوية سوى المحافظة على سيادة وهيمنة الطبقة الحاكمة ٠

والتخلص من حكم الطبقة يعنى التخلص من الدولة السياسية واستبدالها بنظام اجتماعى صناعى ، فى ظله تمتلك ضروريات الانتاج ملكية جماعية وتدار بأيدى الشعب ولصالحه ٠

الأهداف تحدد الوسائل ٠ وهدف التطور والارتقاء

(*) نقلا عن الشعب اليومية عدد ٥ يناير ١٩١٣ ، أعيد طبعها بتصريح من أرنولد بيرسون السكرتير القومي لحزب العمل الاشتراكي ٠

الاجتماعى هو الاطاحة النهائية بحكم الطبقة ، وينبغى أن تلائم الوسائل هذا الهدف

كما فى الطبيعة ، حيث تكثر الخداعات والأوهام البصرية يكون التوقف فى طريق التقدم حتى تنقشع ، كذلك فى أمور المجتمع ٠

تثير واقعة الاستبداد الاقتصادى الطبقة الحاكمة ، لدى البعض ، وهم أن التنظيم والنشاط الاقتصادى للطبقة العاملة المقهورة كاف تماما لازالة الأوجاع التى تشكو منها ٠

وحقيقة الاستبداد السياسى للطبقة الحاكمة تثير لدى آخرين ، وهم أن التنظيم السياسى وفاعلية الطبقة العاملة المقهورة هو كاف تماما لتحقيق سبيل الخلاص ٠

النتيجة العرجاء التى تضع فى اعتبارها التنظيم والنشاط الاقتصادى فقط ترتكز فى النهاية وبشكل محتوم على شعارات جوفاء وطنانة وبسيطة كما هوموضح فى الجمعية الاتحادية للعمال رغم اتحاداتها المدنية وميليشياتها Militia المسيحية الفرعية ، وأيضا النقابية (السنديكالية) الفوضوية المسماة L. W. W. بشيكاغو — البانونية Bakouninism (نسبة لبكانونين) باختصار ، تلك التى ناضل ضدها ماركس وحذر منها ٠

والمقولة العرجاء التى تضع فى اعتبارها فقط التنظيم والعمل السياسى ، ترتكز حتما وفى نهاية الأمر على الاقتراع الخالص والبسيط ، كما هو متمثل كثيرا وبشكل مؤسف فى الحزب الاشتراكى — وبالمثل ناضل ضدها ماركس وحذر منها باعتبارها «خرافة برلمانية» ٠

والنقابية الصناعية المتحررة من الخداعات البصرية

تنطلق بوضوح نحو الهدف ـ وهو استبدال الدولة السياسية بالحكومة الصناعية • ووضوح الرؤية يجعل النقابية الصناعية ذات حصانة من تأثير خداع الذات للشعار الفوضوى «لا لأى حكومة» ومن أى تضليل ينبع منه ، ومن «الخرافة البرلمانية» عند السياسيين الذين يتوقعون سن قانون باطاحة حكم الطبقة •

تدرك النقابية الصناعية المبدأ : «لا حكومة ، لاتنظيم لاتنظيم ، لاعمل تعاونى لاعمل تعاونى ، لا وفرة بدون عمل شاق ، من ثم ، لاحرية» ـ اذن ، تهدف النقابية الصناعية لحكومة ديمقراطية مركزية ، مصحوبة ب «حكم ذاتى محلى» ضرورى وأساسى ديمقراطيا •

تدرك النقابية الصناعية مبدأ الدولة السياسية ـ سلطات محلية ومركزية منفصلة عن النشاط الانتاجى ، وتدرك متطلبات حكومة الحرية ـ سلطات ادارية مركزية ومحلية للقدرات الانتاجية للشعب •

تصغى النقابية الصناعية لسماع أمر التطور الاجتماعى كى تصيغ الامة ومعها حكومتها فى قالب مختلف عن القالب الذى يصيغ فيه حكم الطبقة الامة والحكومة القائمة • فبينما يضيع حكم الطبقة الامة ومعها حكومتها فى شكل المقاطعات التابعة ، تصبغ النقابية الصناعية الامة فى شكل امتلاك نافع ومفيد ، وتحول حكومة الامة الى شكل تمثيلى لهذا الوضع • وتبعا لذلك ، تنظم النقابية الصناعية الامتلاك المقيد للأراضى على شكل دوائر انتخابية لمجتمع المستقبل •

النقابية الصناعية ، المنتجة الشرعية للحضارة ، عندما تضطلع بأداء هذه الوظيفة تكون متسلحة بكل خبرة العصر •

بدون الاغراق فى وهم ان تقدمها سيكون «عرضا عسكريا» وبمعرفة وادراك آن برنامجها يقود اتباعها ويوضح لهم أن المرحلة الحرجة لكل عملية تطورية معروفة ومعلومة باعتبارها ثورة ، تتواصل وترتبط النقابية الصناعية مع انجازات الآباء الثوريين للوطن ، أولا لتصيغ القانون الذى ينكر أبدية نظامهم الاجتماعى ، ثم بعد ذلك بتعديلاتها لتجعل الثورة عملا شرعيا • وفيما يتعلق بالانجازات العظيمة للثورة الأمريكية ، تدرك تماما آن الثورة العظيمة باعتبارها معنية بالجموع من الشعب وتحتاج لهذه الجموع من الجماهير فى انجازها وتحقيقها ، وبذلك تمنع وتحول دون الفكرة المكشوفة للتآمر ، وتقود بشكل ملزم هيئة عليا عامة للانشطة التحريضية ، التعليمية ، التنظيمية ، وآخيرا ، تنير لها طريقها عقيدة ماركس بأن النقابة الأصيلة والحقيقية ولاشىء سواها هى التى ستقيم وتؤسس الحزب السياسى الحقيقى للعمال ، ـ تبذل النقابية الصناعية قصارى جهدها لتوحيد الطبقة العاملة على الصعيد السياسى وبالمثل على الصعيد الصناعى ، ـ على الصعيد الصناعى لانه بدون وجود النقابة الموحدة التنظيم للطبقة العاملة ، يصبح العمل الثورى مستحيلا ، وعلى الصعيد السياسى ، لانه لايمكن المناداة بالغرض الثورى بدون الوعى الذى تصبح النقابة بدونه مجرد كتلة من الرمال •

وتتسم النقابية الصناعية بسمات وآهمية الجمهورية الاشتراكية فى طور التشكيل ، وبمجرد بلوغ الهدف ، تصبح النقابية الصناعية هى الجمهورية الاشتراكية فى عملها وفاعليتها •

تبعا لذلك ، تصبح النقابية الصناعية هى الآلة التى يتم بها دك وتحطيم حصون الرأسمالية ، بل ووارثى البناء الاجتماعى الرأسمالى ذاته ٠

ويورد دى ليون فقرة رئيسية فى كتابه «المسألة المثارة» حول النقابات العمالية والمنشور (١٩٣٠) ٠

لن يواجه المجتمع المتحضر شيئا أكثر سخفا وهزلا من الدوائر الجغرافية الانتخابية Costituencies أنه يعرف فقط الدوائر الصناعية ٠ وسيتكون برلمان الحضارة فى أمريكا ليس من رجال الكونجرس القادمين من مناطق جغرافية ، بل سيتكون من ممثلى الحرف والصناعات لكل أنحاء البلاد ، ولم يكن عملهم التشريعى من النوع المعقد الذى يتطلبه مجتمع المصالح المتصارعة كالمجتمع الرأسمالى ، بل سيكون من النوع الطبيعى السلس الذى يمكن تلخيصه فى احصائيات للثروة المطلوبة ، والممكن انتاجها ، والتى يتطلبها العمل — والذى يمكن لأية مجموعة عادية من ممثلى العمال التحقق منها تماما وبدقة أفضل من خطبائنا المعاصرين فى الكونجرس ٠

قراءة رقم (١١)

ادوارد برنشتاين

المثل والوقائع والتجربة الاشتراكية *

«هــذا نص نمــوذجى من كلاســيكيات المعنى الشائع للاصلاحية الاشتراكية والذى أثار حملة مضادة عنيفة دفاعا عن الايمان الارثوذكسى على صعيد الحــركة الماركســية • اقتبس هذا النص من الفصل الختامى لكتاب ادواردبرنشتاين والذى يعد فاتحة حقبة جديدة «الاشتراكية التطورية» والذى أمد الحركة التصحيحية (التحــريفية) بالتعبيرات والدوافع الاضافية ، فى ألمانيا وفى كل مكان حيث وجدت» •

● تعد التقاليد ظاهرة واســعة الانتشــار تخضــع لها الأحزاب الآداب ، والاتجاهات الفكرية حتى العلوم تتخللها التقاليد بعمق ، ولن يمكن اجتثاثها تماما من جــذورها • وينبغى أن تمضى فترة زمنية معينة قبل أن يدرك البشر عدم اتساق التقاليد مع الأوضاع القائمة وحتى يضع تلك التقاليد على الرف • حتى يحدث ذلك تقوم التقــاليد عــادة بتكوين وسائل الربط بين أولئك الذين لاتستطيع أى مصالح قوية دائمة وفعالة أن تربطهم بعضهم ببعض ولا حتى أى ضغط

(*) عن كتاب ادوارد برنشتاين (الاشتراكية التطورية) الترجمة الانجليزية نيويورك ١٩٠٩ ص ٢٠٠ ـ ٢٠٥ •

خارجى أن يجمعهم سويا • لذا يتأتى تفضيل كل رجال الأحداث المؤثرين مهما كانوا ثوريين فى آهدافهم ، تفضيلهم الداخلى للتقاليد • «لاتراهن آبدا على الجياد التى تمضى عكس التيار» هذا الشعار اللنكولنى Lincaln القديم ترسخ فى نفس التفكير فى صيغة التحريم اللاسالى Lassalle المعروف ضد «الروح الجامحة لليبرالية ، وتذمر الفرد المتفتح ورغبته فى معرفة أفضل» • فبينما تعد التقاليد محافظة ، يعتبر النقد فى غالبه ودائما هداما ، حتى عندما تبرره وقائع ، يمكن أن يعد أمرا مذموما ، لذا ينبغى شجبه •

ولكى ندرك ذلك ، ليس بطبيعة الحال بأن ننادى بتقديس التقاليد وبمنع النقد • فالأحزاب لاتكون دائما فى خضم التيار عندما تتجه الأنظار لمهمة واحدة فقط •

وماينبغى الاحتفاظ به متطورا ومجددا بالنسبة للحزب، هو كون النقد أمرا لازما وضروريا وأن التقاليد يمكن أن تصبح عبئا ثقيلا وقيدا معوقا •

لكن يفسح البشر مكانا فى حالات قليلة لأهمية التغيرات التى تحدث فى فرضياتهم التقليدية • وهم يفضلون عادة أن يضعوا فى اعتبارهم فقط تلك التغيرات باعتبارها متعلقة بالوقائع الصلبة والتى لايمكن انكارها وآن يجعلوها منسجمة بقدر الامكان مع طبيعتهم التقليدية • ويسمى المنهج هنا مخادعة ، والتبرير والتفسير له يسمى نفاقا ورياء •

الرياء Cant الكلمة انجليزية ، وقيلت واستخدمت لأول مرة فى القرن السادس عشر كوصف لترنيمة الورع والطهارة للبيورتانيين Puritaus (١) • وفى آكثر معانيها

---

(١) البيورتان طائفة مسيحية بروتستانتية ظهرت فى انجلترا ونيوزلنده فى القرن

المألوفة تشير الى أسلوب غير حقيقى فى الحديث ، وتقليد أعمى ، أو تستخدم بوعى عدم صدقها لتحقيق أى نوع من الأغراض ، سواء كان فى الدين ، والسياسة أو متعلقا بالنظرية أو الواقع • بعد الرياء بهذا المعنى الواسع قديما جدا •••

كل أمة ، وكل طبقة وكل مجموعة توحدها نظرية أو مصالح لها رياؤها ونفاقها الخاص •وقد أصبحت جزئيا نوعا من العادة والتقليد فقط ، فى صورة خالصة ، بحيث لم يعد أحد يخدع ويضلل بحماقتها ، وينبغى اطلاق المعركة ضدها دواليك • ولكن لايمكن تطبيق ذلك على الرياء الذى يظهر فى شكل علم والرياء الذى أصبح حجة ونداء للمعركة السياسية •

افتراضى وهو «بالنسبة لى فما يسمى عموما الهدف النهائى للاشتراكية لا يعد شيئا لكن الحركة هى كل شىء» ، قد صور غالبا وكأنه رفض وإنكار لكل هدف محدد للحركة الاشتراكية •••

منذ ثمانية أعوام مضت عندما راجعت كتاب Schulze-Gavernitz عبرت عن الاقتناع بأن مع استمرارية التطور الحر ، ستضاعف الطبقات العاملة الانجليزية من مطالبها ، ولكنها لن ترغب فى أى شىء لايمكن أن يظهر فى كل وقت كونها ضرورية وممكن تحقيقها بلا أى شك • ولا يوجد أى شىء فى القاع خلاف ما أقوله اليوم •••

ليس بامكان أى اشتراكى أن يحلم اليوم بنصر وشيك للاشتراكية فى انجلترا من خلال وسائل الثورة العنيفة ـ

= السادس عشر • تدعو الى التزام الطهارة والورع والتقوى وتبسيط طقوس العادة والحرص على الفضائل » المترجم » •

لايحلم أحد بفوز فورى بالبرلمان لصالح البروليتاريا الثورية ·
ولكنهم يعولون أكثر فأكثر على العمل فى المجـالس البلدية
والهيئات الأخرى للادارة والحكم الذاتى · وتم الاقلاع عن
الاحتقار أو الازدراء الذى كانت تتعرض له الحركة النقابية
العمالية ، وتم كسب تعاطف وتقارب أكثر لصالحها ، هنـا
وفى أى مكان آخر ، وأيضا لصالح الحركة التعاونية ·

وماذا عن الهدف النهائى ؟ حسنا ، انه يبقى تماما هدف
نهائى · «ليس للطبقات العاملة أى يوتوبيات (طوبائيات ،
مدن فاضلة) خاصة ومكتملة لتحقيقها من خلال اقتراع الأمة ·
وتعلم أنه لكى تنجزعملية تحررها ــ ولتحقق معها ذلك الشكل
الأعلى والأرقى للحياة والذى يحول دونه الشكل القائم للمجتمع
وتطوره الاقتصادى ــ ينبغى على الطبقات العاملة أن تجتاز
وتخوض غمار نضال مديد ، ومسلسلة كاملة من العمليات
التاريخية ، بالطريقة التى يمكن بها تغيير البشر ومحيطهم
الاجتماعى كلية · ليس لديهم أى مثل ليدركوها ، ينبغى
عليهم فقط اطلاق سراح ملامح المجتمع الجديد الذى تطور
كلية فى رحم المجتمع البروجوازى المنهار» هكذا كتب ماركس
فى «الحرب الأهلية فى فرنسا» · أننى أتفكر فى هذا التعبير،
ليس فى كل تفاصيله ، بل فى فكرته الأساسية حول العبارة
التى تدور حول الهدف النهائى · لانه بعد كل ماقاله ماركس
تبقى الحـركة ، سلسلة العمليات كل شىء بينما كل هـدف
محدد مسبقا وفى كل تفاصيله يعد غير أساسى بالنسبة لها ·
فلقد أعلنت تماما أننى سأتخـلى عن طيب خاطر عن صيغة
الجملة التى تدور حول الهدف النهائى بقدر مايسمح التفسير
بأن كل هدف عام للطبقة العاملة يصاغ كمبدأ ينبغى اعلان
عدم جدواه وانه بلا قيمة · ولكن النظريات المسبقة والقبلية
عن اتجاه الحركة والتى تتتجاوز مثل ذلك الهدف العـام ،

والتى تحاول تقرير اتجاه الحركة وطابعها بدون عين يقظة دائما وواعية للوقائع والتجربة ، هذه النظريات المسبقة ينبغى بالضرورة أن تولج فى واحة اليوتوبيات (المدن الفاضلة) ، وفى بعض الأوقات تقف فى الطريق ، وتعوق التقدم النظرى والعملى الحقيقى للحركة ..

قراءة رقم (١٢)

جان جوريس : المثالية والتاريخ *

«هذه هى حجة جوريس النمطية بأن الاقتصـــاد يمكنه تفسير كل شىء عن الانســـان ماعـــدا ماهـــو متميز بتفرده كانسان» .

● الانسانية هى نتاج تطور فسيولوجى طـــويل المدى يسبق تطورها التاريخى . فمندما ظهر الانسان فى سياق هذا التطور الفسيولوجى الممتد من الحيوانات الأدنى، انغرست فى ذهن الانسان الأول ميول ونزعات خاصة .

فما هى هذه الميول والنزعات ؟؟

تبـــدأ بالقـــدرة التى أسميتها الاحســـاسات المنزهة . dis iuterested senstion حيث تصبح الاحساسات الذاتية الخالصة خاضعة تدريجيا للاحساسات الجمالية والمنزهة ففى الدرجات الدنيا لحياة الحيوان تكون حاسة الرؤية والسمع هزيلة التطور أما حاسة الشم والتذوق والقدرة على الادراك جيـــدة التطور ، أى ، أن الأحاسيس التى تنبثق بحضـــور الفريسة والتى تتزامن مع الشهية الفسيولوجية والذاتية . على الجانب الآخر كلما تطورت الحيوانات فيوجد تطور مماثل

(*) نقلا عن « المثالية والتـاريخ » محـاضرة القيت عام ١٨٩٤م أوراق مختارة (باريس ١٩٢٢) ، ص ٣٦٨ ـ ٣٧٠ .

فى احساسات السمع والرؤية • بطبيعة الحال فمن الصحيح تماما ليس فقط الانطباعات عن الفريسة بغرض اقتناصها هى مايصل للحيوان من خلال عيونه ، بل أيضا وفى نفس الوقت تصله انطباعات آخرى لاتستثير شهيته • وبشكل مشابه ، يستقبل الحيوان من خلال أذنيه الأصوات التى تمكنه من النجاح فى اقتفاء أثر الفريسة وتجنب الخطر ، ويصله فى نفس الوقت أنغام هارمونية ليس لها أدنى علاقة بأية شهية للحيوان أو ظروف آمنه • وتتجمع أمام ناظريه صور تتجاوز الحساسية المباشرة للحيوان ، ويخترق سمعه أصوات تفوق احتياجاته المباشرة • بهذه الطريقة يجعل العالم والكون نفسه فى صورة ملبدة فى طبيعةِ الحيوان غير تلك الصورة الخاصة بالصراع من أجل البقاء •••

بالاضافة للميول الأصلية التى يدخلها الحيوان الانسانى فى العملية الطويلة للتطور الاقتصادى ، فلديه القدرة العظمى ، والتى تظهر بين الحيوانات ذاتها ، وهى قدرةادراك ماهو كلى فى أجزائه ، والنوع فى أعضائه ، قدرة التمييز بين الصورة العامة فى الأشياء المتنوعة •••

باختصار ، اتفق مع ماركس على أن كل تطور هو انعكاس للظاهرة الاقتصادية فى المخ ، لكن بشرط آن يقال انه يوجد فى المخ تماما ، القوى الأساسية التى تؤثر فى الحياة الاقتصادية بفضل احساسها الجمالى ، والمشاركة الخيالية والحاجة للفهم المشترك •

المرجو ملاحظة أننى لاأضع القدرات العقلية جنبا الى جنب مع القوى الاقتصادية (كما لو أنهما كليهما قوة خارجية بالنسبة للأخرى) •• لا ، اننى لاأرغب فى تقديمهم ووضعهم في ذلك الوضع المجاور ، لكنني أرى أنه لمن المستحيل ملاحظة

أن الظاهرة الاقتصادية يمكن أن تؤثر فى المخ الانسانى بدون أن تدخل فى عملية القوى الأصلية التى حللتها . وهذا هو السبب لاننى لاأتفق مع ماركس بأن المفاهيم الدينية والسياسية ، والأخلاقية ليست شيئا أكثر من كونها انعكاسا للظاهرة الاقتصادية . فالانسان يستحضر مثل هذا الانصهار والاندماج لما هو انسانى فى نفسه وبيئته الاقتصادية ، ولمن المستحيل فصل الحياة الاقتصادية عن الحياة الاخلاقية . ولكى تخضع واحدة لأخرى فمن الضرورى بداية فصل احداهما عن الأخرى . ولكن هذا الفصل مستحيل . فالمرء لايستطيع تقطيع الانسان الى قسمين أو فصل حياته العضوية عن وعيه أو قدرته على تجزئة الانسانية التاريخية الى قسمين وفصل حياتها الفكرية وقيمها عن حياتها الاقتصادية . هذه هى فرضيتى والتى وجدت تأكيداتها الجزئية فى الفلسفة اليونانية .

قراءة رقم (١٣)

لينين : الدولة والثورة *

«هذه هى بعض الفقرات الأساسية من عمل لينين الذائع الأهمية ، والذى كتبه عشية الانقلاب الشيوعى ضد الحكومة الديمقراطية المؤقتة فى روسيا» .

● الدولة نتاج ومظهر للعداءات الطبقية التى لايمكن تسويتها . يعتمد آين ومتى والى آى مدى لايمكن موضوعيا تسوية الصراعات الطبقية لمجتمع معين . وعكسيا ، يثبت وجود الدولة ويبرهن أن الصراعات الطبقية لايمكن تسويتها .

يعد احلال البروليتاريين محل الدولة الرأسمالية مستحيلا بدون ثورة حادة عنيفة ، بينما الغاء الدولة البروليتارية خلافا لكل الدول الوحيد الممكن من خلال «التلاشى» . .

استثنى ماركس انجلترا (والولايات المتحدة) حيث لايمكن تخيل وبالتالى امكانية وقوع ثورة ولو كانت ثورة شعب بدون الشرط المبدئى لتدمير «الآلة القائمة للدولة» .

الآن فى عام ١٩١٧ م . فى مرحلة الحرب العظمى

(★) فلاديمير ايلتيشى لينين ، الدولة والثورة ، طبعة دار العمل الاشتراكى ، (جلاسجو ١٩١٩) ، ص ١١ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٩٠ .

هذا ماركس تعريف أصبح imperialist الامبريالية الأولى غير صادق ، وانجلترا وآمريكا آكبر وآخر ممثلى «حــرية» العالم الانجلو سكسونى ، بمعنى عـدم وجــود العسـكرية والبيروقراطية بهما ، الآن قد سقطا فى المستنقع الدمــوى القذر للمؤسسات العسـكرية البيروقراطية عبر كل أوروبا يجتاحوا الكل تحت أقدامهم • اليــوم ، فى كل من انجلترا وأمريكا ، فان «الشرط الأولى أية ثورة حقيقية للشعب «هو اســقاط وتحطيم «الآلة التى تعمل فى متنــاول الدولة» • (اكتمل وانجز هذا الشرط فى هذه الأقطار مابين أعــوام ١٩١٤ ـ ١٩١٧ م • ، حتى المستوى الاوروبى الامبريالى عموما) • نحن لسنا يوتوبيين (اصحاب مدن فاضلة) ، لن نستغرق فى أحلام حول كيف نقوم بعمل الأفضل توا وفى الحال بكل تنظيم ، مع الخضوع التام : هذه أحلام فوضوية مبنية على الرغبة فى معرفة مهام ديكتاتورية البروليتاريا •• لا ، نحن نريد الثورة الاشتراكية بطبيعة انسانية كما هى الآن ، والطبيعة الانسانية ذاتها لايمكن آن تؤدى عملها بدون اخضاع ، بدون رقابة ، بدون مديرين وموظفين • لكن هنا ينبغى الخضوع للطليعة المسلحة لكل المســتغلين والطبقات العاملة ••

••• ويتناسى دوما أن تدمير الدولة يتطلب آيضا تدمير الديمقراطية ، لان الغــاء وابطــال الدولة يعنى أيضـــا الديمقراطية والتخلص منها • للوهلة الأولى تبــدو هــذه العبارة غريبة لأبعد حد وغير مفهومة • حقا ، ربما يبــدأ البعض التخوف خشية أننا نتــوقع حلول مثل ذلك النظــام للمجتمع والذى فى ظله لايقوم مبدآ حكم الأغلبية • آليست الديمقراطية تماما هى اقرار وتسليم بهذا المبدآ ؟؟•

لا ، لاتتطابق الديمقراطية مع حكم الأغلبية • لا ، فالديمقراطية دولة حيث تقر خضوع الأغلبية للأقلية ، هى ، تنظيم للاستخدام المنظم للعنف من قبل طبقة ضد آخرى من قطاع من الشعب ضد آخر •

الديمقراطية لأقلية ضيئيلة ، الديمقراطية للأغنياء هذه هى ديمقراطية المجتمع الرأسمالى ••• ديكتاتورية البرولتاريا ••• لايمكن آن تنتج آى امتداد على الأقل للديمقراطية • بل معا مع امتداد وتوسيع هائل للديمقراطية – للمرة الأولى تصبح الديمقراطية للفقراء – ستنتج ديكتاتورية البروليتاريا وتؤدى لسلسلة من القيود على الحريات فى جانب المضطهدين المستغلين ، والرأسماليين • ينبغى أن تسحقهم لكى تحرر الانسانية من عبودية الأجر ، ينبغى تدمير مقاومتهم بالقوة ، ومن الواضح حيث يوجد قمع وكبت يوجد بالضرورة عنف ، ولايمكن أن توجد الحرية والديمقراطية •

قراءة رقم (١٣ أ)

لينين : العمال ، فى اليوم التالى لتقلد الشيوعيين زمام السلطة *

«هذا النص من كتاب الدولة والثورة ، يوضح مفهوم لينين قبيل الثورة حول بعض سمات الفترة الانتقالية للشيوعية خصوصا كما هو مركز وتعنى بال «كيفية» » .

● ... بهذا الخصوص جدير بالذكر الانجازات الخاصة التى حققتها الكوميونة وأكد عليها ماركس : الغاء كل بدلات التمثيل ، وكل المرتبات الخاصة فى حالة المسئولين الرسميين وتخفيض أجور كل رجال الدولة لمستوى أجور العمال . ويتضح هنا أكثر من أى مكان آخر النقلة من الديمقراطية البرجوازية الى الديمقراطية البروليتارية ، من ديمقراطية المضطهدين الى ديمقراطية المضطهدين ، من سيادة وهيمنة «سلطة خاصة» لممارسة قمع طبقة معينة الى هيمنة المقهورين من خلال القوة الكلية لأغلبية الأمة ـ البروليتاريا وصغار الفلاحين وفى هذه النقطة الواضحة جدا يعد صحيحا أنه يقدر أهمية مشكلة الدولة والاهتمام بها ربما تم تجاهل تعاليم ماركس حولها . لقد تم تجاهلها كلية فى العديد من التفاسير

(*) لينين ـ الدولة والثورة ـ السابعة .

الشائعة ليس من «اللائق» التحدث عن تعاليم ماركس كما لو أنها تبسيط ونوع من «السذاجة» من طراز قديم ، تماما كما فعل المسيحيون بمجرد بلوغهم وتحقيقهم للدولة الدينية «وتناسوا» بساطة المسيحية البدائية ، ومعها روحها الديمقراطية الثورية ·

يبدو التخفيض فى مرتبات وأجور أعلى المسئولين الرسميين للدولة ببساطة محض سذاجة ومطلب بدائى للديمقراطية · وأحد «مؤسسى» الانتهازية الجديدة ، والاشتراكى الديمقراطى السابق ، برنشتاين ، مارس مرارا عبقريته فى تكرار واعادة السخرية السوقية الرأسمالية تجاه الديمقراطية «البدائية» ومثل كل الانتهازيين ، ومثل الاتباع الحاليين لكاوتسكى ، فشل تماما أن يفهم أنه قبل كل شيء يصبح التحول والانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية مستحيلا دون «الرجوع» فى الاجراءات الى الديمقراطية «البدائية» كيف يمكننا بطريقة آخرى النجاح فى آداء كل وظائف الدولة من خلال أغلبية الجماهير أو من خلال كل فرد من الشعب ؟ ثم ثانيا ، تناسى برنشتاين آن الديمقراطية ليست نفس الديمقراطية البدائية كما هى موجودة فى عصور ماقبل التاريخ أو ماقبل مرحلة الرأسمالية · فلقد خلقت الحضارة الرأسمالية الصناعية على أوسع مدى فى شكل مصانع ، سكك حديدية مكاتب بريد ، تليفونات ، وما الى ذلك : وعلى هذا الأساس تم تبسيط وتخفيض معظم وظائف الدولة «الدولة القديمة» فى الممارسة الى عمليات بسيطة جدا من قبيل التسجيل والتنظيم والمراجعة · ومن ثم ستصبح فى متناول كل شخص مثقف ، ويصبح بالامكان أداؤها بالنسبة «للعامل المأجور» العادى · وينبغى آن تعرى هذه

البيئة وستجردهم كل سحرهم وفتنتهم السابقة باعتبارها حكومة · ومن كونهم لهذا السبب خدمة مميزة ·

وتعد مراقبة كل الموظفين بلا استثناء من خلال تطبيق المبدأ الغير متحفظ للاختيار والاقالة عند أية لحظة وتقريب الأجور لمستوى «الأجر العادى للعمال» تعد هذه اجراءات ديمقراطية بسيطة «ودليل ذاتى» ، والذى يكمل متسقا مع مصالح العمال مصالح غالبية المزارعين ، وفى نفس الوقت ، يستخدم كقنطرة ويعبر من الرأسمالية الى الاشتراكية · وتشير هذه الانازات الى الدولة ، وبالمثل ، الى عملية اعادة بناء المجتمع سياسيا بشكل خالص ، ولكن بطبيعة الحال ، تكتسب معناها الكامل وأهميتها عندما تكون مصحوبة بعملية «مصادرة أولئك المستغلين» أو على الأقل بالخطوات التمهيدية لها ، بالطريق والمرور من الملكية الرأسمالية الخاصة لوسائل الانتاج الى الملكية الجماعية ·

كتب ماركس : أدركت الكوميونة أن مثال كل الثورات البرجوازية هو تقليل وتقليص سلطة الحكومة بالغاء أضخم عاملين للنفوذ ـ الجيش ، البيروقراطية ·

من طبقة المزارعين ، كما هو من القطاعات الأخرى للطبقة الوسطى الدنيا ، ترتفع للقمة أقلية ضئيلة فقط ، و «تدخل المجتمع» لتؤدى مهمة بمعنى برجوازى وهى لتنتقل اما لكونها أعضاء ملاك من الطبقة الوسطى العليا ، أو لكونها موظفين رسميين مقدسين ومتميزين · الغالبية العظمى من الفلاحين المزارعين فى كل البلدان الرأسمالية حيث توجد طبقة الفلاحين (وغالبية البلدان الرأسمالية من هذا النوع)

تكن مضطهدة ومقهورة بفعل الحكومة وحتى سقوطها ، تحيا بأمل « تقليص » الحكومة ويمكـن تحقيق هذا الأمـل فقط بأيـدى الدولتيـاريا ، وبحقيقـة أن ادراك ذلك ، تقـوم البرولتياريا بقطع خطوات نحو عملية اعادة البناء الاشتراكى للمجتمع فى نفس الوقت للدولة ٠

قراءة رقم (١٤)

لينين : المنظمة الشيوعية والاستراتيجية *

«فيما يلى الشروط» الاحدى والعشرون «المشهورة والتى وضعت كاطار لكل الاحزاب الشيوعية عبر العالم ، بعد قيام الدولية الشيوعية بعام ، واصبحت بعد ذلك ملزمة بصرامة · ولمزيد من التفسير والشرح المنظم لتفاصيل الاستراتيجية والتكتيك الشيوعى يرجع لكتاب سلزنيك Selznick السلاح التنظيمى (نيويورك ١٩٥٢ م ·) » ·

● أرسى المؤتمر الثانى الدولية الشيوعية شروطا للالتحاق بها كما يلى :

١ ـ ينبغى أن تحمل الدعاية العامة والتحريض طابعا شيوعيا حقيقيا ، ويجب أن تتوافق مع برنامج وقرارات الدولية الثالثة · وينبغى تحرير مجمل مطبوعات الحزب بأقلام شيوعيين موثوق بهم أثبتوا ولاءهم للثورة البروليتارية · وينبغى عدم التحدث عن ديكتاتورية الدوليتاريا بيتبسيط كصيغة مبتذلة متداولة ، بل ينبغى الدفاع عنها بالطريقة التى تكون ضرورتها ظاهرة لكل نوعية من الرجال والنساء العاملين ، ولكل جندى وفلاح ، وينبغى أن تنبثق من الواقع اليومى · وينبغى أن تسجلها بانتظام مطبوعاتنا يوما بيوم ·

كل المجلات الدورية والمطبوعات الأخرى مثل مطبوعات

ومنشورات الحزب هى موضع رقابة اللجنة التنفيذية الدائمة للحزب ، بصرف النظر عما اذا كان الحزب شرعيا أم غير شرعى • وينبغى الا يسمح بأية حال للناشرين باساءة استخدام استقلالهم الذاتى وتنفيذ سياسة ليست متسقة تماما مع سياسة الحزب • حيث يكون لاتباع الدولية الثالثة أى منفذ ، وآيا كانت وسائل الدعاية التى فى متناولهم ، سواء كانت أعمدة الصحف ، الاجتماعات الجماهيرية ، اتحادات العمال ونقاباتهم والتعاونيات فمن الضرورى واللازم لهم شجب وادانة البرجوازيين ومعاونيهم وعملائهم ــ الاصلاحيين من كل لون •

٢ ــ ينبغى على كل منظمة ترغب فى الانضمام للدولية الشيوعية أن تلتزم بانتظام بتنحية وابعاد كل الاصلاحيين واتباع النهج « الوسط » عن كل المواقع المسئولة فى الحركة العمالية (منظمة جزبية ، الصحافة ، نقابات العمال ، المجموعات البرلمانية ، التعاونيات ، المحليات ، الخ) • واحلال الشيوعيين بدلا منهم حتى لو على حساب احلال الانتهازيين عند التجربة الأولى بدلا منهم •

٣ ــ يدخل الصراع الطبقى فى معظم بلدان أوربا وامريكا مرحلة الحرب المدنية • وفى ظل هذه الظروف ليس باستطاعة الشيوعيين الثقة فى القوانين البرجوازية • يجب عليهم أن يخلقوا أدوات موازية غير شرعية فى كل مكان ، والتى ينبغى عند اللحظة الحاسمة أن تكون ذات عون للحزب كى يقوم بواجبه نحو الثورة • وفى كل قطر حيث تبعا للقوانين العرفية أو القوانين الاستثنائية الأخرى لم يكن باستطاعة الشيوعيين القيام بعملهم شرعيا ، يكون الترابط والدمج بين العمل الشرعى والعمل اللاشرعى امرا ضروريا على الاطلاق •

٤ ــ الدعاية الدؤوبة المنظمة والتحريض ينبغى القيام بهـــا في صـــفوف الجيش ، حيث يجب تكوين المجمـــوعات الشيوعية فى كل تنظيم عسكرى • وحينما يكون التحريض مستحيلا تبعا للقوانين القمعية ، ينبغى القيام بهذا التحريض بشكل غير شرعى • ولكن رفض القيام به او المشاركة فى هذا العمل يجب اعتبـــارها مســـاوية لخيانة الثورة ، وغير منسقة مع الانتساب للدولية الثالثة •

٥ ــ الدعـــاية المنظمة والمنتظمة ضرورية فى الاحيـــاء السكنية (الريفية) • فلن يمكن للطبقة العاملة احراز أى نصر بدون حصـــولها على تأييد وتعـــاطف العمال الريفيين والمزارعين الفقراء على الأقل ، مالم يتم توظيف القطاعات الأخرى من الشعب والاستفادة بها • يكتسب العمل الشيوعى فى الاحياء الشعبية أهمية فائقة ابان الفترة الحالية • وينبغى تنفيذة من خلال العمال الشيوعيين من المدينة والريف الذين لهم ارتباطات بتلك الاحياء الشعبية • ورفض القيام بهذا العمل ، أو تحويله لعمل نصف اصلاحى غير موثوق به ، يعد مساويا لانكار الثورة البرولتارية والارتداد عنها •

٦ ــينبغى على كل حزب يرغب فى الانضواء تحت لواء الدولية الثالثة ادانة واستنكار ليس فقط الاشتراكية الوطنية المعلنة ، بل أيضا زيف ونفاق الاشتراكية السلمية (السلام الاجتماعى) Social Pacifism : ينبغى أن يوضح بشكل منظم للعمال أنه بدون الاطاحة الثورية بالرأسمالية ليس بامكان لا التحكيم الدولى ولا محـــادثات نزع الســـلاح ولا المنظمات الديمقراطية لهيئة الآمم آن تنقذ البشرية من حروب امبريالية جديدة •

٧ ــ ينبغى على الأحزاب التى ترغب فى الانضمام للدولية

الشيوعية ادراك ضرورة الانفصال التام والمطلق عن النزعة الاصلاحية وسياسة المعتدلين ، وينبغى الدفاع عن هذا الانفصال وسط الدائرة الواسعة لأعضاء الحزب ، بدون ذلك الشرط تصبح السياسة الشيوعية المتماسكة والمنسقة شيئا مستحيلا . وتتطلب الشيوعية الدولية تحقيق هذا الانقطاع والانفصال النهائى وبلا شرط بأقل تأخير ممكن ...

٨ ـ فيما يتعلق بمسألة المستعمرات والأمم المضطهدة ، من الضرورى اعلان خط واضح ومحدد لسلوك أحزاب الدول التى لها مستعمرات تحت قبضة البرجوازية أو تحت نير قهرها . ينبغى على كل حزب يرغب فى الانضمام للدولية الثالثة استنكار بلا تحفظ كل وسائل الامبريالية فى المستعمرات ، وتأييد ودعم حركة التحرر فى المستعمرات ليس بالكلمات بل عمليا . ويقتضى ذلك طرد مستعمرة من هذه المستعمرات وزرع وغرس اتجاه ونزعة حقيقية بين عمال بلده وعمال هذه المستعمرات والشعوب المقهورة ، وتنفيذ تحريض منظم فى جيوش بلده ضد كل لون القهر لشعوب المستعمرات .

٩ ـ ينبغى على كل حزب يرغب فى الانضمام للدولية الشيوعية القيام بعمل شيوعى منظم متماسك ومنسق فى نقابات العمال والتعاونيات وباقى المنظمات الجماهيرية . ومن الضرورى تكوين الخلايا الشيوعية داخل هذه المنظمات ، حيث بالعمل الدؤوب والمتماسك يجب أن تكسب النقابات العمالية لصف الشيوعية . ينبغى على هذه الخلايا باستمرار استنكار وادانة غدر الاشتراكيين الوطنيين وتقلبات «المعتدلين» . وينبغى على هذه الخلايا الشيوعية أن تكون تابعة تماما للحزب بوجه عام .

١٠ ـ أى حزب ينتمى للدولية الشيوعية ملزم بالقيام بنضال صارم ضد «دولية» امستردام Amsterdam لنقابات العمال الأمريكية (الصفراء) وينبغى عليه القيام بدعاية منظمة وسط العمال المنظمين بضرورة مقاطعة دولية امستردام الصفراء وينبغى عليه التأييد بكل الطرق وبكل قوته للاتحاد الدولى لنقابات العمال الحمراء المنضمة للدولية الشيوعية ٠

١١ ـ الأحزاب التى ترغب فى الانضمام للدولية الثالثة سيصبح لزاما عليها مراقبة أعضاء مجموعاتها البرلمانية ، كى تنحى كل العناصر الغير الموثوق بها وكى تراقب هذه المجموعات وتوجهها ليس اسميا بل فعليا ، كى تخضعهم للجنة المركزية للحزب وتطلب من كل عضو وممثل شيوعى فى البرلمان أن يكرس مجمل نشاطه لصالح الدعاية الثورية الحقيقية وللتحريض الثورى ٠

١٢ ـ ينبغى أن تتشكل كل الأحزاب المنتمية للدولية الشيوعية على أساس مبادىء المركزية الديمقراطية ٠ ففى الفترة الحالية للحرب المدنية الحادة يصبح الحزب الشيوعى هو القادر فقط للقيام بواجبه تماما عندما يقوم تنظيمه بأسلوب مركزى تماما ، وعندما يمتلك انضباطا صارما حديديا وعندما يتمتع قيادة الحزب بثقة أعضائه ويتاح لها سلطة تامة وقوة حقوق واسعة ٠

١٣ ـ الأحزاب الشيوعية فى البلدان التى يتمتع بها العمل الشيوعى بالشرعية ينبغى عليها أن تطهر صفوفها من وقت لآخر ، وأيضا صفوف منظماتها لكى تطهر الحزب بانتظام من العناصر البرجوازية الصغيرة التى تخترق صفوفه ٠

١٤ ـ كل حزب يرغب فى الانتساب للدولية الشيوعية

ينبغى أن يلتزم بتقديم كل عون ممكن للجمهوريات السوفيتية فى نضالها ضد كل القوى المضادة للثورة · ينبغى على الأحزاب الشيوعية القيام بدعاية محددة ودقيقة لاقناع العمال برفض نقل أى نوع من الامدادات العسكرية المعدة للقتال ضد الجمهوريات السوفيتية ، وينبغى عليها بالوسائل الشرعية واللاشرعية القيام بدعاية فى صفوف القوات المرسلة للقتال ضد الاتحاد السوفيتى ·

١٥ ــ ينبغى على الأحزاب التى مازالت تتمسك بالبرامج الاشتراكية الديمقراطية القديمة حتى اللحظة الحاضرة أن تقوم برسم برنامج شيوعى وفقا للظروف الخاصة لبلدانها وفى أقصر وقت ممكن ، وتبعا لحلول واطروحات الدولية الشيوعية ···

١٦ ــ كل الحلول التى يطرحها مؤتمر الدولية الشيوعية، وبالمثل حلول اللجنة التنفيذية تكون ملزمة لكل الأحزاب المنضمة للدولية الشيوعية · فالدولية الشيوعية تعمل فى ظل ظروف حرب مدنية حادة جدا · وفى نفس الوقت ، فالدولية الشيوعية واللجنة التنفيذية ملزمة بأن تضع فى اعتبارها وفى كل صور نشاطها تعدد وتنوع الظروف التى تضطر الأحزاب المختلفة للعمل والنضال فى ظلها وبوجه عام ينبغى أن تكون الحلول الملزمة سارية المفعول فقط على مثل تلك القضايا الممكن تناولها فى اطارها ·

١٧ ــ بالاشارة لكل ماسبق ، ينبغى على كل الأحزاب التى ترغب فى الانضمام للدولية الشيوعية أن تغير أسماءها · ينبغى على كل حزب راغب فى الانضمام للدولية الشيوعية أن يحمل الاسم التالى : الحزب الشيوعى لهذا القطر أو ذاك ، قسم من الدولية الشيوعية الثالثة · فمسألة اسم الحزب ليست

قضية شكلية فقط ، بل هي قضية سياسية ذات أهمية قصوى ـ فلقد أعلنت الدولية الشيوعية حربا شعواء ضد مجمل العالم البرجوازى ، وضد كل الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية الصفراء • انه لأمر ضرورى أن كل عامل ينبغى عليه التمييز بوضوح بين الأحزاب الشيوعية والأحزاب «الاشتراكية الديمقراطية» الرسمية أو الاشتراكية ، والتى خانت قضية الطبقية العاملة •

١٨ ـ كل الهيئات القيادية لمطبعة ودار نشر كل حزب ملزمة بنشر كل الوثائق الهامة للجنة التنفيذية للدولية الشيوعية •

١٩ ـ كل الأحزاب التى انضمت للدولية الشيوعية وبالمثل تلك التى أظهرت رغبتها فى الانضمام لها ، ملزمة وفى أقصر وقت ممكن وبما لايزيد على مدة أربعة أشهر بعد انعقاد مؤتمر الدولية الشيوعية ، ملزمة بعقد مؤتمر طارىء لمناقشة هذه الشروط • وبالاضافة لذلك ، ينبغى على اللجان المركزية لهذه الأحزاب أن تهتم باطلاع كل المنظمات القطرية التابعة لها على لوائح ونظم المؤتمر الثانى •

٢٠ ـ كل الأحزاب التى ترغب فى الانضمام للدولية الثالثة فى الوقت الحاضر ، ولكنها لم تغير من تكتيكاتها tactics بأى شكل راديكالى radical ينبغى قبل انضمامها للدولية الثالثة ، أن تضع فى اهتمامها ينبغى أن يتشكل من أعضاء لجنتها وكل هيئاتها المركزية مما لايقل عن ثلثى مجمل الأعضاء من الرفاق الذين قدموا اعلانا صريحا ومحددا قبل انعقاد المؤتمر الثانى ، برغبتهم بوجوب انضمام الحزب

للدولية الثالثة . يسمح بالاستثناءات فقط وفقا لموافقة اللجنة التنفيذية للدولية الثالثة ...

٢١ ـ الأعضاء الذين يرفضون من حيث المبدأ هذه الشروط وأطروحات الدولية الثالثة ، يكونون عرضة للفصل من الحزب ...

قراءة رقم (١٤ أ)

لينين : حول توجيه الانتقادات الطائشة *

«يوضح النص التالى من مختارات لينين تطبيقه الارهاب على الافتقادات الاشتراكية وهو مقتبس من خطابه أمام المؤتمر الحادى عشر للحزب الشيوعى الروسى عام ١٩٢٢» ٠

● قرأت فى يوم سابق مقالا للرفيق Rarorl فى العدد العشرين من الدولية الشيوعية حول كتاب جديد من تأليف آوتو باور Otto Bauer (وهو كان معلمنا فى آحد الفترات ، ولكنه أصبح مثل كاوتسكى ماديا خجلا بعد الحرب) ٠ يكتب باور الآن : «انهم يرتدون الآن الى الرآسمالية ٠ فنحن نقول دائما ان الثورة هى ثورة برجوازية» ٠

والمناشفة Mensheviks (الأقلية) والثوريون الاشتراكيون وكل من يتمتم ويبشر بهذا النوع من الأشياء ، يندهشون عندما نقول اننا سنطلق الرصاص على أولئك الذين يقولون مثل هذا الكلام ٠ هم مندهشون ، ولكنه آمر واضح ومؤكد ٠ فعندما يكون جيش ما فى حالة انسحاب ، يتطلب انضباطا والتزاما أكثر مائة مرة مما يتطلبه عندما يكون الجيش متقدما ، لانه خلال التقدم والهجوم يهاجم كل شخص للامام ٠

(★) نقلا عن : لينين ، أعمال مختارة (دار نشر اللغات الأجنبية : موسكو ١٩٥١م) مجلد ٢ ، ص ٩٤٨ ـ ٦٤٩ ٠

فلو بـــدأ كل شـــخص فى الاندفاع للخلف الآن ، يعنى ذلك كارثة فورية وحتمية ٠

الأمر المحدد عند تلك اللحظة ، وأهم شيء هو أن تنسحب فى نظام جيد وأن تحدد الحدودالدقيقة للانسحاب ، وألا تدع مجالا للفوضى والهلع ٠ عندما يقول المناشفة «أنتم تنسحبون وتتراجعون الآن ، لقد كنا ندافع عن الانسحاب دائما ، نحن نتفق معكم ، نحن رجالكم ، دعنا ننسحب سويا «نقول نحن ردا عليهم» فى مواجهة التأييد والدفاع العلنى عن المنشفية Menshevism ينبغى أن تصدر محاكمنا الثورية حكمها بالموت على من يقوم بذلك ، أكثر من هذا ليست هى محاكمنا ، بل الرب يعلم ماهى» ٠

هم لايستطيعون فهم هذا ويدعون ، «ياله من أســلوب وسلوك ديكتاتورى الذى يسلكه هؤلاء الناس» فهم مازالوا يعتقدون أننا نضطهد المناشفة لأنهــم هاجمــونا فى جنيف ولكن لو أننا قد اتبعناهم ومضينا فى طــريقهم ، كنــا قد أصبحنا غير قادرين على تقلد السلطة لمدة شهرين ٠ حقا ، ان المواعظ التى يلقيها أوتو باور ، وقادة الدوليات الثانية ، والثانية والنصف ، ويلقيها المناشفة والثوريون الاشتراكيون تعبر عن طبيعتهم الحقيقية «لقد ذهبت الثورة بعيدا جدا ٠ وماتقولونه الآن قد قلناه طيلة الوقت ، اسمحوا لنا بقوله ثانية «لكن نقول ردا عليهم : «دعونا نضعكم أمام طــابور الرماة عقابا على قولكم هذا ٠ امــا أن تحجموا عن اعــلان آرائكم ، أو ، لو صممتم على التعبير عن آرائكم الســياسية

علانية والترويج لها فى هذه الظروف الحالية ، حيث موقفنا أصعب وأدق مما كان عليه عنــدما كان يهاجمنا الحــراس البيض مباشرة ، سوف نعاملكم كما لو كنتم آســوآ وآشــد العناصر الضارة والمؤذية بين الحراس البيض» • ينبغى آلا ننسى ذلك ••

قراءة رقم (١٤ ب)

لينين : حول الأخلاق الشيوعية *

«يقرر لينين صراحة أن الأخلاق الشيوعية تابعة تماما لمصالح النضال الطبقى للبروليتاريا • اجتزأ هذا النص من خطاب لمنظمة الشباب الشيوعى ، ١٩٢٠ م •»

● سأتناول هنا وقبل كل شىء مسألة الأخلاق الشيوعية• يجب أن تتمرسوا بأنفسكم كى تكونوا شيوعيين • ومهمة اتحاد الشباب تكمن فى تنظيم نشاطاته العملية بالأسلوب الذى يتيح لأعضائه من خلال التعليم ، التنظيم الاتحاد ، النضال ، تدريب أنفسهم وكل من ينظر اليهم على أنهم قادة، كى يكونوا شيوعيين والهدف الكلى من التدريب ، التعليم التعلم لشباب اليوم هو ضرورة أن يستوعبوا ويتشربوا الأخلاق الشيوعية•

لكن هل يوجد ذلك الشىء الذى نطلق عليه المبادىء الأخلاقية الشيوعية ؟ هل هناك مايسمى بالأخلاق الشيوعية؟ بالطبع ، توجد أخلاق شيوعية • وغالبا مايعمل على اظهار أنه ليس لدينا قيم أخلاقية خاصة ، وغالبا مايتهمنا البرجوازيون نحن الشيوعيين بانكار وجحد القيم الأخلاقية وهذا هو منهج الخلط بين المفاهيم ، وذر الرماد فى عيون العمال والفلاحين •

(*) لينين ، الأعمال المختارة (دار نشر اللغات الأجنبية : موسكو ، ١٩٥١م) • مجلد ٢ ، ص ٤٨٢ ، ٤٨٤ •

بأى معنى ننكر ونجحد القيم والأخلاق ؟ بالمعنى الذى يعظ به ويبشر بها البرجوازيون ، الذين يستمدون القيم الاخلاقية من وصايا الله ..

نحن ننكر كل الأخلاق التى تنحى جانبا المجتمع الانسانى والطبقات وتنفصل عنها . نحن نرى أنها مخادعة وتضليل ، وتشويش لعقول العمال والفلاحين من جانب الاقطاعيين والرأسماليين .

ونرى أن قيمنا الأخلاقية تخضع كلية لمصالح النضال الطبقى للبروليتاريا . وأخلاقنا تشتق من مصالح النضال الطبقى للبروليتاريا .

لقد كان المجتمع القديم قائما على اضطهاد كل العمال والفلاحين على أيدى الاقطاعيين والرأسماليين كان ينبغى علينا تحطيم ذلك ، كان علينا أن نطيح بهم ، ولكن من أجل ذلك كان علينا أن نقيم اتحادا .. ويمكن التوصل والاعداد لهذا الاتحاد فقط عن طريق المصانع والعمل ، فقط من خلال البروليتاريا المدربة المتمرسة والتى استيقظت من سباتها .. ونرى الآن ، على أساس التجربة ، أن البروليتاريا فقط هى القادرة على خلق القوة الفعالة والتى ينتمى تحت لوائها الفلاحون المبعثرون المتفرقون، والتى يمكنها التصدى لهجمات المستغلين . وهذه الطبقة هى الوحيدة التى يمكنها مساعدة الجماهير الكادحة على التوحد وحشد صفوفها ، وحمايتها وفى النهاية دمج قوتها وانصهارها وفى النهاية بناء وقيام المجتمع الشيوعى .

وهذا هو السبب فى قولنا بعدم وجود شىء يسمى الأخلاق بمعزل عن المجتمع الانسانى ، انها خديعة . الأخلاق

بالنسبة لنا خاضعة وتابعة لمصالح النضال الطبقى للبروليتاريا ..

عندما يتحدث الناس الينا عن الأخلاق ، نقول : تكمن الأخلاق بالنسبة للشيوعيين فى الانضباط الموحد الصارم ونضال الجماهير الواعية ضد مستغليها ... وقاعدة الأخلاق الشيوعية هى النضال من آجل تدعيم واستكمال الشيوعية وهو أيضا ، قاعدة التدريب والتعليم والتربية الشيوعية ..

قراءة رقم (١٥)

ليون تاروتسكى : الثورة الدائمة *

«كتب عام ١٩٠٦ م • حيث حدد تاروتسكى البرنامج المستقبلى الذى كان على لينين والبلاشفة أن يحققوه عام ١٩١٧ م • وفى الوقت الذى كتب فيه تاروتسكى ذلك ، كان بمفرده عمليا في موقفه حيث قدم تخليا وانكارا عميقا للمادية التاريخية الماركسية • وانه لمن الواضح أن العمل الذى اجتزأ منه النص التالى قد أعيد نشره من خلال الدولية الشيوعية بموسكو عام ١٩٢١ م • عندما كان لينين على قيد الحياة ، وترجم الى اللغات الأجنبية بالمثل» •

● كل حزب سياسى جدير باسمه ، يناضل من أجل الاستحواذ على السلطة السياسية وبالتالى وضع الدولة فى خدمة الطبقة التى يعكس مصالحها • والديمقراطيون الاشتراكيون يكونهم حزب بروليتارى يناضل بطبيعة الحال من أجل السيادة والهيمنة السياسية للطبقة العاملة •

تنمو البروليتاريا وتصبح أكثر قوة مع نمو الرأسمالية وبهذا المعنى يصبح تطور الرأسمالية هو أيضا تطور البروليتاريا نحو الديكتاتورية لكن تعتمد الساعة واليوم

(★) من مراجعة بعض وجهات النظر « الترجمة الانجليزية » (الدولة الشيوعية) موسكو ١٩٢١م • ص ٣٥ ـ ٤٠ •

الذى ستنتقل فيه السلطة للطبقة العاملة ليس على مستوى القوى الانتاجية ، بل على علاقات النضـال الطبقى ، وعلى الموقف الدولى ، وعلى التقـاليد ، والمبـادرة والاستعدادات القتالية للعمال ·

من الممكن بالنسبة للعمال الوصول للسلطة فى البلدان المتخلفة اقتصاديا أسرع مما هو متـاح فى تلك المتقدمة · أحرز العمال السلطة فى أيديهم عـام ١٨٧١ م فى باريس البرجوازية الصغيرة حقيقة استمروا لمدة شـهرين فقط ، ولكن فى انجلترا الرأسمالية العـالية التطور أو الولايات المتحدة ·

لم يتقلد العمال السلطة أبدا لمدة ساعة واحدة · كى نعتقد أن ديكتاتورية البروليتاريا تعتمد تلقائيا وبطريقة معينة على التطور التقنى للقطر ، يعد ذلك هبوطا بالمادية «الاقتصادية» الى مستوى اللامعقولية · وهـذا الرأى ليس شيئا على غرار الماركسية ·

فى رأينا أن الثورة الروسية سوف تخلق الظروف التى ستنتقل فيها السلطة لأيدى العمال ـ وعند حدث أنصـار الثورة ، ينبغى أن تنتقل السلطة لأيدى العمال ـ قبل أن يصبح البرجوازيون قادرين على تطوير قدرتهم على الحكم ·

ليس هناك شك بأن كثـافة وتركز وثقـافة وأهمية البروليتاريا الصناعية سياسيا تعتمد على مدى تطور الصناعة الرأسمالية ـ لكن هذا الاعتماد ليس مباشرا · توجـد بين القوى الانتاجية للمجتمع والقوة السياسية لطبقاته عـوامل سياسية واجتماعية عديدة تؤدى الى تحريف وأحيانا تغيير كلى لشكل العـلاقات السياسية · فرغـم حقيقة أن القوة الانتاجية للولايات المتحدة أكثر عشر مرات من روسيا ، مع

ذلك فان الدور السياسى للبروليتاريا الروسية ، وتأثيرها فى سياسات البلد ، وامكانيات تأثيرها فى سياسة العالم أضخم بشكل لايقارن من تلك التى لبروليتاريا الولايات المتحدة ٠

٠٠٠ ألا يعطينا كل ذلك سببا كى نفترض أن «الانسان» الروسى سيتقلد السلطة أسرع من «سيده» ؟

يمكن أن يوجد شكلان للتفاؤل السياسى ٠ أحدهما يمكنه المغالاة فى تضخيم قوة المرء وايجابياته فى الموقف الثورى ويأخذ على عاتقه المهام التى لاتبررها علاقات القوى المتاحة ٠ وعلى الجانب الآخر ربما يضع الشكل الآخر حدود المهام الثورية أبعد مما يمكن أن تكون عليه اذا اشتقت من منطق موقفنا ٠

من الممكن اختصار كل قضايا الثورة الى محور ثانوى بتأكيد أن ثورتنا برجوازية فى أهدافها وكذا فى نتائجها الحتمية ، مغمضا العين عن حقيقة أن الممثل الرئيسى فى هذه الثورة البرجوازية هو البروليتاريا ، التى تهاجم طيلة الوقت بغية السلطة ٠

ربما يطمئن المرء نفسه بأنه فى الثورة البرجوازية يمكن أن تصبح سيطرة البروليتاريا مرحلة انتقالية فقط ، متناسيا أنه بمجرد استحواذ البروليتاريا على السلطة لن تتخلى عنها بلا مقاومة عنيفة أو حتى تنتزع منها بالقوة المسلحة ٠

ربما يطمئن المرء نفسه بأن الظروف الاجتماعية فى روسيا ليست ناجمة لتحقيق الاشتراكية بدون التفكير بأن البروليتاريا ، المستحوذة على السلطة ، من خلال المنطق الخاص لموقفها ، يجب حتما أن تهاجم للامام لتحقيق تنظيم

الدولة للصـــناعة • فالمصطلح الاجتمـاعى العـام للثـورة البرجوازية يحل على أية حال المشاكل السياسية التكنيكية ، المتناقضات ، الصعوبات التى يثيرها آليات (مكاينيزم) أية ثورة برجوازية معلومة • .

فى الثورة البرجوازية عند نهاية القرن الثامن عشر والتى كانت تهدف الى سيطرة رأس المال توجد ديكتاتورية الجماهير المتطرفة sansculottes كشىء ممكن • ولم تكن هذه الديكتاتورية مرحلة عابرة بسيطة ، فلقد تركت تأثيرها على القرن اللاحق ، رغـم حقيقة أنها اصــطدمت بسرعة ضـد الحواجز المغلقة للثورة البرجوازية • وفى الثورات التى بدأت فى القرن العشرين ، والتى كان هدفها المباشر برجـوازيا أيضا نلاحظ تطور وتنامى الحتمية ، أو ربما فقط السيطرة المحتملة، للبروليتاريا • والبروليتاريا ذاتهـا سـترى أن السيطرة لم تعد «مرحلة» عابرة كما يريد بعض الواقعيين الرجعيين • ولكن يمكننا أن نتساءل فى الحال : «هل من المحتم أن تصطدم ديكتاتورية البروليتاريا ضد تخوم وحدود الثورة البرجوازية ، أو هل من الممكن أنه فى أى مجموعة معينة من ظروف العالم التاريخية تكون احتمالات الانتصار متـاحة بشكل واسع أمامها ، ثم يمكن أن تخترق حـدود الثـورة البرجوازية ؟ سنواجه هنا بمسألة التكتيك هل ينبغى علينا أن نعمل بوعى لصالح حكومة الطبقة العـاملة ابان الفترة التى تتقدم خلالها الثورة نحو هذه المرحلة ــ أو هل ينبغى علينا عند هذه اللحظة اعتبار السلطة السياسية محنة وسوء طالع قد تفرضه الثورة البرجوازية على العمال ، وقد يكون من المستحسن تجنبها ؟

قراءة رقم (١٦)

كارل كاوتسكى : الارهاب والشيوعية *

«كتب كاوتسكى عام ١٩١٩ م · متهما الشيوعيين بخيانة المبادىء الماركسية ، الاشتراكية والديمقراطية · وابان فترة تأليف هذا العمل ، كان الارهاب الشيوعى ينطلق وبالمقارنة بما سيقع من أحداث ، كان الارهاب عندئذ معتدلا نسبيا ، غير جامح كما فى صورته العنيفة التامة التى تطال كل المعارضين بما فيهم العمال ، الفلاحين ، الاشتراكيين ، وكل الشيوعيين المنشقين ·

(للاطلاع على الرد البلشفى أنظر القراءة رقم ١٦ ، ٨) »

● أشار العديد من الثوريين فى الغرب بابتهاج لواقعة وجود البلشفية فى السلطة وبقائها ، ومازال ذلك صحيحا بوضوح حتى وقت كتابة هذهالسطور (مايو ١٩١٩ م) وسليم من الوجهة الشكلية ، رغم تنبؤ منتقدى البلشفية فى البداية المبكرة لحكمها بانهيارها السريع · وكان من المحتم وقوع هذا الانهيار فعليا منذ مدة طويلة ، لو كان البلاشفة قد أخلصوا لبرنامجهم · فلقد احتفظوا باستمرارهم وحب بطرح ونبذ جزء من برنامجهم الواحد تلو الآخر ، حيث

(★) كارل كاوتسكى ، الارهاب والشيوعية ، الترجمة الانجليزية (مطبعة العمل الوطنى لندن ، ١٩٢٠م) ص ١٩٨ ، ٢١٥ ، ٢٠٢ ·

انهم فى النهـاية حققوا العكس تمـاما لما قد أعلنوا أنهم سيحققوه • فعلى سبيل المثال ، من أجل وصولهم لدست الحكم تخلوا عن كل مبادئهم الديمقراطية • ولكى يحتفظوا بالسلطة كان عليهم أن يتخلوا عن مبادئهم الاشتراكية • فلقد حققوا ذواتهم كأفراد ، ولكنهم ضـحوا بمبـادئهم ، وأثبتوا أنهم انتهازيون عبر تجربتهم من خلال مسارهم •

لقد انتصرت البلشفية حتى الوقت الحاضر فى روسيا ، لكن لقيت الاشتراكية هزيمة قاسية • ينبغى علينا أن ننظر فقط لشكل المجتمع الذى تحقق فى ظل النظام البلشـفى ، ومايمكن تحقيقه بمجرد تطبيق المنهج البلشفى ••

كان البلاشفة فى الأصل دعاة مؤيدين لمجلس وطنى يتم انتخابه بقوة تصويت اجماعى ومتساوى فى حق التصويت • لكنهم نحوا ذلك جانبا طـالما يقف فى طـريقهم • وكانوا معارضين عبر مسيرتهم لعقوبة الاعدام ، ومع ذلك شـيدوا نظاما دمويا • وعندما تفتقر الدولة للديمقراطية وتنكرها يصبح البلاشفة متمسكين بعنف بالديمقراطية داخل صفوف البروليتـاريا • وألغـوا نظـام العمـل بالقطعة ، ولكنهم يتراجعون اليه الآن • ولقد أعلنوا فى بداية قيام نظامهم أن هدفهم هو تحطيم الجهاز البيروقراطى ، أو الذى يمثل وسائل وأدوات سلطة وقوة الدولة القديمة ، ولكنهم قد أحلوا محله شكلا جديدا للحكم البيروقراطى • ولقد انتزعوا السـلطة باضعاف وتحلل روح الانضـباط فى الجيش ، وفى النهاية الجيش ذاته • ولكنهم أوجدوا جيشا جديدا ،صارم الانضباط ولقد ناضلوا لجعل كل الطبقات تحيا بمستوى واحد والغاء الفوارق بينها ، وبدلا من ذلك الذى دعوا اليه أوجدوا فوارق طبقية جديدة • ولقد خلقوا طبقة تعيش عند أدنى مستوى من البروليتاريا ، ورفعوا البروليتاريا الى منزلة طبقة ذات

امتيازات ، وعلاوة على ذلك مازالوا يعملون على ظهورها كطبقة أخرى تتمتع بدخول هائلة وامتيازات ضخمة ٠٠

لقد عادت استبدادية البيروقراطية القديمة للحياة مرة أخرى فى صيغة جديدة لكن معدلة كما قد رأينا ، وتخلقت وتشكلت بجوار ذلك بذور رأسمالية جديدة ، والتى تعد مسؤولة عن الممارسات الاجرامية المباشرة ، والتى تقف فى الواقع على مستوى أكثر تدنيا وانخفاضا مما كانت عليه الرأسمالية الصناعية فى الأيام السابقة ٠ وعلى آية حال لم يوجد فى روسيا سوى اقطاعيات الأراضى للاقطاع القديم والتى كانت شروط الغائها ناضجة ٠ ولكن لم تكن الظروف ناضجة لالغاء الرأسمالية ٠٠٠ وفوق ذلك فان هذا الافتقار للحرية لايعوضه زيادة فى الرفاهية ٠٠

ويتوقع لمناهج البلاشفة الاقتصادية والأخلاقية الفشل الحتمى ٠ ويمكن كشف النقاب عنه اذا ما انتهى الى انهيار عسكرى ٠ وليس بامكان الثورة العالمية ولا أى عون خارجى أن يوقف الفشل الاقتصادى للمناهج البلشفية ٠ فمهمة الاشتراكية الاوروبية من زاوية مناهضتها للشيوعية ، مختلفة تماما ، أى تأخذ بعين الاعتبار أن النكبة الأخلاقية الناجمة عن منهج خاص للاشتراكية لن تؤدى الى نكبة للاشتراكية بوجه عام ، وفوق ذلك ، أن تسعى لصياغة حدود فاصلة بين هذه المناهج وبين المنهج الماركسى ، وتعمل على ايصال هذه التفرقة لمعرفة وذهنية الجماهير ٠ وأى جماعة اشتراكية راديكالية Radical (جذرية) سوف تسىء فهم مصالح الثورة الاشتراكية ، لو أنها تصورت فى الحقيقة أنها تخدم هذه المصالح بادعائها للجماهير بتطابق البلشفية والاشتراكية ، وجعلهم يعتقدون أن الصيغة الحالية للجمهورية السوفيتية ،

هى نتاج لابحارها فى ظل علم ودراية القوة الكلية للطبقات العاملة والاشتراكية ذاتها ...

يعد الارهاب من الظواهر التى تقع فى نطاق مسئولية البلشفية ، حيث بدأ بالغاء كل شكل من آشكال حرية الصحافة ، وانتهى الى نظام الوصاية الجمعية ، وهو بالتأكيد أكثر الأشياء القاتلة والمنفرة . وهو الذى آدى الى اثارة الاستياء الشديد ضد البلاشفة ...

الاعدام رميا بالرصاص - هذا هو مبدآ ومنتهى حكمة الحكومة الشيوعية . آلم يطالب لينين نفسه المثقفين (الانتليجنسيا) بمساعدته فى نضاله ضد المحتالين والمغامرين؟ لقد قام بذلك مؤكدا ، فلقد حجب عنهم فقط الوسيلة الوحيدة التى يمكن أن تساعدهم ، آى حرية الصحافة . فحرية الصحافة ورقابتها على أى مجال متاح وغير محرم ، يمكنها فقط أن تراقب هؤلاء المحتالين والمغامرين الذين يرتكزون حتميا على آية حكومة ذات سلطات غير محدودة ولاتخضع للرقابة . حقا، غالبا مايزدهر هؤلاء الطفيليون ويتنامون فى ظل الافتقار الى حرية الصحافة ..

قراءة رقم (١٦ أ)

ليون تاروتسكى : فى الدفاع عن الارهاب *

«هذا هو رد تاروتسكى على كاوتسكى والاشتراكيين الآخرين . والمنطق الذى استخدمه لتبرير الارهاب ضد «الرأسماليين» هو نفسه الذى يستخدمه فيما بعد كى يبرر الارهاب ضد كل أولئك بما فيهم العمال والفلاحين الذين يعارضون قيادة الحزب الشيوعى . ثم فيما بعد وفى وقت لاحق طبق على اتباع تاروتسكى» .

● ... رغم كل مايحدث فى عالم اليوم فشل كاوتسكى تماما فى ادراك ماهية الحرب بوجه عام ، والحرب الأهلية على وجه الخصوص .. بل لم يفهم أن كل متعاطف مع النظام فى باريس لم يكن مجرد «معارض» للكوميونيين (دعاة كوميونة باريس) فى الرأى وحسب وبل ، هو عميل وجاسوس للنظام ، وعدو شديد الضرر على أهبة الاستعداد لطعن أى كوميونى فى ظهره . فالعدو ينبغى اعتباره شديد الضرر ، ويعنى ذلك أنه فى وقت الحرب ينبغى تدميره .

تتكون مشكلة الثورة مثل مشكلة الحرب من قهر ارادة العدو ، واجباره على الاستسلام وقبول شروط المنتصر .

(*) ليون تاروتسكى ، الديكتاتورية فى مواجهة الديمقراطية (نيويورك : مطبعة عمال أمريكا ١٩٢٢م) . ص ٥٤ ـ ٥٥ ، ٥٧ ـ ٥٩ .

والارادة بطبيعة الحال تعد من حقائق العالم الطبيعى ، ولكن خلافا لأى اجتماع أو جدال أو مؤتمر تنفذ الثورة هدفها من خلال توظيف موارد ووسائل مادية ـ لكن بدرجة أدنى مما هو فى الحرب ٠ حتى البرجوازية ذاتها انتزعت السلطة بوسائل الثورات ، عززتها وعملت على ترسيخها من خلال الحرب الأهلية ٠ وفى المراحل السلمية ، احتفظت بالسلطة من خلال نظام للقمع والقهر ٠ ويقدر قيام المجتمع الطبقى على العداءات والتناقضات ذات الجذور العميقة ، واستمراره فى الوجود ، يبقى القمع وسيلة ضرورية لقهر ارادة الجانب المعارض ٠

حتى لو تنامت ديكتاتورية البروليتاريا فى بلد أو آخر من خلال الاطار العام الخارجى للديمقراطية ، من يمنع ذلك أو يحول دون وقوع الحرب الأهلية ٠ وسؤال من الذى يجب أن يحكم البلد ، مثل تقرير حياة أو موت البرجوازية ، لن يتقرر هذا بالاشارة الى نصوص الدستور بل سيتقرر على صعيد آخر بتوظيف واستخدام كل صور وأشكال العنف ٠

٠٠٠ تعتمد درجة ضراوة النضال على منظومة من الظروف الداخلية والدولية ٠ والامر الأكثر والأشد ضراوة هو مقاومة وبقاء العدو الطبقى الذى تم الاطاحة به ، والأمر الأشد حتمية هو وجود نظام قمعى فى شكل نظام للارهاب ٠

٠٠٠ البروليتاريا الروسية هى الأولى التى طرقت طريق الثورة الاجتماعية ، والبرجوازية الروسية اجترأت وتشجعت بلا عون على النضال ضد تجريدها ومصادرتها سياسيا واقتصاديا فقط بسبب أنها رأت أختها الكبرى فى كل الأقطار مازالت تتربع على عرش السلطة ، ومازالت تستحوذ

على التفوق الاقتصادى والسياسى ولمدى معين ، التفوق العسكرى ·

لو أن ثورتنا فى نوفمبر قد حدثت بعد عدة أشهر أو حتى بضعة أسابيع من قيام حكم البروليتاريا فى ألمانيا ، فرنسا ، وانجلترا ، كان بلاشك من الممكن أن تصبح ثورتنا أكثر الثورات «السلمية» والبيضاء من الثورات الممكنة على ظهر هذا العالم الآثم · ولكن هذه النتيجة التاريخية — الأكثر «طبيعية» للوهلة الأولى وفى آية حالة الأكثر فائدة ونفعا للطبقة العاملة الروسية تم تجاوزها وانتهاكها ، ليس من خلال خطأنا بل عبر ارادة الأحداث · بدلا من كونها الأخيرة ، برهنت البروليتاريا الروسية أنها جديرة بالصدارة · فهذه هى الظروف التى أحاطت بالثورة الروسية بعد المرحلة الاولى من الفوضى والاضطراب والتى أضفت الانتحارية على طابع مقاومة الطبقات التى كانت تحكم روسيا من قبل ، وأجبرت البروليتاريا الروسية ، عند لحظة الخطر الجسيم ، والهجمات الأجنبية ، والمؤامرات الداخلية والتمرد المسلح أجبرتها على اللجوء لاستخدام اجراءات ارهاب الدولة · والآن ليس بامكان أى فرد القول بعبثية هذه الاجراءات · لكن ، ربما يمكننا افتراض أنها كانت «مفرطة ولايمكن تحملها» ؟

يجب على الطبقة العاملة التى انتزعت السلطة فى ساحة المعركة وكما هو هدفها وواجبها أن تقيم هذه السلطة على أسس راسخة لاتهتز ، كى تجعل تفوقها وسيادتها فوق التساؤل وكى تدمر ولع الأعداء لثورات جديدة ، ولكى تؤكد تنفيذ الاصلاحات الاشتراكية · والا لم يكن هناك جدوى من عملية انتزاع السلطة ·

لاتقتضى الثورة «منطقيا» الارهاب ولا تتطلبه ، كما أنها لاتقتضى «منطقيا» ولاتتطلب آى تمرد مسلح • ياله من شيء مألوف يستعصى على الفهم ! لكن تقتضى الثورة وتتطلب طبقة ثورية ينبغى عليها تحقيق غاياتها بكل الوسائل التى فى متناولها ولو كان ضروريا ، بانتفاضة مسلحة ، ولو كان مطلوبا بالارهاب • فالطبقة الثورية التى انتزعت السلطة بالسلاح فى أيديها مصممة على وسوف تخمد بالبنادق فى أيديها كل محاولات انتزاع السلطة من تحت قدميها • حيثما تجابه بجيش معاد ، سوف تواجهه بجيشها هى • حيثما تجابه بتآمر مسلح ، ومحاولة اغتيال أو انتفاضية سوف تطلق على رؤوس الأعداء أقسى عقوبة • ربما اخترع كاوتسكى وسائل أخرى ؟ أو قد اختزل واختصر كل القضايا الى مستوى ومدى القمع ، وربما يوصى فى كل الظروف باستخدام السجن بدلا من الاعدام ؟.

قضية شكل القمع والقهر ، أو مداه ودرجته ليست قضية «مبدأ» بل قضية جدوى ومنفعة • ففى الحقبة الثورية، الحزب الذى أبعد وأسقط من عرش السلطة ، والذى لايروض نفسه على تحمل استقرار وثبات الطبقة الحاكمة فى السلطة ، والذى يثبت ذلك بنضاله اليأسى ضد الطبقة الحاكمة ،لايمكن ارهابه بالتهديد بالسجن ، لانه لايعتقد فى بقائها واستمرارها • هذه هى الحقيقة البسيطة والحاسمة التىتفسر اللجوء الدائم للانطلاق فى آتون الحرب الأهلية civil war

أو ربما ، يريد كاوتسكى القول بأن الاعدام ليس مفيدا ، «وان الطبقات لايمكن اضافتها وترويعها» ، وهذا ليس حقيقيا • فالارهاب بلا فائدة ولا يساعد ــ وهذا فقط

«وفى نهاية المطاف» لو استخدم من قبل الطبقات الرجعية التى لاتريد مغادرة مسرح الأحداث فالتخويف والترهيب intimidation سلاح قوى وفعال فى السياسة ، سواء دوليا أو محليا وداخليا • والحرب مثل الثورة تقوم على التهديد والتخويف • والحرب المنتصرة ، عموما ، تدمر فقط جزء ملحوظا من الجيش المهزوم ، تهدده وتثيره الرعب لدى الباقيين ومحطمة اراداتهم • والثورة تعمل بنفس الطريقة : فهى تقتل الأفراد مخيفة ومهددة الآلاف • وبهذا المعنى لايتميز الارهاب الأحمر عن التمرد والعصيان المسلح ، فهو الاستمرار المباشر الذى يمثله • وارهاب الدولة من قبل طبقة ثورية يمكن ادانته فقط على يد رجل مثله مثل مبدأ يرفض (بالكلمات) كل أشكال وصور العنف مهما كانت — وبالتالى كل الحروب وكل الانتفاضات • وبالنسبة لهذا الشخص يمكن اعتباره وحسب مجرد مرتجف (كويكر) منافق •

«لكن فى هذه الحالة ، أين يكمن اختلاف تكتيكاتكم tactics عن تكتيكات القياصرة ؟» نتساءل بأقصى فضول لليبرالية والكاوتسكية •

لن تفهموا ذلك أيها الأتقياء ؟ سنشرحه لكم • ارهاب القياصرة كان موجها ضد البروليتاريا • وشرطة القياصرة كانت تخنق العمال الذين كانوا يقاتلون من آجل النظام الاشتراكى • أما لجاننا الاستثنائية فكانت تقتل الاقطاعيين، الرأسماليين ، والجنرالات الذين كانوا يكافحون لاعادة النظام الرأسمالى • هل تدرك ذلك ••• الفرق ؟ نعم ؟ فذلك كاف تماما لنا نحن الشيوعيين •

قراءة رقم (١٧)

روزا لوكسمبرج : الاشتراكية والعملية الديمقراطية *

«هذه فقرات متميزة من نقد روزا لوكسمبرج للثورة الروسية ، والتى استشرفت فيها ببصيرة نفاذة نتائج النظرية البلشفية وتطبيقها فى الحياة السوفييتية» ٠

● تقتضى الاشتراكية فى مضمار الحياة اجراء تحول تام فى الذهنية والحياة الروحية للجماهير المتدنية والمهترئة بفعل قرون من حكم الطبقة البرجوازية ٠ واحلال الغرائز الاجتماعية محل تلك الفردية الذاتية ، ومبادرة الجماهير محل جمودها وتقاعسها محل المثالية التى تقهر كل أشكال المعاناة ٠٠ الخ ٠٠ الخ ٠ لم يدرك أحد ذلك بشكل أفضل مما أدركه لينين حيث وصفه بأسلوب ثاقب ونفاذ ، وكرره بثبات واصرار أكثر ٠ ولكنه كان مخطئا فى الوسائل التى استخدمها ٠ فاصدار القرارات ، والقوة الديكتاتورية للمراقبين فى المصانع ، والعقوبات الوحشية ، والحكم بالارهاب ــ كل هذه الأشياء مجرد مسكنات ٠ والسبيل الوحيد لاعادة التشكيل والميلاد الجديد هى مدرسة الحياة العادة ذاتها ، المترامية جدا ، الديمقراطية لأبعد مدى

(*) روزا لوكسمبرج ، الثورة الروسية ، الترجمة الانجليزية ، برترام د٠ ولف (ناشرو عصر العمال : ١٩٤٤) ص ٤٧ ــ ٤٨ ، ٥٢ ــ ٥٤ ٠

والرأى العام • فالحكم عن طريق الارهاب هو الذى يفسد ويدمر الحياة المعنوية •

وعندما يتم الغاء كل هذه الاجراءات ، ماذا يتبقى حقيقة ؟ فبدلا من الهيئات النيابية التى تتشكل بالانتخابات العامة والشعبية ، أقام لينين وتاروتسكى مجالس السوفيات كمجالس تمثيلية نيابية وحيدة وحقيقية للجماهير العاملة • لكن مع وجود القمع فى الحياة السياسية على أرض الواقع ككل ، من المحتم أن تصبح الحياة في السوفيات أكثر تعطلا وشكلا • بدون الانتخابات العامة ، وبدون الحريات غير المقيدة للصحافة والاجتماع ، وبدون التصارع الحر للرأى ، ستنحل الحياة وتتلاشى فى كل المؤسسات العامة ، لتصبح كمجرد صورة باهتة مبسطة للحياة ، يبقى فى ظلالها فقط البيروقراطية كعامل فمال • وتغرق الحياة تدريجيا فى سبات ، حيث يحكم ويوجه عشرات قليلة من قيادات الحزب ذوى طاقة لا تكل وخبرة غير محدودة • وفى الواقع ، يتولى القيادة عشرة فقط من بينهم بينما يدعى صفوة مختارة من الطبقة العاملة من وقت لآخر لحضور الاجتماعات حيث ينبغى عليهم التصفيق لخطب القيادات ، وليصدقوا على القرارات المقترحة بالاجماع ــ وفى أسفل القاع ، اذن توجد قضية تآمرية ــ الديكتاتورية ، ينبغى أن نكون واثقين ، ليست ديكتاتورية البروليتاريا ، على آية حال ، بل فقط ديكتاتورية حفنة من السياسيين ، هذه هى الديكتاتورية بالمعنى البرجوازى ، بمعنى حكم اليعاقبة Jacobins ••• نعم ، بامكاننا المضى أكثر من ذلك : هذه الظروف ستؤدى حتما الى جعل الحياة العامة أكثر وحشية : ايجاد محاولات اغتيالات ، اطلاق الرصاص على الأسرى الخ •• الخ •

يكمن الخطأ الاحساسى لنظرية لينين ـ تاروتسكى فى وصفهم تماما مثل كاوتسـكى ، الديكتاتورية فى مواجهـة الديمقراطية · أما الديكتـاتورية أو الديمقراطية «هـو الطـريقة التى صبغت بهـا القضـية لدى البلاشـفة ولدى كاوتسكى بالمثـل · يقـرر كاوتسـكى بالطبع ولصـالح «الديمقراطية» أى لصالح الديمقراطية البرجوازية بالتحديد لأنه يضعها فى مواجهة بديل الثـورة الاشتراكية · وعلى الجانب الآخر ، يقرر لينين وتاروتسكى لصالح الديكتاتورية فى مواجهة الديمقراطية ، ومن هنا ، لصالح ديكتاتورية حفنة من الأشخاص أى لصالح الديكتاتورية على النموذج والنمط البرجوازى · وكلاهما قطبان متمارضان وكلاهما قد ألغيا واستبعدا من السياسة الاشتراكية الحقيقية · وعندما تتقلد البروليتاريا السلطة لن يمكننها اتباع نصيحة كاوتسـكى الجيدة ، التى تقدم تحت ستار وذريعة «عدم نضج القطر» نصيحة بالتخلى عن الثورة الاشتراكية وتكريس ذاتها من أجل الديمقراطية ···

«كماركسيين» يكتب «تاروتسكى» ، لم نكن أبدا عباد أوثان الديمقراطية الشكلية» بالتأكيد ، لم نكن أبدا عبدة أوثان الديمقراطية الشكلية · ولم نكن أبدا من عباد أوثان الاشتراكية ولا الماركسية ···

«لم نكن أبدا عباد أوثان الديمقراطية الشكلية» · كل هذا يعنى فى الواقع أننا نميز دائمـا ونفـرق بين النواة الاجتماعية والشكل السياسى للديمقراطية البرجـوازية ، فلقد كشفنا دائما النواة الصلبة للتفاوت والظلم الاجتماعى والافتقار للحرية المخبـأة تحت القشرة الجميلة للمسـاواة والحرية ـ ليس بغرض رفض المساواة والحرية بل لحث الطبقة

العاملة على عدم الاكتفاء بالقشرة دون اللب ، بل وأبعد من ذلك بحثها على الحصول على السلطة السياسية ، كى تقيم الديمقراطية الاشتراكية واحلالها محل الديمقراطية البرجوازية وليس بفرض الغاء الديمقراطية ككل ٠

لكن الديمقراطية الاشتراكية ليست شيئا يبدأ فقط فى الأرض الموعودة بعد تأسيس الاقتصاد الاشتراكى ، وهى لاتأتى كنوع من هدايا الكرسماس للأغنياء الموسرين والذين ابان ذلك يؤيدون بولاء حفنة من الطغاة الاشتراكيين ٠ بل الديمقراطية الاشتراكية تبدأ متزامنة مع بداية تدمير الحكم الطبقى وقيام الاشتراكية ٠ انها تبدأ من اللحظة الأولى لتقلد الحزب الاشتراكى السلطة ٠ انها نفس الشىء مثل ديكتاتورية البروليتاريا ٠

نعم للديكتاتورية ! لكن تلك الديكتاتورية التى تكمن فى أسلوب تطبيق الديمقراطية وليست بالغائها ، والتى تكمن فى الهجوم الفعال المستأسد على الحقوق الراسخة والعلاقات الاقتصادية للمجتمع البرجوازى ، والتى بدونها لايمكن تحقيق التحول الاشتراكى لكن هذه الديكتاتورية ينبغى أن تكون من عمل الطبقة وليس أقلية قيادية ضئيلة باسم الطبقة حيث تتابع وتكتمل بالتدريج من خلال المشاركة الفعالة للجماهير ، وينبغى أن تكون تحت تأثيرهم المباشر ، وخاضعة للرقابة التامة للأنشطة الشعبية ، وينبغى أن تنبثق من الوعى السياسى المتنامى لجماهير الشعب ٠٠٠

قراءة رقم (١٨)

جوزيف ستالين : الاشتراكية فى قطر واحد *

«يقدم ستالين فكرة بناء الاشتراكية فى بلد واحد دون التخلى عن موضوعية الثورة العالمية ــ وسنرى نقد تاروتسكى له فى نص لاحق» .

● ما الذى نعنيه بامكانية انتصار الاشتراكية فى قطر واحد ؟

نعنى امكانية حل التناقضات بين البروليتاريا والفلاحين وبمساعدة القوى الداخلية للبلد ، وامكانية القوة المفترضة للبروليتاريا واستخدام هذه القوة لبناء مجتمع اشتراكى كامل فى بلدنا ، مع تعاطف ومساندة بروليتاريا البلدان الأخرى، لكن بدون الانتصار التمهيدى للثورة البروليتارية فى الأقطار الأخرى .

بدون هذه الامكانية ، يصبح بناء الاشتراكية بدون نظر ودراسة ، بناء بدون التأكد بأن قيام الاشتراكية سيكون عملا مكتملا . من غير المفيد الانشغال ببناء الاشتراكية دون التأكد من قدرتنا على بنائها ككل ، دون التأكد بأن التخلف التقنى لقطرنا ليس عقبة لاتقهر فى وجهة بناء مجتمع

(*) جوزيف ستالين قضايا اللينينية (دار نشر اللغات الأجنبية : موسكو ١٩٥٣ ص ١٩٢ الى ص ١٩٣ .

اشتراكى مكتمل • وانكار هذه الامكانية هو اعلان الافتقار للايمان فى وجوب بناء الاشتراكية ، والتخلى عن اللينينية •

ما الذى تعنيه باستحالة الانتصار التام والنهائى للاشتراكية فى قطر واحد دون انتصار الثورة فى البلدان الأخرى ؟

نعنى استحالة امتلاك كل الضمانات ضد التدخلات ، وبالتالى ضد اعادة النظام البرجوازى بدون انتصار الثورة على الأقل فى عدد من البلدان • وانكار تلك القضية الجازمة هو انكار وتخلى عن الأممية ، وتخلى عن اللينينية •

يقول لينين «اننا لانعيش» فى دولة وحسب بل فى نظام دولى ووجود الجمهورية السوفيتية بجوار الدول الاستعمارية (الامبريالية) لوقت طويل أمر غير وارد فى الذهن • حيث يتبغى انتصار أحدهما على الآخر فى النهاية • وقبل وقوع هذه النهاية سيكون حتميا وقوع صدامات مروعة بين الجمهورية السوفيتية والدول البرجوازية ويعنى ذلك أنه لو أرادت الطبقة الحاكمة ، البروليتاريا وسوف تفعل ، أن تتولى هى الزمام ينبغى عليها اثبات قدرتها على القيام بذلك من خلال التنظيم العسكرى أيضا •

يقول لينين فى موضع آخر «نواجه الآن بتوازن متقلب لأقصى درجة ، لكنه توازن لايقبل الجدل والنقاش توازن معين على أية حال • فهل سيستمر ويبقى دوما ؟ لايمكنني الاجابة ولا أعتقد أنه بامكان أى واحد • ولهذا ينبغى علينا ممارسة أقوى تحذير ممكن • والقاعدة الأولى لسياستنا ، والدرس الأولى الذى ينبغى أن نتعلمه من آنشطتنا الحكومية ابانالعام المنصرم ، الذى ينبغى أن يتعلمه كل العمال والفلاحين ، أنه

ينبغى علينا أن نكون متيقظين ، وينبغى أن نتذكر أننا فى أية لحظة على قيد أنملة من حدوث أى شكل للغزو» ٠

ياله من وضوح ينبغى أن يفكر به المرء !٠٠٠ أليس أكثر صدقا القول بأن زينوفيف zinoviev وليس الحزب هو الذى يؤثم ويتجنى على الأممية والثورة العالمية ؟ ولماذا اذن كون قطرنا «القطر الذى يبنى الاشتراكية» اذا لم يكن يبنيها لتكون قاعدة للثورة العالمية ؟ لكن هل يمكنه أن يكون قاعدة حقيقية للثورة العالمية مالم يكن قادرا على استكمال بناء المجتمع الاشتراكى ؟ هل يمكنه البقاء كمركز قوى لجذب العمال من جميع الأقطار كما هو الآن بلا منازع ، مالم يكن قادرا على تحقيق الانتصار على العناصر الرأسمالية فى اقتصاده ذاته ، انتصار البناء الاشتراكى ؟ لا أعتقد ذلك ٠ لكن أليس يتبع ذلك أن التشكيك فى اعتبار انتصار البناء الاشتراكى ، واتساع حلقة هذا الشك تؤدى الى عدم التصديق على كون قطرنا قاعدة للثورة العالمية ؟ ولو تم التشكيك فى قطرنا سوف تضمر وتضعف الحركة الثورية العالمية ٠ أيها السادة كيف حاول الديمقراطيون الاشتراكيون ابعاد العمال عنا واخافتهم منا ؟ بالالحاح بأن «لن ينجح الروسيون فى أى مكان» فيالها من هزيمة اذ قناها للديمقراطيين الاشتراكيين الآن ، عندما نجذب العديد من العمال ووفودهم لقطرنا ولذا نعمل على تقوية موقف الشيوعية عبر أنحاء العالم ؟ من خلال نجاحنا فى بناء الاشتراكية ٠ أليس ذلك واضحا ، اذن ، فان أى شخص ينشر الشك فى اعتبار نجاحنا فى بناء الاشتراكية وبالتالى يساعد مباشرة الديمقراطيين الاشتراكيين ، وبالتالى يضعف قوة اندفاع الحركة الثورية الأممية ، ومن المحتم فانه ينحرف عن الأممية ؟

قراءة رقم (١٩)

ليون تاروتسكى : نقد نظرية الاشتراكية في قطر واحد *

«يثبت تاروتسكى أنه كما قام هو ولينين بمراجعة وتعديل مقولات ماركس وانجلز قام ستالين بادخال تعديلاته • ومن المثير ملاحظة أن تعديلات تاروتسكى ذاته على الماركسية التقليدية قد قدمت باعتبارها التصحيح الذى قام به التاريخ نفسه • وان منطق التاريخ والأحداث ، هكذا تحدث تاروتسكى ، هو الذى صحح منطق النظرية • ويمكن لستالين المناقشة بشكل مقبول بنفس الطريقة بدلا من انكار أنه يراجع الموقف اللينينى • على أية حال ، فلقد خلق البلاشفة الأحداث التى استخدموا منطقها بالتالى لتبرير آفعالهم» •

● ••• فى عصرنا ، الذى هو عصر الامبريالية ، أى عصر الاقتصاد العالمى والسياسى العالمية تحت سيطرة رأس المال المالى ، ليس بامكان حزب شيوعى بمفرده صياغة برنامجه فقط أو أساسا من بالاشتقاق من ظروف أو اتجاهات التطور فى بلده • وينسحب ذلك تماما على الحزب الذى تتقلد السلطة داخل حدود الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية

(*) ليون تاروتسكى ، الأممية الثالثة بعد لينين ، (نيويورك ، ببونير ، ١٩٣٦م ، مجلد ١ ص ٣ ــ ٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٦٦ ، ٦٧ •

فى ٤ أغسطس ١٩١٤ م · فلقد دق ناقوس مـوت البرامج الوطنية لكل المراحل · وبامكان الحـزب الثورى آن يؤسس نفسه فقط على برنامج أممى متوافق مع تطـور وانهيـار الرأسمالية · وأى برنامج شيوعى أممى ليس آكثر من محصلة كلية للبرامج الوطنية أو مزيج من ملامحها العامة ·

وينبغى أن ينبثق البرنامج الأممى مباشرة من تحليـل لظروف واتاهات الاقتصاد العالمى والنظام السياسى العالمى واضعا فى الاعتبار مجمل علاقاته وتناقضاته · مع علاقاته العدائية وتفاعلاته المشتركة فى الأجزاء المختلفة · فى العصر الحاضر ، ولمدى أبعد كثيرا من العصر الماضى ، ينبغى أن ينبع التوجه الوطنى للبروليتاريا من التوجه العالمى فقط وليس العكس · وهنا يكمن الاختلاف الأساسى والمبدئى بين الأممية الشيوعية وبين كل الاشتراكيات الوطنية المتعددة ·

تعتبر الثورة الأممية كعملية مترابطة متداخلة ، لايمكن اسنادها الى كل تجسداتها الجزئية العينية ، ولذا فان منظومة مسار آحداثها فقط هى الواضحة وضوحا قاطعا فى خطوطها التاريخية العامة · ومالم يفهم هذا لن يكون بالامكان طرح توجه سياسى صحيح بل يصبح فى غير متناولنا كلية ·

عموما ، تبدو الأمور مختلفة تمـاما لو اسـتمدت من فكرة التطور الاشتراكى الذى يحدث وحتى اكتمل فى قطر واحد لدينا فى الوقت الحـاضر «النظرية» التى تزعـم أنه بالامكان بناء الاشتراكية مكتملة فى قطر واحد ويمكن قيام علاقات هذا القطر مع العالم الرأسمالى على قاعدة «التحييد» · للعالم البرجوازى (نظرية ستالين) · فلقد تلاشت الضرورة لشعار الولايات المتحدة لاوروبا ، آو على الأقل ضعفت لو كانت هذه وجهة نظر اصلاحية وطنية وليست آممية ثورية لكانت

مقبولة • لكن هذا الشعار ، من وجهة نظرنا ، هام وضرورى بشكل حيوى لانه يضمر بداخله ادانة فكرة وجـود تطـور اشتراكى منعزل بالنسبة للبروليتاريا فى اى قطر أوروبى ، حتى لابعد مدى مما فى الجمهوريات الســوفيتية ــ يصبح الاختلاف ، عموما خلافا فى الدرجة فقط ــ وسيصبح من الضرورى وأشد حيوية أن تنشر الثورة فى الأقطار المجاورة وتساند حركات التمرد المسلح هناك بكل ماتملك من سلاح ، ليس تبعا لأى اعتبارات مجردة للتضــامن العــالمى ، والتى لاتستطيع فى ذاتها أن تدفع الطبقات لمسرح الأحداث ، ولكن بسبب تلك الاعتبارات الحيوية التى صاغها لينين مئات المرات ــ أعنى ، بدون المساعدة الفورية من الثورة الأممية ، لم يكن باستطاعتنا الصمود • فشــعار الولايات المتحــدة السوفيتية (لاوروبا) يتسق مع آليات (ديناميات) الثورة البروليتارية، والتى لم تندلع فى وقت واحد فى كل البلدان • ولكن التى تمضى من قطر لآخر والتى تتطلب رابطة لصــيقة بينهم ، خضوعا فى الميدان الاوروبى ، معا فى الدفاع ضــد أقــوى الأعداء الخارجين ورؤية للبناء الاقتصادى •

••• حالا وبعد تشخيصها الأحادى الجانب لقانون التطور المتفــاوت الذى أشرنا اليه ، يقــول البرنامج التمهيــدى (للمؤتمر السادس للأممية الشيوعية) : «لذا يتأتى أن الثورة البروليتارية العالمية ينبغى ألا تعتبر وكأنها تزامن واحد ، وحدث عالمى • لذا يتأتى أن انتصار الاشتراكية ممكن فى البداية فى قليل بل وحتى فى قطر رأسمالى منعزل» •

لان الثورة الأممية للبروليتاريا لايمكن أن تكون عمــلا متزامنا ، وليس هذا بطبيعة الحال أى خلاف حيث انه بعد تجربة ثورة أكتوبر التى حققتها البروليتاريا فى بلد متخلف

فى ظل ضغط الضرورة التاريخية ، دون انتظار على الأقل حتى تمهد البروليتاريا فى الأقطار المتقدمة الطريق · فى اطار هذه الحدود ، فان الاشارة لقانون التطور المتفاوت تعد صحيحة وفى موضعها تماما · لكن الأمر مختلف بالنسبة للجزء الثانى من النتيجة ــ أعنى ، التأكيد الأجوف بأن انتصار الاشتراكية ممكن «فى قطر رأسمالى واحد منعزل» · ولكى تثبت وجهة نظرها يقول البرنامج التمهيدى ببساطة : «لذا يتأتى ···» ويأخذ المرء انطباعا بأن هذه النتيجة تنبع من قانون التطور المتفاوت ولكنها لاتستمد منه بأية حال · «لذا يتأتى» شيئا ما هو النقيض تماما · فلو أن العملية التاريخية كانت هكذا بحيث تتطور بعض الأقطار ليس فقط بشكل متفاوت ولكن مستقلة عن بعضها البعض ، منعزلة عن بعضها البعض ، اذن يتأتى ويستمد من قانون التطور المتفاوت بلا شك امكانية بناء الاشتراكية فى قطر رأسمالى واحد ــ فى البداية فى أكثر الأقطار تطورا ، ومن ثم ، كلما نضجوا وتطوروا فى البلدان الأكثر تخلفا · وهذا هو المألوف ، وفكرة عادية عن الانتقال للاشتراكية داخل صفوف الديمقراطية الاشتراكية فى عالم ماقبل الحرب · وهذه بالتحديد الفكرة التى شكلت الأساس النظرى للوطنية الاشتراكية · بالطبع ، لايتبنى البرنامج التمهيدى هذه الرؤية · ولكنه ينحدر اليها ·

··· قال ستالين فى نوفمبر ١٩٢٦ م · : «يتخذ الحزب دائما كنقطة أولية فكرة أن انتصار الاشتراكية فى قطر واحد تعنى امكانية بناء الاشتراكية فى ذلك القطر ، وأنه يمكن تحقيق هذه المهمة بالقوى الموجودة لدى قطر واحد» · (برافدا ١٢ نوفمبر ١٩٢٦ م) ·

نعلم تماما أن الحزب لم يتخذ هذا كفكرة أولية · بل على العكس ، «فى العديد من أعمالنا ، فى كل خطبنا وفى كل منشوراتنا» · كما قال لينين ، ينطلق الحزب من الموقف المناقض ، والذى وجد تعبيره الأسمى فى برنامج C.P.S.U. ولكن يمكن للمرء أن يتخيل أن ستالين نفسه على الأقل ينطلق «دائما» من هذه الرؤية الزائفة بآن «يمكن بناء الاشتراكية بقوى قطر واحد» دعنا نفحصها ·

ليس بامكاننا على الاطلاق أية وسيلة لمعرفة آراء ستالين حول هذه القضية عام ١٩٠٥ م أو ١٩١٥ م · حيث لاتوجد أية وثائق للموضوع · ولكن عام ١٩٢٤ م · لخص ستالين آراء لينين حول بناء الاشتراكية كما يلى :

«أن الاطاحة بسلطة البرجوازية وقيام الحكومة البروليتارية فى قطر واحد لايضمن الانتصار الكامل للاشتراكية · المهمة الأساسية للاشتراكية ــ وهى تنظيم الانتاج الاشتراكى ــ مازالت فى الطليعة · هل يمكن تحقيق هذه المهمة ، وهل يمكن الحصول على الانتصار النهائى للاشتراكية فى قطر واحد ، دون الجهود المشتركة للبروليتاريا فى العديد من الأقطار المتقدمة ؟ لا ، هذا مستحيل · كى نطيح بالبرجوازية ، فان جهود قطر واحد تعد كافية ــ وتاريخ ثورتنا يكشف ذلك · ومن أجل النصر النهائى للاشتراكية ، ومن أجل تنظيم الانتاج الاشتراكى ، فان جهود قطر واحد ، خصوصا لمثل هذا البلد الزراعى كروسيا ، تعد غير كافية · لان جهود البروليتاريين فى العديد من الأقطار المتقدمة تعد ضرورية ···

«هذه على وجه الاجمال ، الملامح المميزة للنظرية اللينينية

حول الثورة البروليتارية» (ستالين ، لينين واللينينية ص ٤٠ ف ، الطبعة الروسية ١٩٢٤ م) ٠

ينبغى على المرء التسليم بأن «الملامح المميزة للنظرية اللينينية» قد أوجزت هنا بشكل صحيح تماما ٠ وفى الطبعة الأخيرة لكتاب ستالين قد حذفت هذه الفقرة كى تقرأ بشكل مغاير تماما وأصبحت «الملامح المميزة للنظـرية اللينينية» يدعى فى غضون عام ٠٠٠ وكأنها التاروتسكية Trotskyism

٠٠٠ تقود نظرية الاشتراكية فى قطـر واحد بشكل صارم الى التهوين والاستخفاف بالمصـاعب التى ينبغى تذليلهاوقهرها ،والى المبالغة فىقدر الانجازات التى تحققت ٠ ولن نجد ماهو أكثر مناهضة للاشتراكية والثورية من تأكيد عبـارة ستالين على المحصـلة والنتيجـة بأنه «قد تحققت الاشتراكية بنسبة ٩٠٪ فى الاتحـاد السوفيتى U.S.S.R. وتبدو هذه العبارة وكأنهـا أعـدت خصيصا للبيروقراطيـة المتحذلقة وبهذه الطـريقة لن يامل أحـد فى تشويه فكرة المجتمع الاشتراكى فى عيون الجماهير الكادحة ٠ فلقد حققت البروليتاريا السوفيتية نجاحات هائلة ، لو آخذنا فى الاعتبار الظروف التى تحققت فى ظلها والمسـتوى الثقافى المتـدنى الموروث من العصور السابقة ٠ ولكن هذه الانجازات تشكل مقدارا بالغ الضآلة بمعايير النموذج الاشتراكى ٠ فالحقيقة المؤلمة وليس الزيف ذو الطعم الحلو هو المطـلوب لتشـجيع وتقوية العمال ، العمال الزراعيين ، والفلاحين الفقراء ، الذين يرون بعد مضى العام الحادى عشر للثورة أن الفقر ، البؤس البطالة ، طوابير الخبز ، الأمية ، الأطفال المشردين السكارى ، والبغاء ، لم تختف من حولهم ٠ وبدلا من اخبارهم بالأكاذيب عن تحقيق ٩٠٪ من الاشتراكية ، ينبغى أن تقول

لهم أن مستوانا الاقتصادى وظروفنا الاجتماعية والثقافية أكثر قربا اليوم من الرأسمالية تقريبا ، وبالتالى من الرأسمالية المتخلفة غير المتحضرة منها الى الاشتراكية ٠ وينبغى القول لهم أننا سندخل طريق البناء الاشتراكى الحقيقى فقط عندما تتقلد البروليتاريا فى معظم الأقطار المتقدمة السلطة ، وذلك ضرورى من أجل العمل المتواصل لتحقيقه ، باستخدام محورين ـ المحور القريب لجهودنا الاقتصادية الداخلية والمحور البعيد لنضال البروليتاريا الأممى ٠

باختصار ، بدلا من عبارات ستالين حول الاشتراكية التى تحقق منها ٩٠٪ ، ينبغى أن تتحدث اليهم بكلمات لينين: «ستصبح روسيا (أرض الفقر) (أرضا للوفرة) لو نبذنا أى تشاؤم والمتاجرة بالكلام ، لو أطبقنا بالنواجذ ، واستجمعنا كل قوانا ، لنقوى كل عضلة وكل عصب لو فهمنا أن الخلاص ممكن فقط على طريق الثورة الاشتراكية الأممية التى خضنا غمارها) (الأعمال مجلد ١٥ ص ١٦٥) ٠

قراءة رقم (٢٠)

جوزيف ستالين : الظهور المتجددة للدولة *

«فى النص التالى تبرير ستالين لاستمرارية وتطور سلطة الدولة» •

● •• يتساءلون أحيانا «لقد أطحنا بالطبقة الاستقلالية لم يبق بعد أية طبقات عدائية فى البلد ، وليس هناك أى شخص كى نقمعه ، اذن ليست هناك آية حاجة للدولة ينبغى أن تقتلع ـ لماذا اذن لانساعد دولتنا الاشتراكية على الفناء ؟ لماذا لانناضل لوضع نهاية لها ؟ أليس هذا وقت التخلص من الدولة التى تمثل عقبة ؟

أو مرة أخرى : «لقد ألغيت الطبقات الاستغلالية من قطرنا تماما ، ولقد قامت الاشتراكية بشكل أساسى ، ونحن نتقدم تجاه الشيوعية • والآن ، تقول النظرية الماركسية للدولة أنه لاينبغى وجود دولة فى ظل الشيوعية • فلماذا اذن لانساعد دولتنا الاشتراكية كى تختفى وتفنى ؟ أليس هذا وقت احالة الدولة لمتحف الآثار ؟» •

توضح هذه الأسئلة أن الذين يطرحونها يستظلون بوعى تحت خيام خاصة لنظريات ماركس وانجلز حول الدولة بل

(★) سالتين ، مشاكل اللينينية (دار نشر اللغات الأجنبية : موسكو ١٩٥٣م) ص ٧٩٠ الى ص ٧٩٤ •

أنها توضح أيضا أن هؤلاء الرفاق لم يتفهموا المعنى الجوهرى لتلك النظريات ، وانهم لم يدركوا فى ظل آية شروط وظروف تاريخية يمكن تحقق هذه النظريات ، وأيضا ، وهو الأهم ، انهم لم يفهموا الظروف الدولية الحالية ، وأغفلوا الحصار الرأسمالى والأخطار التى يمثلها بالنسبة للقطر الاشتراكى · وتنم هذه الأسئلة عن تقليل من شأن الحصار الرأسمالى ، بل وتدل على تقليل من شأن حكم الدول البرجوازية وأهميتها هى وأدواتها ، والتى ترسل الجواسيس والقتلة والمخربين الى قطرنا ، فى انتظار فرصة أفضل لمهاجمتنا بالقوة المسلحة ··

فما الذى تنبثق منه هذه التهوينات ؟

يظهر تبعا للاستشهادات المجتزأة والغير ملائمة من نظريات ماركس حول الدولة وتلقى انتشارا تبعا لغفلتنا الغير مبررة عن الأمور المتعلقة بنظرية الدولة ، برغم حقيقة أننا لدينا خبرة عملية لحكم عشرين عاما فى شئون الدولة والتى تمدنا بمواد ثرية للتعميمات النظرية ، وبرغم حقيقة أن لدينا الرغبة ، والفرصة كى نسد بنجاح تام تلك الفجوة فى النظرية ··

خذ على سبيل المثال ، الصياغة اللاسلكية لنظرية تطور الدولة الاشتراكية التى وضعها انجلز : «بمجرد آلا توجد أية طبقة من المجتمع كى يتم اخضاعها ، وبمجرد الغاء صراع الفرد من أجل البقاء المبنى على فوضى الانتاج حتى الآن بمحاذاة السيادة والهيمنة الطبقية ، والصدامات والتجاوزات التى تنبثق منه ، فلن يوجد أى شىء كى يتم قمعه والذى يستتبع بالضرورة وجود قوة قمعية خاصة ، وهى الدولة · فالعمل الأول الذى يقدم الدولة باعتبارها الممثل للمجتمع ككل ـ امتلاك وسائل الانتاج باسم المجتمع ـ هو فى نفس

الوقت عملها الأخير والمستقبل باعتبارها دولة • وتدخل الدولة وسلطتها فى العلاقات الاجتماعية يصبح بلا أهمية حقبة بعد أخرى ، ومن ثم تتوقف بذاتها • ويتم احلال ادارة الأشياء واتجاه عمليات الانتاج محل الحكومات التى تقوم على الأشخاص • ولذا لن «تلغى» الدولة ، بل تتلاشى» •

هل قضية واطروحة انجلز هذه صحيحة ؟ نعم انها صحيحة ، ولكن فى أحد طرفين :

(أ) لو أننا تناولنا الدولة الاشتراكية من زاوية التطور للمجتمع ، وتجردنا باطراد من العامل الدولى والأممى وتخلصنا منه ، وعزلنا قطرنا والدولة عن الموقف الدولى ، لصالح البحث •

(ب) أو لو افترضنا أن الاشتراكية أصبحت مستقرة تماما فى كل الأقطار ، أو فى معظم البلدان ، وأن الحصار والتطويق الاشتراكى قد وجد بدلا من الحصار الرأسمالى وأنه لم يعد هناك أى خطر من التدخل والهجوم الأجنبى ، ولم تعد هناك حاجة لتقوية الجيش والدولة •

حسن ، ماذا لو أن الاشتراكية منتصرة فقط فى قطر واحد بمفرده ، ولو أنه فى ضوء ذلك ، يصبح من المستحيل تماما أن تتخلص وتتجرد منه الظروف الدولية ـ ماذا اذن ؟ لاتمدنا صياغة انجلز باجابة على هذا السؤال • ومن المسلم به ، أن انجلز نفسه لم يطرح هذا السؤال ولهذا لم يقدم له اجابة • ينطلق انجلز من افتراض أن الاشتراكية قد انتصرت بدرجة أكثر أو أقل فى كل الأقطار فى وقت واحد ، أو فى معظم الأقطار ، وبالتالى لم يبحث انجلز هنا فى دولة اشتراكية معينة لقطر معين ، لكن فى تطور الدولة الاشتراكية عموما

على افتراض أن الاشتراكية قد انتصرت فى غالبية البلدان ، ماهى التغيرات التى ينتبغى أن تخضع لها الدولة البروليتارية الاشتراكية؟» هذا الطابع العام المجرد للقضية فقط هو الذى يمكنه تفسير لماذا تجرد وتخلص لينين فى بحثه فى مسألة الدولة الاشتراكية تماما من ذلك العامل أى الظروف الدولية والموقف الدولى .

لكن يستتبع ذلك أنه ليس بامكان صيغة انجلز العامة عن مصير الدولة الاشتراكية عموما أن تتسع لحالة معينة خاصة لانتصار الاشتراكية فى قطر واحد بمفرده ، قطر محاط بعالم رأسمالى ، وهدف لخطر الهجوم العسكرى الأجنبى ، ولذا لايمكنها التحرر من الموقف الدولى ، وينبغى أن تمتلك فى متناولها جيشا مدربا جيدا ، وادارات منظمة للعقوبات وخدمة مخابرات قوية ، بالتالى ، ينبغى أن يكون لها دولتها الخاصة قوية بدرجة تمكنها من دحر غزاة الاشتراكية والهجمات الأجنبية ...

قراءة رقم (٢١)

الخط السياسى للحزب الشيوعى
فى الثقافة : «الأدب» *

«فيما يلى بعض البيانات الرسمية توضح ثمار ديكتاتورية الحزب فى مجال الثقافة · هذه فقط بعض النماذج فى مجالات مختلفة بدءا من علوم الفضاء الى علم الحيوان والتى مارس فيها الحزب الشيوعى ، رقابة فكرية باستخدام جميع عقوبات الدولة للاجبار على تطبيق هذه المراسيم · والترجمة الانجليزية للقرارات الرسمية قام بها جورج س كونتس ونوكيا لودج»

● ·· تلاحظ اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى أن الصحيفة الأدبية zvezda وصحيفة لننجراد تدار بأسلوب غير مرضى تماما ·

تظهر فى صحيفة zvezda بجوار الأعمال المميزة والناجحة للكتاب السوفيت أعمال أخرى ضارة ايديولوجيا · والخطيئة الكبرى لصحيفة ايزفيستيا تكمن فى كونها منبرا أدبيا فى متناول الكاتب zoshcheuko والذى تعد أعماله غريبة عن الأدب السوفيتى والحقيقة المعروفة جيدا لمحررى

(*) عن كتاب « مجتمع العميان » تاليف جورج س كونتس ونوكيا لودج (بوسطن : هو حتين ، ميفلين ١٩٤٩) ص ٧٩ ـ ٨٣ · باذن من المؤلف · ويعد هذا الكتاب خزانة ثرية بالوثائق الرسمية عن خط الحزب فى الثقافة ·

جريدة أزفستيا أنه تخصص لمدة طويلة فى كتابات القصص الضحلة والفارغة المبتـذلة ، وفى المواعظ المهترئة المبتذلة والحيادية فى الايديولوجيا والسياسة ،أعدت لتضليل وتسميم وعى شبابنا • فالقصة الأخيرة من قصص تشيكينكو «مغامرات قرد» (جريدة أزفستيا ، اعداد ٥ ــ ٦) ســخرية مبتذلة من الحياة السوفيتية والشعب السوفيتى •

وتلاحظ اللجنة المركزية أن صحيفة ليننجراد والتى تفرد صفحاتها باستمرار للتهجمات وافتراءات تشيكينكو ، وللشعر الفارغ الأجوف اللاسياسى لا آخما توفا **Akhmatova** تدار بشكل سىء • وتماما مثل مجلس تحرير صحيفة أزفستيا، فان مجلس تحرير لننجراد ارتكب خطيئة فاحشة بنشره سلسلة من الأعمال مشبعة بروح تقديس تجاه كل ماهو أجنبى •

تقرر اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى :

١ ــ الزام مجلس تحرير صحيفة آزفستيا ، وادارة اتحاد الكتاب الســوفيت ، وادارة الدعــاية للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى باتخاذ اجراءات للالغاء غير المشروط لأخطاء وتقصير الصحيفة المذكورة فى هذا القرار وتصحيح خط الجــريدة ، وتأكيــد مســتوى أيديولوجى وأدبى عالى للصحيفة ، وايقاف نشر أعمال تشيكينكو واخماتوف ومن على شاكلتهم فى الجريدة •

٢ ــ بالاشارة لحقيقة عدم وجود الظــروف الضرورية فى الوقت الحاضر لاصدار صحيفتين أدبيتين فى لننجراد، يوقف نشر صحيفة ليننجراد ، وتحشد القوى الأدبية لها وتركز فى صحيفة أزفستيا •

٣ ــ من أجل ارساء النظام الضرورى فى عمل مكتب التحرير

لجريدة أزفستيا ولاجراء التحسين الجـذرى لمضـمون صفحاتها . يعين رئيس تحرير ومجلس تحرير • وفتح رئيس التحرير مسئولية كاملة عن التوجيه الأيديولوجي والسياسي للجريدة ونوعية الأعمال المنشورة بها •

٤ ــ تعيين الرفيق أ • م • بوجلبن كرئيس تحرير للجريدة دون اقصائه عن واجباته كمدير تنفيذى لادارة الدعاية باللجنة المركزية للحزب الشيوعى •

قراءة رقم (٢١ أ)

الخط السياسي للحزب الشيوعي في الموسيقى

٠٠٠ تعتبر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي أوبرا Velikaia uruzhba (موسيقى فانو موراديلي ، تأليف نص الاوبرا (ليبرتو) ج ٠ مديفافي) والتي قدمت على مسرح البولشوي في الاتحاد السوفيتي في الذكرى الثلاثون لثورة أكتوبر ، تعتبرها رديئة وغير فنية سواء في الموسيقى أو موضوع نصها ٠

تكمن العيوب الأساسية للأوبرا قبل كل شيء في موسيقاها فالموسيقى ضعيفة وغير معبرة فهي لاتتضمن أية نغمة أو لحن (آريا) يمكن تذكرها ٠ وهي مشوشة وغير متآلفة (نغميا) ، وقائمة على التنافرات المعقدة ، وتوافق الأصوات التي تخترق الآذان ٠ وبعض الخطوط اللحنية والمشاهد يتم قطعها فجأة تذرعا بعملية التلحين بتنافرات مزعجة غريبة كلية على الآذان الانسانية العادية ومحبطة للمستمع ٠ ولايوجد أي ارتباط عضوي بين المصاحبة الموسيقية وتطور الأحداث على المسرح ٠ أما الجانب الغنائي في الاوبرا الكورال ، الأداء الفردي (صولو) ، غناء المجاميع — يعطي انطباعا يبعث على الرثاء كنتاج لكل ذلك ، ولم تستغل امكانيات الأوركسترا ولا المغنيين ٠

٠٠٠ تعتبر اللجنة المركزية للحزب أن فشل أوبرا

موراديلى نتاج للنهج الشكلى الذى اتبعه وهو النهج الزائف والضار بالعمل الابداعى للمؤلف الموسيقى السوفيتى ٠

أظهر مؤتمر الموسيقيين السوفيت الذى أدارته اللجنة المركزية للحـــزب ، أن فشـــل أوبـــرا موراديلى ليس حالة فريدة ٠ انه وثيق الارتباط بالحالة الغير مرضية للموسيقى السوفيتية المعاصرة ، وبانتشار الاتجاه والنزعة الشكلية فى صفوف المؤلفين الموسيقيين السوفييت ٠

منذ وقت بعيد فى عام ١٩٣٦ م ، وبخصـــوص ظهور أوبـــرا «ليـــدى ماكبث «Lady Macbeth of Mtsenk» لديمترى تشستا كوفيتش ، وجهت البرافدا لسان حال اللجنة المركزية للحزب نقدا حادا للانحـــرافات الشـــكلية الغير شـــعبية فى موسيقاه ، وعرضت ضرر وخطورة هذا الاتجاه الشكلى على مســـتقبل الموســـيقى الســـوفيتية ٠ كتبت البرافدا حينئذ بتعليمات من اللجنة المركزية ، وصـــاغت بوضـــوح مطالب الشعب السوفيتى من مؤلفيه الموسيقيين ٠

٠٠٠ تقرر اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى :

١ ــ ادانة النزعة الشكلية فى الموسيقى السوفيتية باعتبارها ضد الشعب وباعتبـــارها تقـــود بالفعل الى تصـــفية وتفريغ الموسيقى من قيمتها ٠

٢ ــ تقترح على ادارة الدعاية والتحريض الدعائى باللجنة المركزية ولجنة الفنون بأن يبـــذلوا قصـــارى جهودهم لتصحيح وضع الموسيقىالسوفيتية ، وتصفية النقائص، ونشر وتوضيح القرارات الحالية للجنـــة المركزية ،

وتدعيم وتأييد تطور الموسيقى السوفيتية فى اتجاه الواقعية .

٣ ــ التصديق على القرارات التنظيمية التى خصصها الحزب والهيئات السوفيتية فى اتجاه تحسين الشئون والقضايا الموسيقية .

قراءة رقم (٢١ ب)

الخط السياسى للحزب الشيوعى في الفن والأدب المسرحى (الدراما) *

... بمناقشة قضية الذخيرة والحصاد من المسارح الدرامية repertoire واجراءات تحسينها ، تلاحظ اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى أن حالة العروض المسرحية غير مرضية .

... ترى اللجنة المركزية للحزب أن لجنة الشئون الفنية اتبعت خطا غير صحيح بتقديمها مسرحيات لمؤلفين مسرحيين برجوازيين أجانب . وقام بيت نشر Iskusstvo بنشر مسرحيات من فصل واحد لمؤلفين مسرحيين معاصرين من انجلترا أو أمريكا بالاشارة لتعليمات من لجنة الشئون الفنية .

... تقرر اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى :

١ - يلزم رئيس لجنة الشئون الفنية الرفيق خرباتشينكو khrapchenko بالغاء القصور والأخطاء الخطيرة التى وردت فى القرار الحالى فى أقصر فترة ممكنة .

(*) عن كتاب « بلد العميان » المصدر السابق ص ١١٩ - ١٢٢ .

٢ ـ تبعا للمكانة المتميزة والدور العميق للمسرح فى تعليم الشعب السوفيتى ، تلزم لجنة الشئون الفنية واتحاد الكتـاب السوفيت بتركيز جهـودهم لتلاصحيح وخلق العروض المسرحية السوفيتية المعاصرة ٠

قراءة رقم (٢١ ج)

الخط السياسى للحزب الشيوعى فى علم الاحياء *

... «قبل بداية القاء الخطاب الختامى «قال ليشنكو فلقد تساءلت : ماهو اتجاه اللجنة المركزية للحزب الشيوعى حيال الخطاب الذى ألقيته فى هذه الدورة ؟ واجابتى : لقد فحصت اللجنة المركزية خطابى وناقشته وصدقت عليه ، «حول الموقف من علم الاحياء» .

... ولقد أشعل هذا الاعلان من جانب الرئيس حماسا جماعيا لدى أعضاء دورة الاجتماع . وفى اندفاع واحد هب كل الحاضرين من مقاعدهم واستغرقوا فى عاصفة من التصفيق والتهليل لحياة اللجنة المركزية لحزب لينين وستالين، وحياة القائد الحكيم ومعلم الشعب السوفيتى المعلم الأول لعصرنا ، الرفيق ستالين ...

لقد عرض الباحث الأكاديمى د. ليشنكو بأفكار واضحة وعميقة المحاولات اليائسة للعديد من ممثلى المدرسة الرجعية المتفسخة مدرسة مندل ومورجان ، محاولاتهم للدفاع عن مواقفهم فى العلم . وفى نفس الوقت حدد المهام النضالية لعلم الاحياء فى المستقبل القريب .

(★) نقلا عن البرافدا عدد ١٠ اغسطس ١٩٤٨م . ورد فى كتاب « بلد العميان » مصدر سابق ص ٢٠٦ ــ ٢٠٨ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٣٥ .

يقول د· ليشينكو الرجل الأكاديمى «لايوجد فى العلم أى مجــال للمصــادفة · وحققت الطبيعة والكيمياء نجاحات مذهلة فى تطورها لانها أنكرت وتخلت عن تفسير الظواهر الطبيعية بمنطق المصادفة · وينبغى آن يستفيد علم الاحياء من هذه التجربة ·

«تقوم النظرية المثالية لصبغيات Chromosoms الوراثة فى مجملها على المصادفة · وتخضع عملية الاخصاب للمصادفة الخالصة · وتخضع عملية التهجين وانقسام الجينات للمصادفة · وأسباب المتغيرات الوراثية غــير معلومة وتخضــع أيضــا للمصادفة · تسود المصادفة فى كل مكان ومثل هذه النظرية لايمكن استخدامها كأساس لعلم الاحياء ·

··· يظهر الحزب رعاية أبوية هو والحكومة نحو تقوية وتطور النزعة Mickurinist فى علمنا ، ولازالة كل العقبات من طريق ازدهاره التام · وذلك يحتم علينا تطوير العمل بشكل أوسع وأعمق من أجل انجاز مطالب الشعب السوفيتى لتســليح الدولة والمزارع الجمــاعية بالنظــرية العلميــة المتقدمة ·

ينبغى علينا جديا وضع العلم والنظرية فى خدمة الشعب من أجل رفع مستوى محاصيل الحقول بسرعة أكبر والانتاج الحيوانى أيضا ، ورفع انتاجية العمل فى الدولة وفى المزارع الجماعية ·

أطالب كل الأكاديميين ، العاملين فى المجــال العلمى ، المهندسين الزراعيين ومربيى الماشية بالتعــاون الوثيق مع العمال التقدميين فى اقتصاد الريف الاشتراكى ، بأن يوجهوا كل طاقتهم لانجاز هذه المهام العظيمة النبيلة · (تصفيق) ·

العلم البيولوجي (الاحياء) التقـدمى مـدين لعباقرة الانسانية لينين وستالين ـ مدين لهم لهـذا : دخلت تعـاليم Michurin في خزانة معرفتنا ، والى العلم كقـاعدة ذهبية (تصفيق) ٠

تحيا تعاليم Michurin تعاليم تحـول الطبيعة العضوية لصالح رفاهية الشعب السوفيتى ٠ (تصفيق) ٠ يحيا حـزب لينين وستالين لكشفه واظهاره مؤخرين ٠ للعالم ولخلقه كل الظروف في بلدنا الضرورية لازدهار علم الاحيـاء المـادى المتقدم ـ (تصفيق) المجد لصديقنا العظيم وزعيم علمنا ـ قائدنا ومعلمنا الرفيق ستالين !

(وقف جميع الحاضرين وصفقوا لمدة طويلة) ٠

الى محررى صحيفة البرافدا : أرجو نشر النص التالى من تصريحى ٠

طالما أن حزبنا قد أدرك كلا الاتجاهين فى علم الوراثة السوفيتى وطالما اعتبر الخلاف بينهما كمناقشة بناءة للقضايا والمسائل النظرية فى العلم المعاصر تسهيلا لاكتشاف الحقيقة، ولقد دافعت باصرار عن آرائى التى كانت تختلف من بعض الوجوه مع آراء الأكاديمى د٠ ليشنكو ٠ ولكن الآن ، طالما أصبح واضحا لى أن المقولات الأساسـية لمدرسـة Michurin فى علم الوراثة السوفيتى قد لاقت قبولا وتصـديقا لدى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ، وباعتبارى عضـوا فى الحزب ، لايمكننى الدفاع عن مواقف أعلنت اللجنة المركزية لحزبنا خطأها ٠ (توقيع ٠ A.R. Zhebrak) ٠٠٠

قراءة رقم (٢١ د)

الخط السياسى للحزب الشيوعى فى السيرك *

موسكو ٥ مارس ــ ذكرت صحيفة الفنــون الســوفيتية اليوم أنه قد لوحظ «نزعات برجوازية» رجعية فى السيرك السوفيتى وأنه ينبغى كشف الأشخاص المسئولين عن ذلك ٠

وقالت الصحيفة «بازاحة الســتار تمــاما عن الباحثين الكوزموريوليتانى (ذوى الانتماءات ،غير الوطنية) والمديرين ذوى النزعات الشكلية الذين غرسوا النزعات البرجوازية فى قلب السيرك السوفيتى ، بذلك فقط يمكن للسيرك السوفيتى تحقيق نهضة جــديدة وأن يصبح تعبيرا عبقريا عن القــوة الروحية للشعوب التى تقطن بلادنا» ٠

ولقد ذيلت المقالة ذات الأعمدة الثلاث التى ظهرت فى الفنون السوفيتية «لسان حال لجنة الفنون الجميلة ووزارة الســينما ، بتــوقيع نيــكولاى بارزبلوفيتش ٠ وهــاجمت E. kuzhetsov الباحث والمؤلف وأعلنت أن أعماله «تمتدح باسراف فن السيرك المتفسخ فى البلدان الرأسمالية والذى يقدم مجموعات وجاذبية فارغة ايديولوجيا» ٠

(*) عن جريدة نيويورك تايمز ٥ مارس ١٩٤٩م ٠ « روســـيا تتهم السيرك » بالنزعات البرجوازية ٠

قراءة رقم (٢٢)

رودولف (١) هلفردنج : رأسمالية دولة أم اقتصاد دولة شمولى *

«واحد من أقدر الاقتصـاديين الماركسـية الارثوذكسى يحدد طبيعة الدولة السوفيتية»

● ٠٠٠ هل البيروقراطيـة «حقا» تحـكم الاقتصـاد (السوفيتى) وبالتالى الشعب ؟ فى كل مكان ، وبشكل خاص فى الاتحاد السوفيتى تتكون البيروقراطية من خليط لأكثر العناصر تنوعا ٠ حيث ينتمى اليها موظفو الحكومة بالمعنى الضيق للكلمة (بدءا من الموظفين الصغار ، حتى الجنرالات ، وحتى ستالين نفسه) وأيضا مـدراء كل أقسـام الصـناعة والموظفين بالبريد والسكك الحديدية ٠ كيف يتسنى لهـذه المجموعة المتباينة تحقيق حكم موحد ؟ ومن هم ممثلوها ؟

فى الواقـع ، ليست « البيروقراطية » حاملا مسـتقلا للسلطة ٠ بل هى وفقا لتكوينها وبالمثل وظيفتها ، مجـرد

(★) عن المجلة النقدية Modern Review يونية ١٩٤٧ م ونشر أصلا فى مايو ١٩٤٠م ، فى الدليل الاشتراكى (الروسى) ٠

(١) رودولف هفلرد ينج (١٨٧٧ ـ ١٩٤١) مفكر ماركسى نمساوى ، تعاون مع السياسة الاقتصادية للحركة الاقتصادية الديمقراطية الألمانية ، تولى منصب وزير المالية مرتين ١٩٢٣ ، ١٩٢٨ ٠ وحاول ترميم الوضع الاقتصادى لألمانيا دو نزيادة ضرائب ولا تخفيض الأجور اغتاله النازيون (١٩٤١) ، ويعزى اليه أحيانا الفضل فى اعطاء التحليل الجديد الثورى للمرحلة الامبريالية من الرأسمالية وسبقه فى ذلك للينين ٠ (المترجم) ٠

أداة فى أيدى الحكام الفعليين · وهى منظمة كتسلسل هرمى وخاضعة للسلطة التنفيذية وهى تتلقى الأوامر ولاتصدرها وكما حدد تاروتسكى فانه «يمكن التضحية بأى موظف على أيدى من هو أعلى منه تقليصا لأى نوع من الاستياء» وهؤلاء هم أرباب العمل الجدد ، والبديل للرأسماليين ! ولقد سفه ستالين هذه الخرافة عندما أمر باعدام الآلاف من المدراء الصناعيين ضمن آخرين ابان التطهيرات الأخيرة ·

ليست البيروقراطية هى التى تحكم ، بل من يعطيها الأوامر · وستالين هو الذى يعطى الأوامر للبيروقراطية الروسية · فلقد تقلد لينين وتاروتسكى السلطة ومعهم مجموعة مختارة من الاتباع الذين لم يكونوا آبدا قادرين على اتخاذ قرارات مستقلة كحزب بل ظلوا دائما أداة فى أيدى القادة ، عندما كان جهاز الدولة القديم يتعرض لانهيار · (ويصدق نفس الشىء مؤخرا على الأحزاب الفاشية والاشتراكية الوطنية) ــ وغيروا جهاز الدولة ليلائم حاجاتهم كحكام وقاموا بالغاء الديمقراطية وشيدوا ديكتاتوريتهم الخاصة والتى تعتبر فى أيديولوجيتهم ، بل على أية حال فى الممارسة ، وتتحدد «كديكتاتورية للبروليتاريا» وبهذا خلقوا الدولة الشمولية الاولى ــ حتى قبل اختراع هذا الاسم · وواصل ستالين انجازه المهمة ، بازاحة منافسيه باستخدام جهاز الدولة واقامة ديكتاتورية فردية غير محدودة ·

وتنبع من هذه الحقيقة نتائج اقتصادية هامة · فجوهر الدولة الشمولية هو الذى يخضع الاقتصاد لأهدافها · ويصبح الاقتصاد مجردا من قوانينه ، ليصبح اقتصادا موجها controlled economy · وبمجرد آن يكتسب ذلك التوجيه

فاعليته ، يحول اقتصاد السوق الى اقتصاد مستهلكين • وحينئذ تقرر الدولة طابع ومدى الحاجات • ويمدنا اقتصاد ألمانيا النازية وايطاليا الفاشية بالدليل على حقيقة أنه بمجرد بدء ذلك التوجيه فى دولة شمولية ، فانه ينتشر ويتغلغل بسرعة وينزع نحو احكام قبضته كاملا كما هو الحال فى روسيا من البداية المبكرة •وبرغم اختلاف نقاط الانطلاق للنظام الاقتصادى للدول الشمولية الا أنها تمضى فى مسار ملاصق لبعضها البعض • ففى ألمانيا أيضا ، تناضل الدولة للحفاظ على سلطتها وتقويتها فتقرر طابع الانتاج والتراكم • فتفقد الأسعار وظيفتها المعهودة وتصبح مجرد وسائل للتوزيع ويخضع الاقتصاد ومعه دلائل الأنشطة الاقتصادية للدولة بدرجة أو بأخرى ليصبح تابعا لها ويفقد الاقتصاد الأولوية التى كان يتمتع بها فى ظل المجتمع البرجوازى • ولايعنى ذلك بأية حال عدم وجود تأثير ضخم للدوائر الاقتصادية على السلطة الحاكمة فى ألمانيا وبالمثل فى روسيا • بل يعنى أن تأثيرها مشروط ، ذو حدود وليس حاسما بالاشارة لجوهر السياسة • والسياسة تتقرر من خلال دائرة صغيرة من أولئك الذين يتبوأون عرش السلطة • والذى يقرر السياسة التى يفرضونها كقانون على الاقتصاد التابع والخاضع للدولة هو مصالحهم وأفكارهم وماهو ضرورى للحفاظ وتنمية وتقوية سلطتهم الخاصة • وهذا هو السبب لاكتساب العامل الذاتى ، طابع التطور السياسى «اللاعقلانى» و «الغير ممكن التنبؤ به» تلك الأهمية فى السياسة •

كما يتجسد الايمان الراسخ فقط فى الجنة والنار باعتبارهم قوى قدرية ، كذلك اعتقاد المتعصب الماركسى فقط فى الرأسمالية والاشتراكية وفى الطبقات ــ البرجوازية

والبروليتاريا • ولن يقدر المتعصب المـاركسى على ادراك فكرة أن سلطة الدولة فى العصر الحاضر قد حققت استقلالية وبسطت قوتها الهائلة ، وتخضع القـوى الاجتماعية تبعـا لقوانينها هى وتجبرها على خدمة غاياتها لفترة زمنية طالت أو قصرت •

لذا فلا النظام الروسى ولا النظام الشـمولى يحـددهما طبيعة الاقتصاد • بل على العكس فان الاقتصـاد هو الذى تقرره سياسة السلطة الحاكمة ويخضع لأهداف وأغراض هذه السياسة فالسلطة الشمولية تحيا بالاقتصاد وليس من أجل الاقتصاد أو حتى لاجل اقتصاد الطبقة الحاكمة ـ كما هـو الحال فى الدولة البرجوازية ، رغم أنها (كما يستطيع أى طالب فى دراسة السـياسة الخارجيـة أن يدرك) قد تسعى وتنهمك لأهداف خاصة بها • وربما نجـد نظـيرا للدولة الشمولية فى عصر الامبراطورية الرومانية المتأخرة ، فى نظام الأباطرة وامبراطورياتهم •

بالطبع ، من وجهة نظر الديمقراطية الاشتراكية يمكن بالكاد اعتبار الاقتصاد البلشفى «اشتراكيا» فبالنسبة لنا تعد الاشتراكية والديمقراطية عروة وثقى لا انفصـام لهـا • ووفقا لمفهومنا تتضمن عملية تأميم وسائل الانتاج تحرير الاقتصاد من حـكم طبقة واحـدة وجعلها للمجتمع ككل ـ المجتمع الذى يحكم ذاتيا وبأسلوب ديمقراطى • ولم نتصور أبدا أن الشكل السياسى لذلك «الاقتصاد المخطط» الذى كان عليه أن يحل محل الانتاج الرأسمالى للسوق الحرة ، يمكن أن يصبح استبدادا مطلقا • وتتبدى لنا العلاقة والترابط بين الأساس الاقتصادى والبناء السياسى عـلاقة محددة جـدا : بالتحديد ، أن المجتمع الاشتراكى سـيدشن أسـمى تحقيق

للديمقراطية · حتى أولئك الذين يعتقدون بيننا أنه قد يكون ضروريا أو حتميا التطبيق الصارم للسلطة المركزة فى فترة الانتقال ، يعتبرون هـذه الفترة مؤقتـة فقط وفى سبيلها للانتهاء بعد اخضاع وقمع الطبقات التى تم تجريدها من ممتلكاتها ، وسيختفى حكم الطبقية مع اختفاء الطبقات ـ حكم الطبقة الذى تعتبره الشكل الوحيـد الممكن للحـكم السياسى عموما · «الدولة ستتلاشى وتندثر» ·

لكن التاريخ ذلك الشىء «المفضل لدى كل الماركسيين قد علمنا غير ذلك · لقد علمنا آن «ادارة الأشياء» رغم توقعات انجلز ، ربما تتحول الى «ادارة أفراد» غير محدودة ، وبذلك لاتقود فقط الى تحرر الدولة من الاقتصاد بل حتي تؤدى الى اخضاع الاقتصاد للدولة ·

بمجرد اخضاع الاقتصـاد للدولة ، يعمل على حمـاية وتثبيت الوجود المستمر لذلك الشكل للحكومة · وحقيقة أن تلك النتيجة تنبع من موقف استثنائى أوجدته الحرب لأول مرة لاتحول دون التحليل الماركسى ، بل تلغى بشكل ما مفهومنا المبسط والمبرمج عن الترابط بين الاقتصـاد والدولة وبين الاقتصاد والسياسة التى تطورت فى فترة مختلفة كليـة · وأدى ظهور الدولة كسلطة مستقلة لتعقيد أوسع للتشخيص الاقتصادى لمجتمع تلقبه فيه السياسة (الدولة) دورا ملزما وحاسما ·

لهذا السبب ، يبدو لى أن النزاع حول ما اذا كان النظام الاقتصاد للاتحاد السوفيتى «رأسمالى» أو «اشتراكى» خلافا فارغا · فهو لا هذا ولا ذاك · لانه يسد اقتصاد دولة شمولية ، أى النظام الذى تقترب منه أكثر وأكثر التصاقا اقتصـاد ألمانيا وايطاليا ·

قراءة رقم (٢٣)

أهداف ومهام الاشتراكية الديمقراطية

«البيان التالى صاغته الدولية الاشتراكية فى فرانكفورت، ألمانيا عام ١٩٥١ م · ويشير الى التأكيد المتجدد على الديمقراطية باعتبارها حجر الزاوية لغايات ووسائل الاشتراكية» ·

● لقد أصبحت الاشتراكية قوة عظمى فى الشئون الدولية · فلقد عبرت المرحلة الدعائية والى مرحلة التطبيق · فلقد أرسى أساس المجتمع الاشتراكى فى بعض الأقطار · حيث اختفت شرور وآثام الرأسمالية وتقدمت الجماعة بفاعلية متجددة · وأثبتت المبادىء الاشتراكية قيمتها فى الحركة والممارسة ·

·· فى أقطار عديدة ، أخلت الرأسمالية الحرة مكانها لاقتصاد تحدد فيه تدخلات الدولة والملكية الجماعية مدار الرأسماليين · ويتزايد عدد المدركين للحاجة للتخطيط · اكتسبت الضمان الاجتماعى والنقابية الحرة والديمقراطية الصناعية أرضا جديدة ·

··· تدعى الشيوعية زيفا وادعاء بحصة فى التقاليد الاشتراكية · وفى الواقع أنها شوهت وجرفت هذه التقاليد

دون تمييز • وأقامت لاهوتا صارما غير متسق مع الروح النقدية للماركسية •

• • • والشيوعية الدولية هى الأداة للدولة الامبريالية الجديدة • أينما تبوأت عرش السلطة دمرت الحرية آوالفرصة للحصول عليها • فهى تقوم على البيروقراطية المشبعة بالروح العسكرية والشرطة الارهابية • وخلقت مجتمعا طبقيا جديدا جديدا باظهارها لتناقضات فاضحة فى الثروة والامتيازات• ويلعب العمل الاجبارى دورا هاما فى تنظيمها الاقتصادى •

يناضل الاشتراكيون لبناء مجتمع جديد للحرية وبالوسائل الديمقراطية •

بدون الحرية لايمكن أن تكون هناك اشتراكية • ويمكن انجاز الاشتراكية منخلال الديمقراطية فقط • والديمقراطية يمكن بلوغها بأكملها من خلال الاشتراكية فقط •

● تتطلب الديمقراطية حق تعدد الأحزاب ووجود حق المعارضة • ولكن للديمقراطية حق وواجب الدفاع عن نفسها ضد أولئك الذين يستغلون فرصها فقط لتدميرها • فالدفاع عن الديمقراطية السياسية مصلحة حيوية للشعب • والحفاظ عليها شرط لتحقيق الديمقراطية الاقتصادية والاجتماعية •

• • • كل ديكتاتورية ، أينما توجد ، هى خطر على حرية الأمم ولذا على السلام العالمى • أينما يوجد استغلال غير مقيد للعمل الاجبارى ، سواء فى ظل الربحية الخاصة ، أو فى ظل الديكتاتورية السياسية ، فانه يشكل خطرا على المستويات المعيشية والأخلاقية لكل الشعب •

• • • تبحث الاشتراكية عن استبدال الرأسمالية بنظام تتخذ فيه المصالح العامة أولوية على مصلحة الفائدة الخاصة •

والأهداف الاقتصادية الآنية للسياسة الاشتراكية هى العمالة الكاملة للجميع ، انتاج أعلى ، مستوى معيشة مرتفع ، ضمان اجتماعى وتوزيع عادى للدخول والملكية •

••• يمكن تحقيق التخطيط الاشتراكى بوسائل عديدة• وينبغى أن يحدد بناء المجتمع المعنى مدى الملكية العامة وشكل التخطيط الذى سيطبق •

••• ويمكن للملكية العامة اتخاذ شكل التأميم للمؤسسات الخاصة الموجودة أو خلق مؤسسات عامة جديدة ، ومؤسسات محلية أو اقليمية وتعاونيات للمستهلكين أو المنتجين •

••• وينبغى عدم اعتبار هذه الأشكال المتعددة للملكية العامة كفايات فى ذاتها بل كوسائل للتحكم فى الصناعات والخدمات الأساسية وتوجيهها والتى يعتمد عليها الحياة الاقتصادية ورفاهية الجماعة ، ووسائل لعقلنة الصناعات الغير فعالة أو منع الاحتكارات الخاصة واتحادات أصحاب الأعمال Cartel من استغلال الشعب •

•• لايفترض التخطيط الاشتراكى مسبقا الملكية العامة لكل وسائل الانتاج • بل يتسق مع وجود الملكية الخاصة فى المجالات الهامة ، على سبيل المثال فى الزراعة ، الصناعات اليدوية تجارة التجزئة والصناعات الصغيرة والمتوسطة • وينبغى للدولة أن تمنع أصحاب الملكيات الخاصة من اساءة استخدام سلطاتهم • ويمكنها ويجب أن تساعدهم على المساهمة فى زيادة الانتاج والوجود الأفضل فى اطار الاطار العام للاقتصاد المخطط •

••• بينما المبدأ الموجه للرأسمالية هو الفائدة والربح

الخاص ، فان المبدأ الموجه للاشتراكية هو اشباع الحاجات الانسانية ٠

٠٠٠ تعنى الاشتراكية ماهو أكثر من كونها نظاما اقتصاديا واجتماعيا فالتقدم الاقتصادى والاجتماعى له قيمة أخلاقية بقدر مايوظف لتحرير وتطوير الشخصية الانسانية ٠

٠٠٠ تناضل الاشتراكية لتحرر البشر من المخاوف والقلق التى تلازمها كل صور عدم الاستقرار السياسى والاقتصادى ٠ وسيفتح هذا التحرر الطريق نحو التطور الروحى للبشر الواعيين بمسؤولياتهم ونحو التطور الثقافى للشخصية الانسانية المكتملة ٠ فالاشتراكية عامل فعال فى تدعيم هذا التطور والتقدم الحضارى ٠

٠٠٠ والاشتراكية الدولية أممية لانها تهدف الى تحرير كل البشر من كل أشكال العبودية الاقتصادية والروحية والسياسية ٠

٠٠٠ والاشتراكية الديمقراطية عالمية لانها تدرك أنه ليس بامكان أية أمة أن تحل كل مشكلاتها الاقتصادية والاجتماعية بمفردها ٠

٠٠٠ ينبغى التسامى فوق السيادة القومية المطلقة ٠ يمكن للمجتمع العالمى الجديد الذى يناضل لاجله الاشتراكيون أن يتطور كلية فى ظل السلام لو بنى فقط على التعاون الاختيارى بين الأمم ٠ ينبغى أن تقوم الديمقراطية لهذا على ميزان دولى فى ظل حكم عالمى للقانون الذى يكفل الحرية القومية وحقوق الانسان ٠

فهرس



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥٢٨٩ / ١٩٨٦

ISBN ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١١٣٦ ـ ٨

يتناول هذا الكتاب تطور الفلسفة الماركسية التي تعد — كما يقول المؤلف — من أهم الفلسفات المعاصرة وأكثرها إثارة لردود الفعل والمواقف المتباينة ، ويحمل تاريخ تطورها مفارقات عديدة حيث انتهت إلى كونها عقيدة فلسفية تسعى جاهدة لاحتلال موقع الدين وأداء دوره ، فاصطدمت بكثير من النظريات العلمية .

وهذه الترجمة تعتمد على نقد نظريات ماركس واتباعه من الرواد والأعلام الماركسيين باختلاف نحلهم وفصائلهم ، بإظهار التضارب والتناقضات الداخلية في بناء النظرية الماركسية ، والاستناد إلى ما آلت إليه الممارسة الفعلية .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٣٠٠ قرش